Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

39141

PT 48-10 c/o Khanji 12/2/45
2 vols
Bound 12
© 26

طه حسين

لحظات

١

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARY

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

893.7H954
S7

45-39141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

فهرست

	صفحة
الأبناء والآباء	٥
الحب	١٧
النضال	٣٧
أنت وأنا	٦٣
دينيز	٨٣
روى بلاس	١٠٢
أنصاف الحرائر	١٢٣
خياطة لونيفيل	١٤٣
الحارسة	١٥٩
الأميرجان	١٧٧
الرجل المغلول	١٩٩
منافنا	٢٢٣

45-30141 June 30, 1947 IM/MLF

مقدمة

هذه لحظات أدبية ، قضيتها أيام الشباب بين أدباء الغرب وقراء الشرق . وكنت أجد فيها من رضى العقل ونعمة البال وراحة الضمير شيئاً كثيراً . فقد كنت أحس حين أقرأ هذه الآثار الأدبية وحين أعرضها على قراء العربية أنى أنهض بواجب خطير هو تحقيق الصلة العقلية بين الشرق والغرب . وكنت أنتظر للنهوض بهذا الواجب الخطير نتائج ليست أقل منه خطراً .

كنت أنتظر إذا قرأت هذه الفصول وفهمت على وجهها أن تقرب الآماد بين الشرق والغرب ، وأن يكون ذلك وسيلة من الوسائل الى تحقيق المودة والتعاون بين طائفتين من الشعوب أفسدت أمرهما الخصومات التى كان الشرق فيها مظلوماً وكان الغرب فيها ظالماً .

وكنت أقضى هذه اللحظات الأدبية الحلوة فى تلك الأيام السياسية المرة التى بلغ الصراع فيها أشده بيننا و بين الأوروبيين فى أعقاب ثورتنا الوطنية الأخيرة. فكنت أستعين بحلاوة الأدب على مرارة السياسة، وكنت أسلك طريق التقريب بين العقول على حين كانت السياسة تفرق بين العواطف والقلوب.

وكنت أقضى هذه اللحظات الأدبية الممتعة فى تلك الأيام السياسية الممضة التى بلغت فيها الخصومة بين المصريين أنفسهم أقصاها؛ فتنكر بعضهم لبعض وأضمر بعضهم لبعض كثيراً من الحقد والبغض والعداء.

وكنت أعتقد — ولم أكن مخطئاً — أن هذه اللحظات الأدبية ستنتج فصولا لا تمس السياسة من قريب ولا من بعيد، وسيقرأها المصريون مهما تكن أحزابهم وسيلتقون فى الرضا عنها أو السخط عليها. وسيتحدث بعضهم الى بعض بتقريظها أو الغض منها، وستكون وسيلة من وسائل المودة بين قوم لا ينبغى أن يكون بينهم شىء آخر إلا المودة.

وكنت — ولا أزال — شديد الإيمان بأن الأدب الحى لا يستطيع العزلة و إنما هو مضطر إلى أن يتصل بالآداب

الحية الأخرى . وسبيله إلى ذلك النقل والترجمة والتلخيص والتعريف بالأدباء من الأجانب .

وكنت أسلك إلى هذا ، الطريق التى سلكها العرب فى عصورهم القديمة وسلكها المصريون فى تاريخهم الحديث . وكنت مطمئناً إلى أن سلوك هذه الطريق سيزيد أدبنا العربى قوة إلى قوة ويمنحه حياة إلى حياة ، وسيمنح لغتنا العربية حظاً من المرونة فيمكنها من أن تؤدى معانى وأغراضاً لم تتعود أن تؤديها من قبل .

وكنت — ولا أزال — مؤمناً بأن الأدب الحى لا ينبغى أن يتهالك على الآداب الأجنبية ، ينقل منها ويترجم عنها ، ذلك أحرى أن يفنيه فيها ويفقده هذه الحياة القوية التى تأتيه من شخصيته الخالدة وأصوله القديمة . فليس له بد من أن يوازن بين قوته التى تأتيه من نفسه وهذه القوة الطارئة التى تأتيه من غيره . وكنت من أجل ذلك أنشر هذه الفصول فى أيام الآحاد وأنشر فصولا عن الأدب العربى القديم فى أيام الأربعاء . أوازن بذلك بين إحياء الأدب القديم وإغنائه بما أقدم اليه من مادة الأدب الأوروبى الحديث . ويخيل الىّ أن شيئاً من التوفيق قد

كتب لى فى هذه الخطوات التى خطوتها فى تلك الأعوام الحلوة المرة التى أذكرها الآن فى كثير من الحب والحنان ، وفى كثير من الرضى والفخر ؛ لأنها كانت أعوام النهضة المصرية الصحيحة ولأنها كانت أعوام الحرية المصرية الصادقة التى لم تكن تحفل إلا بالحق والمنفعة العامة .

ويخيل إلىّ أن الجيل الذى كتبت له هذه الفصول منذ أكثر من خمس عشرة سنة قد انتفع بها واستفاد منها سواء فى ذلك من تلقاها راضياً ومن قرأها راغباً عنها ساخطاً عليها . وهى على كل حال قد دفعت ذلك الشباب إلى الأدب الغربى وإلى فن التمثيل منه خاصة . ولولا أحداث السياسة وخطوبها والنكبات التى ألمّت بالعقل المصرى حين طغى الطغاة وبقى البغاة وصد المصريون عن حقهم فى الحرية والدستور لكان لتلك النهضة وما أنتجت من الآثار الأدبية نتائج أقوم من النتائج التى وصلنا إليها .

ومهما يكن من شىء فقد أدت هذه الفصول حينئذ ما كان ينتظر منها فنفعت جيلا من القراء المصريين والشرقيين بوجه عام ثم أنطوت عليها الصحف التى نشرت فيها فنامت بين

هذه الآثار التى تكتب فى كل يوم وتطوى عليها الصحف وتطمئن فى دور الكتب مصادر للتاريخ .

وقد مضى الآن دهر على هذه الفصول حتى نسيها الجيل الذى قرأها ولم يعرفها الجيل الناشىء من الشباب فلنوقظها من نومها ونخرجها من دور الكتب ولنقدمها إلى هذين الجيلين .

فأما أحدهما فسيقرأها فيذكر أياماً حلوة وعهداً سعيداً ، وأما الآخر فسيقرأها ومن يدرى لعلها أن تحدث فى نفسه من الآثار أكثر مما أحدثت فى نفس الجيل الماضى فإذا هو مقبل على الأدب العربي يقويه وينميه وينتج فيه أكثر مما انتجنا وخيراً مما انتجنا .

وقد أقبل القيظ بما فيه من دعاء الى الراحة وترغيب فى القراءة التى لا تشق على القارىء . وقد طالت الحرب وتعقدت خطوبها وتتابعت أهوالها واحتاج الناس من أجل هذا كله الى ما يشغلون به أنفسهم عن هذه الآلام التى لا تنقضى فأقل ما فى هذه الفصول إنها ستلهى القراء عن أنفسهم ساعات من نهار أو ساعات من ليل .

يونيو سنة ١٩٤٢

الأبنـــاء والآباء

ليس هذا عنوان القصة ، ولـكنه موضوعها فإنى أريد أن أحدثك عن قصة تمثيلية صغيرة مثلت فى باريس منذ حين ووصل إلينا نصها آخر السنة الماضية . وهذه القصة فصل واحد ، تسمى « كبار الصبية » ، أعجب بها الجمهور فى فرنسا ، وأعجب بها النقاد وعدت أثراً من أحسن الآثار الأدبية لـكاتبها « پول جرالدى » .

موضوع هذه القصة ، كما قلت ، الأبنـاء والآباء . ويخيل إلىَّ أن ليس من الشبان المتعلمين فى مصر وغير مصر من لا يجد نفسه فيها إذا قرأها . فهى تصف شيئاً مشتركاً بين الناس جميعاً وتمثل عاطفة يشعر بها الناس جميعاً . تصف هذا الفرق العظيم الواضح بين الآباء والأبناء ، أو بين الشباب

والشيب ، أو بين هذا الجيل الناشىء الذى يستقبل الحياة وذلك الجيل الفانى الذى يودع هذه الحياة . لكل من هذين الجيلين شعوره وعواطفه ومناهجه الخاصة فى التفكير ، ومناهجه الخاصة فى العمل أيضاً . ومع ذلك فالجيل الناشىء ابن الجيل الفانى ؛ فهو فى حقيقة الأمر إستمرار له ومرآة تعكس صورة من صوره . وإذن فهناك تشابه ، وهناك تباين ، وإذن فهناك اتفاق وهناك افتراق .

أنظر إلى ما بينك وبين أبيك من صلة شعورية أو خلقية أو عقلية ، تجد أنه قد أورثك أشياء كثيرة فورثتها عنه . ولكن هذه الأشياء التى ورثتها ونمّتها فيك التربية الأولى لم تخضع لسلطان أبيك فى كل وقت ، بل أفلتت من هذا السلطان وخضعت لسلطان آخر أو لأنواع مختلفة من السلطان : خضعت لسلطان المدرسة وما درست فيها ، وخضعت لسلطان المعاشرة وما أحدث فى نفسك من أثر ، من هذا الأثر القوى الذى يحدثه فى النفس حب الصديق والميل إلى تقليده وبغض العدو والنفور من محاكاته . وخضعت لسلطان الحياة العاملة ، هذه الحياة التى تراها فى الشارع وفى مجالسك العامة والخاصة

وحيثما ذهبت وأينما وجّهت . وخضعت لسلطان ما قرأت وتقرأ في الكتب والصحف ، وما سمعت وتسمع من أحاديث . خضعت لهذا كله فتغيرت واستحلت قليلا أو كثيراً ، وأصبحت تشبه أباك وتخالفه . ونشأ عن هذا الشبه حب وعطف ، ونشأ عن هذه المخالفة بعد ونفور . فلن تستطيع مهما تحاول أن تنكر أنك تبعد من أبيك وتنفر منه وتحيا حياة خاصة تكتمه إياها الكتمان كله وتأبى أن يظهر منها على شيء قليل أو كثير . تشعر بأشياء لا يشعر أبوك بها ، وتحرص على أن يجهل أنك تشعر بهذه الأشياء . تميل إلى أشياء لا يميل إليها ، وتجتهد أن يجهل أبوك أنك تميل إلى هذه الأشياء . وتطمع في أشياء : ينصرف هو عنها ، وتخفى على أبيك أنك تطمع في هذه الأشياء فاذا جلس أحدكما إلى صاحبه كان الحديث بينكما عسيراً ضيقاً محدود النواحي والأطراف . لأن وجوه الشبه بين نفسيكما أقل مما تظنان . فلك طريقك في الشعور والتفكير والحكم على الأشياء ، وله طريقه في الشعور والتفكير والحكم على الأشياء . فاذا تحدثتما فقلما تتفقان ، وكثيراً ما تختلفان . وللخلاف أثر سيء ونتائج خطرة على ما بينكما من مودة وعلى ما للأسرة كلها

من صلة . وإذن فأنتما تجتهدان اجتهاداً خفيًّا لا تحسَّانه ولا تشعران به ، تجتهدان فى ألا تلتقيا . فاذا التقيتما اجتهدتما فى ألا تتحدثا . فاذا تحدثتما إجتهدتما فى ألاَّ تتعمقا فى الحديث ، وفى ألاَّ يمس هذا الحديثُ هذا الجزء الخاص من الحياة الذى هو أعز أجزاء الحياة على الانسان . هذا الجزء الذى يمس حياة القلب والعاطفة وحياة العقل والتفكير . لا تتحدثان فى ذلك إلا قليلا وحين تُكْرَهان على هذا الحديث . وإنما تتحدثان فى الجو والمطر وفى أخبار الناس وما يعرض لمن تعرفان من خير أو شر ، فى هذه الأشياء التى ليس بينها و بين الحياة الخاصة صلة والتى ليس لها على القلب والعقل من سلطان .

أليس هذا حقًّا ! أليس هذا ما يشعر به الشاب أمام أبيه الشيخ ! والأب أمام ابنه الشاب ! أليس هذا ما يشكو منه الآباء والأبناء جميعاً ! أليس هذا معنى تغير الزمان ! أليس هذا معنى قول الأب ينكر حياة أبنائه ومناهجهم فيها : « لقد أصبحنا فى آخر الزمان » ! ومعنى قول الأبناء ينكرون حياة آبائهم ومناهجهم فيها : « لقد مضى بذلك الزمان » !. نعم هو هذا ! هو الجهاد المتصل بين القديم والجديد ، و بين ما تضيئه

شمس هذا الجيل وما أضاءته شمس الجيل الماضى وما ستضيئه شمس الجيل المقبل ! هو هذا ! ولكننا لا نلتفت إليه ولا نفكر فيه ولا نحاول فهمه وتقصّى أسبابه .

ولو أنا التفتنا إليه ودرسناه لأذعنّا له وقبلناه لا ساخطين ولا منكرين ، كما نذعن لقوانين الطبيعة المادية وما تستتبعه من لذة وألم مجتهدين فى أن نسخّر هذه القوانين فنكثر آثارها الحسنة ونقلل آثارها السيئة ما استطعنا . نعم ! لو فكرنا وتفهمنا لاسترحنا . ولكنا لا نفكر ولا نتفهم ، فنحن فى ألم يعقبه ألم ، وحسرة تتبعها حسرة . ويكفى أن تجلس إلى الآباء وتسمعهم يندبون سوء حظهم وخيبة أملهم فى أبنائهم . فهم لا يشكون فى أن هؤلاء الأبناء قد درسوا فأحسنوا الدرس ، وسعوا فأحسنوا السعى ، ووصلوا بعد هذا وذاك إلى المنازل الاجتماعية التى تليق بهم وترضى فخر آبائهم ، ولكنهم برغم هذا كله متكبرون أو مسرفون فى الصمت ، أو متفرنجون . هم على غير ما كان الآباء ينتظرون .

الآباء راضون ؛ لأن أبناءهم قد ظفروا . والآباء ساخطون لأن شيئاً ما يحول بين هؤلاء الآباء وأبنائهم ويمنع كل فريق منهم أن يفهم صاحبه .

وكذلك حديث الأبناء إذا جلست إليهم . فهم يعرفون لآبائهم الرحمة والبر وما كلَّفتهم الرحمة والبر من عناء وما حمَّلاهما من مشقة . ويعرفون لآبائهم أنهم كدوا نهارهم وأرقوا ليلهم ليربُّوهم ويعدُّوهم للجهاد واحتمال أثقال الحياة ، وأنهم مدينون لآبائهم بما بلغوا من منزلة وما ارتقوا اليه من مرتبة ، ولكن هؤلاء الآباء يفكرون على الطريقة القديمة ، ويشعرون على الطريقة القديمة ؛ فهم لايفهمون ما نفهم ، ولا يشعرون بما نشعر به ، وكثيراً ما تضيق نفوسهم بأشياء نراها نحن هينة مقبولة بل مستحبة محمودة . تسمع ذلك وهذا اذا جلست الى الآباء والأبناء ، بل تشعر بهذا وذاك اذا جلست الى أبيك ثم خلوت الى نفسك . وتمر الحياة وتتوالى الأيام وبينك وبين أبيك إلى جانب الحب والمودة والعطف والبر شيء من سوء الظن ومن الاحتياط ليس الى محوه ولا الى اتقائه من سبيل .

هذا هو الذى ذهب « پول جرالدى » إلى تصويره فى قصته الصغيرة فأحسن وأجاد ، ووفق التوفيق كله فى اللفظ والمعنى جميعاً .

***

يرتفع الستار عن شاب هو « جاك » قد جلس فى غرفته التى هى غرفة نومه وغرفة عمله . جلس الى مائدته يقرأ ، فيدخل عليه صديقه « دورى » فيتحدثان فى أشياء يتحدث فيها الشبان إذا خلا بعضهم إلى بعض ويكتمونها آباءهم . يذكر « دورى » أمر صاحبته ، وأنه كان معها وأنه سيلقاها . ويذكر « جاك » أمر خطبه أو أمر التى سيخطبها وأنه قد وصل إليه منها كتاب . فيسأله متى الزواج ؟ فيجيب «جاك» بأنه ينتظر أن يجد لنفسه عملا . فيسأله فمتى الخِطبة الرسمية ؟ فيجيب بأن ليس الى ذلك من حاجة ، بأنه لا يريد أن يعلم أبوه بشىء من هذا . وهنا يظهر هذا الخلاف بين الأب والابن فى طريقة التفكير والشعور . ذلك أن « جاك » يعلم بأن أباه فى حالة مالية سيئة ، وهو يستنبط ذلك استنباطاً ، لأن أباه لم يذكر له منه شيئاً . يعلم ذلك فلا يريد أن يتزوج حتى لا يثقل على أبيه ، ولا يريد أن ينبىء أباه بحبه حتى لا يتكلف هذا الأب لإسعاد ابنه ما لا يطيق ، أو حتى لا يحس هذا الأب الألم لعجزه عن إسعاد ابنه . وانهما لفى ذلك وإن « جاك » ليُظهر صديقه على كتاب خطبه إذ يدخل الأب ، فيطلب

الصحف الى ابنه ، فيدفعها هذا اليه متبرماً ضيق الذرع ملحاً على أبيه فى الخروج والمشى ؛ لأنه متعب ، ولأن الأطباء قد رسموا له الخروج والمشى . يلح الإبن ويتثاقل الأب فيجلس . ويشعر الفتى بأن أباه قد قرر ألا يخرج فيضيق بذلك ذرعا ، لا يستطيع أن يخفى ضيق نفسه فينصرف مظهراً شيئاً من السخط ، ويترك أباه وصديقه معاً .

يتحدث الأب والصديق . وموضوع حديثهما « جاك » بطبيعة الحال . يسأل الأب ما بال ابنه يسخط ويتبرم ؟ ما باله يسرف فى الصمت ؟ ما باله لا يذكر له حبه ؟ فهو يعلم أن ابنه يحب ويريد أن يزوجه . وهو يريد أن يأتى ابنه فيتحدث اليه بأسرار نفسه وعواطف قلبه ، ولكن هذا الابن صامت بخيل بالكلام . فينبئه الصديق بحياء الفتى ، وبأن ابنه يألم أيضاً ؛ لأن الأب لا ينبئه بأعماله ولا يتحدث اليه بما يلقى فى هذه الأعمال من شدة أحياناً ومن لين أحياناً . فينفجر الأب بالشكوى لأنه كثيراً ما حاول أن يتحدث الى ابنه كما يتحدث الصديق الى الصديق ، فلم يجد منه إلا نفوراً وإعراضاً . فهو سيىء الحظ ، يشكو صمت ابنه وثرثرة ابنتيه . وهو لم يأت الى هـذه الغرفة

ليطلب الصحف ، وانما اتخذ الصحف وسيلة الى أن يتحدث الى ابنه ، فينبئه ابنه بما لديه ليتبين منه أسراره ونياته فى أمر حبه ، ولكنه لم يجد إلا هذا الإعراض الذى تبعه الانصراف .

فهذا المنظر الذى خلا فيه الأب الى صديق ابنه هو منظر قد خصص لشرح ما يشكو منه الابن . لأن الأب يتحدث عن نفسه ، والصديق يتحدث عن صديقه . ثم يعود « جاك » وينصرف أبوه ، فيكون الحديث بين الصديقين : يلح « دورى » على « جاك » أن يتلطف بأبيه وأن يظهر له شيئاً من العطف والمودة مكان هذا النفور والاعراض . وهذا المنظر مؤثر جدًّا لأن « دورى » قد فقد أباه وكان يسير معه سيرة « جاك » مع أبيه ، فهو الآن يأسف لذلك أشد الأسف ، ويندم عليه أشد الندم . وهو يفعل بعد موت أبيه ما لم يفعل فى حياته ، فيتحدث الى أبيه ميتاً بكل ما يفعل وما يريد أن يفعل . ويتحدث إلى أبيه ميتاً بما يسره ويحزنه . ويؤثّر هذا الحديث فى نفس « جاك » وإن لم يتكلم إلا قليلا . فاذا انصرف صاحبه أخذ « جاك » كتاب خطبه وهمَّ بالخروج ، ليظهر الكتاب لأبيه ، وليذكر له أمر حبه . فيفتح الباب فاذا أبوه .

ويدخل الأب فيتحدث عن « دورى » ، ويحاول « جاك » أن يسأله عن أعماله الخاصة ، فكلما ألح عليه فى ذلك ألح الأب فى الفرار من هذه الأسئلة . فيغضب « جاك » قائلا لأبيه : « أتكره أن أحدثك عن صديقك » .

فيشكو الابن من صمت أبيه وإعراضه ، ويشكو الأب من صمت ابنه وإعراضه ، ويشتد بينهما خصام مصدره سوء الظن هذا الذى وصفناه . فيهم « جاك » بالانصراف ويطرده أبوه مغضباً . ولكنه لا يكاد يخرج حتى تنحل قوى الشيخ ويتبخر غضبه فيبكى . ويعود ابنه فجأة ، فيحاول الشيخ أن يخفى ضعفه ويستأنف غضبه ، فلا يفلح . ويحاول الابن أن يستعطف أباه فيظهر الكتاب ، ولكنه لا يجد لفظاً يعبر به عما يريد من أمر حبه ؛ لأنه لم يتعود أن يتحدث إلى أبيه فى مثل هذا الأمر . فيرى أبوه اضطرابه وحياءه ووقوف لسانه ، فيفتح ذراعيه ، ويلقى « جاك » بنفسه على صدر أبيه

⁂

هذه هى القصة قد بالغنا فى تلخيصها ، وحذفنا منها أشياء كثيرة هى زينتها ، وحذفنا الحوار بين الصديقين وما فى

هذا الحوار من مزاح لذيذ . وحذفنا الحوار بين الأب وصديق ابنه وما فيه من حكمة بالغة وحق بيِّن . وحذفنا أشياء كثيرة لو ترجمت لخلبت نفس القارىء .

ولكننا حرصنا على أن نعطى فكرة من موضوع القصة . فاذا أردت أن تنتفع وتستمتع فاقرأ نصها فى مجلة « الالستراسيون » التى صدرت فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٢٢ .

يناير سنة ١٩٢٣

الحب

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « پول جيرالدى »

ليست يسيرة التلخيص ، وليست يسيرة التمثيل . وإنما هى شاقة على من يريد أن يلخصها ، شاقة على من يريد أن يمثلها . ولعلها شاقة أيضاً على من يريد أن يفهمها . ومع ذلك فهى يسيرة التأليف ، متسقة المعانى ، صادقة الشعور ، حسنة اختيار الألفاظ ، ممتازة بكل ما تمتاز به الآثار الفنية الراقية التى قدِّر لها الخلود لأنها صادقة .

هى عسيرة ويسيرة . عسيرة لأن تلخيصها وتمثيلها وفهمها ، كل ذلك يحتاج إلى جهد غير قليل ، يحتاج إلى أن نجتنب التكلف ونعود إلى طبيعتنا الصافية النقية التى لم تعقِّدها الحضارة ولم تكدرها مواضعات الناس . ويسيرة لأن الكاتب حين كتبها

لم يستوح الحياة المعقدة ، ولم يبحث عن أشخاصه فى هذه الجماعات العادية التى تنافق فى الحياة ، ولا تحيا إلا متكلفة متصنعة خاضعة لضروب من النظم والأوضاع التى تسيطر على جمال الطبيعة الانسانية فتسترها وتخفى ما تمتاز به من صدق وصفاء ، ومن أمانة ووفاء .

هى يسيرة وهى عسيرة ، وهى خالدة مع هـذا كله . أعترف بأنى أعجب بها إعجاباً لا حد له . وقد أعجبت بقصص تمثيلية كثيرة ، وسأعجب بقصص تمثيلية كثيرة . ولكن إعجابى بهذه القصة له جوهر خاص وصفات خاصة ، لا أصدر فيه عن العقل ولا عن المنطق ولا عن هذا الترتيب الفنى الذى ألفه الناس وتواضعوا عليه ، وإنما أصدر فيه عن القلب وعن الشعور . أصدر فيه عما أجد وعما أحس . أجد فيه نفسى ، وأجد فيه من أحب . وأعتقد أن كثيراً من الصادقين المخلصين سيجدون فى هذه القصة أنفسهم ، وسيجدون فيها من يحبون .

لا أعرف قصة كهذه القصة تخلو الخلو كله من التكلف والتصنع ، وتدنو الدنو كله من السذاجة والصدق . وحسبك أنك لا ترى فيها عملاً أو لا تكاد ترى فيها عملاً ولا حركة ،

مع أن التمثيل إنما يقوم على العمل والحركة . وحسبك أنك لا ترى فيها إلا أشخاصاً ثلاثة ، كل عملهم حوار : رجلان يحبان امرأة . أو امرأة تحب رجلين . هذا كل موضوع القصة . هو مجمل موجز ، ولكن تفصيله والاطناب فيه قد لا ينتهيان إلى حد .

رجلان يحبـان امرأة ، وامرأة يتنازعها حب رجلين . فيجب أن تُدرس نفسُ هـذه المرأة وأن تُدرس نفسا هذين الرجلين . وأحـد هذين الرجلين زوج لهذه المرأة ، فيجب أن يدرس الزواج وصلاته وما فيه من حق وما فيه من واجب . وأحد هذين الرجلين رجل عمل ، والآخر ليس بالكسل ولا بالنائم ولكن له فى الحياة مثلاً أعلى ، ولكن له فى الواجب رأياً خاصاً ، ولكن له فى كرامة الرجل وفى كرامة المرأة وفى قدر الزواج وما يكوّن الأسرة من صلات آراء هى الحق ، ولكن شعور الناس بها قليل . ثم هنـاك عواطف تتنازع هذه المرأة ، كلها صادقة ، ولكن منها المخطىء ومنها المصيب . منها ما يصدر عن الحق والواجب ، ومنها ما يصدر عن الشهوة والهوى . هناك نفس إنسانية غريبة تتنازعها آلام وآمال . هنـاك محنة تمتحن بها الأسرة فتتعرض لخطر الانحلال ، ثم يقال عثارها ويكون

هذا الخطر نفسه وسيلة إلى تثبيت قواعدها و إحكام ما يجمعها من صلات . كل هذا يجب أن يدرس ، وأن يدرس فى هدوء ودعة ، وفى ألفاظ مختارة وأساليب عذبة صافية .

ولكنى لا أريد أن أطيل فى هذه المقدمة ، و إنما أريد أن أمضى فى تلخيص هذه القصة . ولقد كنت أود أن أترجمها لك ؛ فلن يؤدى التلخيص من حقها بعض ما يجب ؛ ولكنى أكتب فى صحيفة سيارة ، فحسبى أن ألفتك إلى القصة و إلى شيء من جمالها ، ولك إن شئت أن تقرأها أو أن تشهد تمثيلها فى فرنسا أو فى مصر إن حملها إلى مصر الممثلون .

* * *

الزوجان فى غرفة يتحادثان ، قد وصل إليهما البريد ، فهما يقرآنه ويتبادلان الرأى فيه ، و ينتقلان من هذا إلى نفسيهما وإلى حبهما و إلى رأى كل منهما فى صاحبه . ذلك أن الزوج « هنرى » رجل سعيد مغتبط كل الاغتباط بحياته الزوجية ، مطمئن إليها ، واثق بمستقبلها ، ولكنه يحس من زوجه « هيلين » شيئاً من الاضطراب ، أو قل شيئاً من السأم ، أو قل إنه يحس من زوجه شيئاً لا يتبين حقيقته . يحس أن سعادتها

ليست من الصفو والنقاء بحيث يحب ، وبحيث يجب أن تكون . فهو يسألها عن أمرها ، فتلح فى أنها سعيدة ، ويلح هو فى أنه يشعر بأن هـذه السعادة ليست خالصة ، ويحاول أن يتعرف الأسباب التى حالت بين سعادة زوجه وبين الصفاء . يبحث عن ذلك فى أخلاقه ، ويبحث عن ذلك فى مزاجه ، ويبحث عن ذلك فى سيرته الزوجية ، ولا يجد من امرأته إلا إلحاحاً فى أنها سعيدة ، وسخطاً عليه لأنه يتكلف مثل هذا البحث السخيف . ولكن فى الحق شيئاً تشعر به « هيلين » ولا يلبث أن يظهر فتتبين العقدة التى يجب على القصة أن تحلها .

الزوج مطمئن إلى حياته ، سعيد لا يستزيد من سعادته . ولكن « هيلين » مطمئنة سعيدة حتى يظهر لها شىء يخيل إليها أن فى سعادتها نقصاً ما ؛ فهى تشعر شعوراً غامضاً بالحاجة إلى تكميل هذا النقص . ولكنها لا تعترف بهذا الشعور ، ولا تعترف بهذا النقص ، حتى يُقبل الشخص الثالث من أشخاص القصة ، فيجعل هذا الشعور فى نفسها واضحاً ، بل يجعـله حاجة ، بل يجعله ضرورة لابد من إرضائها . هذا الشخص الثالث هو رجل يسمى « شالانج » وقد كلِف بالسياحة وطاف أقطار الأرض ،

وهو من أولئك الذين يؤثرون العمل المنتج على الحياة الهادئة المطمئنة ؛ ذكى ، ولكن ذكاءه ليس بالعميق ، وهو مع ذلك قوى الحجة إذا تكلم ، خلاب إذا تحدث إلى النساء ، يخلبهن بما يقص عليهن مما رأى وسمع فى سياحاته ، ويخلبهن حين يشرح لهن رأيه فى الحياة ، وأنها يجب أن تتجدد وأن تتغير أطوارها وحوادثها لا أن تستقر وتتشابه هذا التشابه الممل . وقد أقبل هذا الرجل منذ شهر ، فجاور الزوجين واتصل بهما واختلف إليهما ، فما كاد يرى « هيلين » حتى كلف بها ، وما كادت تراه « هيلين » حتى مالت إليه ، ولكنها أخفت هذا الميل على زوجها ، وأحسه زوجها وراقبه دون أن يتحدث فيه .

٭ ٭ ٭

فإذا كان الفصل الأول من القصة أنبأ « هنرى » زوجه بأن « شالانج » قادم لزيارتها بعد حين ، فتتبرم بهذه الزيارة وتنكرها ، وترى أن هذا الرجل مثقل ملح فى زياراته ، وأنها تريد أن تنتحل الصداع حتى لا تراه . فينكر عليها زوجها هذا كله ، ويأخذها بلقاء هذا الرجل ، ويسألها عن الأسباب التى تبغّض إليها هذه الزيارة . فتحاول قليلاً ، ثم تعترف لزوجها

بأن هذا الرجل يتملقها ويتتبعها بحبه ، فيجيبها بأنه يعلم هذا .
ويدور بينهما هذا الحوار :

هيلين — (دهشة) كيف ؟ أعرفت أنه يتتبعنى ؟

هنرى — طبعاً عرفت ذلك !

هيلين — لا ! أهذا حق ؟ وبأى شىء عرفت هذا ؟

هنرى — وأنت بم عرفته ؟

هيلين — هذا غريب ! . . . ولكن متى ابتدأ هذا ؟

هنرى — ابتدأ منذ شهر يوم تناول العشاء هنا لأول مرة .

هيلين — لم يُظهر من هذا فى ذلك المساء إلا شيئاً قليلا جداً !

هنرى — نعم ! شىء قليل جداً من التلطف والابتسام . . .

هيلين — أرأيت هذا ؟

هنرى — كما أراك الآن . فلما كان الأسبوع الذى ولى هذا العشاء بالغ فى ذلك بعض المبالغة فى بيت « تنسان » .

هلين — (شيقة لاهية) ولكن كيف استطعت أن ترى هذا ؟

هنرى — ثم أول من أمس رأيت طائفة من الحركات وصوتاً خاصاً حين كان يتحدث إليك وشيئاً من البلاغة فى القول ،

رو بنوع خاص طريقته حين قال لك إلى اللقاء .

هيلين — (وقد خفضت عينيها) و إذن فماذا ترى فى هذا ؟

هنرى — وأنت ماذا ترين ؟

هيلين — أنا ! . . . لا أستطيع أن أمنع هذا .

هنرى — (فى لطف) لو أردت منعه لوفقت له .

هيلين — وددت لو أعرف كيف هذا !

هنرى — أنت حسناء . . . نعم ! أنت حسناء جداً ، وتعلمين هذا حق العلم ، ومع هذا فقد ظهر الرجال ولا سيما الذين لهم حظ عظيم من الحياة أمامك مظهر الأدب والاحتشام .

هيلين — لأنى لم أكن أعجبهم .

هنرى — كنت تعجبينهم ، ولكنك كنت تُظهرين فى موقفك منهم شيئاً من النقاء والصراحة يضطر كل واحد منهم إلى أن يفهم مسرعاً أن أية محاولة يحاولها مخالفة للذوق وغير مجدية عليه .

هيلين — و إذن فلست الآن نقية ! ولست الآن صريحة !

هنرى — أنت نقية صريحة ، ولكنك لا تتشددين فى ذلك . لقد تجملتِ قليلا أمام « شالانج »

هيلين — رأيت هذا أيضاً ؟ . . . هذا حق . لقد تجملت أمام « شالانج » سأفسر لك هذا . كنت أريد أن أعلم . . . تقول لى دائماً إنى حسناء ، ولكنى أرى مدائح الرجال وتحياتهم توجه إلى غيرى من النساء .

هنرى — إن مدائح الرجال تخفى دائماً شيئاً من الميل إلى الهجوم . وأشد الرجال قوة وجرأة لا يهاجم إلا المرأة التى يظن بها الضعف .

هيلين — لا تسرف ! إن الرجال دائماً لا يضمرون هذا السوء .

هنرى — بلى يا هيلين !

هيلين — مهما يكن من شىء فان « شالانج » هو أول رجل تركنى أفهم — ولكن فى لطف لأنه حسن التربية — أنى أثير عنايته ، وأنه يجد لذة فى التحدث إلى ، فظننت أول الأمر أنى مخطئة ، فقد أنبأتنى أنه رجل عظيم الخطر . فسألت نفسى لم يحفل بى رجل كهذا ؟

هنرى — إنك لشديدة التواضع !

هيلين — أعلم أنك لا تصدُقنى !

هنرى — بلى أنا أصدُقك .

هيلين — كنت أرى أنه شديد التلطف ، ثم كنت ألقى في كل وقت لحاظه ، وكان يجتهد دائماً أن يكون إلى جانبي ... ولكنى لا أكذِبك ، لم أكن واثقة بشيء من هذا ، فأردت . . . أن أعلم . . . أفهمت ؟

هنرى — أبلغت من الطفولة إلى هذا ! أؤكد لك أنى لا أستطيع أن أتصور أن أرى امرأة بلغت من القوة والشجاعة والذكاء ما بلغت تصل أحياناً من الطفولة إلى هذا الحد !

هيلين — (فى حنان) لست مغضباً ؟

هنرى — لا ! ولكنك ترين أن من الخطر العبث بمثل هذه الأشياء ، وأن قليلا من الخطأ قد يخلق مواقف لا سبيل إلى احتمالها ! أنت تشعرين بهذا الجو الثقيل الذى خلقه إهمالك ! ألست تنكرين أنى تركت شالانج يجيء . . . ألست تشعرين بأن من الذلة أن رجلا دنا منك فحمله ذلك على أن يرجو وأن يعتقد أن كان شيء . . .

هيلين — أوه !

هنرى — شعر بذلك ثم لم يُرَدّ إلى طوره ! هذا مذل لك .

هذا مذل لى ... هذا محزن !

هيلين — ليس من شك فى أنى أخطأت . لم أفكر ، ولكنى لا أفهمك . كيف أحسست هذا كله ولم تكلمنى فيه ؟

هنرى — كنت أنتظر أن تكلمينى فيه !

هيلين — وكيف عرفت موقف « شالانج » وتركته يزورنا ، بل طلبت إليه أن يزورنا ؟

هنرى — لأنى لا أقبل أن يكون « شالانج » خطراً ! ولم يكن لى أن أشعره بأنى أهابه ، أو بأنك تخشين فاتناً ماهراً !

هيلين — يخيل لى أنى لو كنت مكانك لوجدت طريقاً إلى إفهامه ...

هنرى — هذا شىء كان خليقاً بك وحدك .

هيلين — أنت زوجى !

هنرى — وإذن ... ؟

هيلين — فمن الحق عليك أن تذود عنى !

هنرى — ألست من الرشد بحيث تدفعين عن نفسك ؟ (ثم يرفع كتفيه) على أنى أعرفك . ولست أشك فى أنى

لو تدخلت فى الأمر لجمحت كبرياؤك ، ولكانت محقة فى هذا الجموح . إن امرأة مثلك لا يحميها الرجال (ثم يشتد) : أتدخل فى هذا الأمر ! أتشدّق فى أمر ينالك بشىء يشبه هـذا الحق المثير حق السجان أو حق المالك ! أتقبلين أن أدل بلفظ « الزوج » على هـذا المعنى العتيق الجافى ! كلا ! يا هيلين . ليس فى الحب حق ولا معاهدة ولا عقد . ليس فى الحب الا الحب . وإنما سبيلى فى حمايتك والذود عنك أن أحملك على أن تؤثرينى على غيرى ... ولقد أدهش أن أرى لك رأياً فى هـذا يخالف رأيى .

هيلين — (مضطربة قليلا) أى إيمان ! عم تبحث ؟

هنرى — تريدين أن أذود عنك ! ولكن يا بنيتى أترين أنى أستطيع الحياة معك يوم أشعر بأنك فى حاجة إلى الحماية ! يوم أشعر بأنى لست عندك كل شىء !

هيلين — أتظن أننا نضطر إلى الطلاق فى مثل هذه الحالة ؟

هنرى — نعم !

هيلين — أجادّ أنت ؟

هنرى — جاد كل الجد . لقد فقدنا ابننا ، فليس بيننا

صلة الآن إلا الحب . فاذا لم تحبيني ففيم الحياة معا ؟

هيلين — ماذا ... ؟ انظر إلىّ ... أتستطيع أن تفكر في شيء كهذا ؟

هنرى — لكل سعادة أجل !

هيلين — أرجو أن تسكت ! فلو مضيت فى الحديث لأقنعتنى بأنى اقترفت جريمة ! لتطمئن ! لقد انتهت هذه القصة المضحكة . انتهت حقا ! فسأضع « شالانج » عند حده هذا المساء ! لا أريد أن أغاضبك من أجل هـذا الرجل ! فهو لا يعنينى وسأرجوه ألا يأتى منذ اليوم .

هنرى — كلا ! كلا ! أنت مسرفة . ليس من الضرورى أن تغلقى بابك فى وجهه . فليس ما يدعو إلى ذلك ؛ فهو لم يخطىء بوجه ما ، وإنما مثّل دور الرجل : رآك خليقة بعنايته فأشعرك بهذا أكثر مما كان ينبغى . فأنت المخطئة لا هو . فغيرى موقفك بإزائه يفهم أنه أخطأ الطريق . أظنك تشعرين بالنتائج السيئة إذا أخذته بالعنف ، فقد تصبح الصلات بيننا وبينه عسيرة ، وهو مستقر فى هذا البلد وهو جارنا .

هيلين — وإذن فهو متصل بنا طول الحياة !

هنرى — ذلك راجح .

هيلين — لا بأس ! وإذن فإذا أردت ألا أراه فليس إلى ذلك سبيل ؟

هنرى — ولم لا تريدين ؟ إذا غيرت موقفك معه أصبحت الصلات بيننا و بينه حسنة .

هيلين — فإذا لم يغير موقفه هو ؟

هنرى — ستحملينه على تغيير موقفه . ذلك شيء لا يخيفني .

هيلين — أتظن ذلك يسيراً ؟

هنرى — إن المرأة قادرة على أن تخجل الرجل وتجعله هُزْأة بابتسامة تبسمها .

هيلين — هذا موقوف . . .

هنرى — نعم ! على المرأة !

هيلين — و بعد . فلو أنه يحبنى !

هنرى — (مغضباً قليلاً) أى معنى لهذا الكلام : «لو أنه يحبك» ؟ أيعرفك ؟ ماذا يعرف منك ؟ يعرف أنك حسناء ! وأن من اللذة أن يدنو من جمالك دنواً شديداً . فأنبئيه بأن للحب عند أمثالك معنى آخر . . . . .

ثم يمضى هذا الحوار الطويل اللذيذ القيم إلى أكثر مما تحتمل جريدة « السياسة » . ولقد كنت أود لو استطعت أن أترجمه كله ، وأن أترجم غيره من ضروب الحوار . ولكن ما ترجمته يعطيك صورة واضحة من هذين الشخصين ، وتصورهما للحب وصلات الزوجية . فإذا انقضى هذا الحوار كان الزوجان قد اتفقا على أن تغير « هيلين » موقفها فى لطف ، فلا تتحجب إلى « شالانج » ولا تظهر له الجفاء الشديد .

ثم يُقبل « شالانج » ويخرج « هنرى » ، فلا تلبث « هيلين » أن تخاطبه فى غلظة وجفوة ، ولكنهما متكلفتان ؛ لأنها تميل إليـه وتحاول أن تخفى هذا الميل ، وهو يعلم ذلك فيهمّ بالانصراف ، فتمسكه وتتحدث إليه فى لطف . تريد أن تقنعه بأنها سعيدة وبأنها تحب زوجها وبأنها راضية عن حياتها غير طامعة فى تغييرها . ويريد أن يقنعها بأنهـا غير سعيدة ولا مطمئنة ، وبأنها لا تحب زوجها لأنها أحبته فتـاة غرة ، ولا قيمة لحب الفتاة الغرة ، وإنمـا القيمة لحب المرأة التى استكملت عقلها وقوتها ، وأنها فى حاجة إلى أن تحب من جديد وتحيا من جديد ، وتغير أطوار هذا العيش الذى ينوء بها والذى أخذت تمله .

يقنعها ، وتفزع من هذا الإقناع فتستأنف الجفوة وتكلفه الخروج فيخرج . ولكنه واثق مطمئن . ويأتى زوجها فتتكلف أمامه الأمن والثقة ، وتنبئه أنها قد وضعت صاحبها حيث ينبغى أن يوضع ، ولكن زوجها لا يكاد يطيل إليها الحديث ويسألها عما كان بينها وبين « شالانج » من حوار حتى يشعر من حديثها وقصصها وانصرافها عما يقول بأنها لم تفلح وبأنها لم تزدد إلا تورطاً فى هذه الفتنة .

***

ثم يكون الفصل الثانى ، فإذا هذه الفتنة قد بلغت أشدها ، وإذا الزوج قد يئس من زوجه واعتزم العدول عن اللين والرفق إلى العنف والشدة . فيأمرها ألا تلقى « شالانج » . ويكون بينه وبينها فى ذلك حوار عنيف ينتهى بعدوله عن رأيه وقبوله للمعركة ، فيبيح لزوجه أن تلقى خصمه وأن تختار بين الرجلين ، ويعلن إليها أنه نازل عند حكمها . ثم ينصرف ويأتى « شالانج » . وهنا موقف من أجمل المواقف وأشدها تأثيراً فى النفس واستهواء للب وهزًّا للعواطف : موقف تبذل

فيه المرأة كل ما تملك من قوة فى البيان والعاطفة ، وكل ما تملك من دموع وضعف لتدافع عن أسرتها وعن حبها لزوجها ولتخلص من هذا الحب الطارئ . ولكنها لا تفلح فى هذا الدفاع ؛ لأن خصمها قوى عنيد ، ولأن هذا الخصم ليس « شالانج » وإنما هو نفسها . فهى تحب « شالانج » وتعترف له بهذا الحب وتُلقى أمامه السلاح وتترك له أن يحكم فيها وفيما بينها و بين زوجها من صلة . وهما كذلك إذ يأتى الزوج ، فيلتقى الرجلان كما يلتقى الخصمان الشريفان ، لا يخفض أحـد منهما رأسه ، ولا ينكر أحد منهما من موقفه قليلاً أو كثيراً . فينصرف « شالانج » . ويسأل « هنرى » زوجه ماذا اعتزمت ؟ فلا تجيبه بل تحاول الفرار منه . فيمسكها وما يزال بها حتى تنبئه بأنها تريد السفر ، فيفهم أنهـا آثرت صاحبه . وأحْسِنْ بموقفه حين ذاك ! ! موقف ملؤه المروءة والحرية والإذعان للقضاء فى شرف وكبرياء . ينبئ زوجه بأنه قد فهم ، وأن لهـا أن تسافر متى شاءت ، وأنه سيرد إليها حريتها فى أسرع وقت ممكن .

✲✲✲

فإذا كان الفصل الثالث رأينا هيلين فى إحدى الغرف تستعد للسفر ، ولكنها تنظر حولها وتقلّب صوراً لابنها ، وهى كذلك إذ يدخل « شالانج » فيعرف منها حقيقة الأمر . يسعد ويغتبط ، ولكنها ليست سعيدة ولا مغتبطة ، وإنما هى مستسلمة محزونة . يلح عليها صاحبها فى ألا تنتظر الطلاق وأن تسرع إليـــه فلا تأبى . ثم يرى حزنها فيسألها عنه ، فتنبئه بأنها تنظر إلى ما حولها فتأسف وتأسى وتذكر ما كان لهـذه الأشياء ولهذا البيت من أثر فى حياتها ، بل تذكر أن حياتها مكونة من هذه الأشياء وأن فراق هـذه الأشياء عليها عسير . يحاول تسليتها فلا يوفق . ثم تذكر طفلها المفقود فترى أن صاحبها لا يعلم من أمر هذا الطفل شيئاً ، بل لا يعلم من أمرها هى شيئاً ، وإنما كل الأمر لديه حب وهوى .

تريد أن تخرج معـه فلا تستطيع ، كأن الأشياء تمسكها وتأبى عليها الخروج ، فتضرب معه موعداً إلى غد . ثم يمضى وتبقى حيناً واجمة ذاهلة . وما هى إلا أن تصيح داعية زوجها مرة ثم مرتين . فيقبل الزوج فى شكل مؤلم مضطرب ، فيسألها ماذا تريد ؟

تتكلف فى الجواب ، تريد أن تنبئه بأنها ستسافر دون أن تحمل شيئاً ، وأنها ستترك له صور ابنها لأنه وحده خليق أن يحتفظ بهذه الصور ولكن الزوج يجيبها بأنها تستطيع أن تحمل كل شيء . فهو لا يحفل منذ الآن بشيء ، وهو يريد أن ينسى كل شيء لأنها قد قطعت بينهما كل شيء . ثم يظهر المخبّأ ، تظهر نتيجة الأزمة . يظهر أن هذه المرأة قد عرفت من أمرها ما كانت تجهل ، وشعرت بأنها لم تكن عاشقة « لشالانج » وإنما كانت مفتونة « بشالانج » وأن حبها وقلبها وحياتها وعواطفها كل ذلك موقوف على زوجها الذى عرفته وبلت سره وجهره . فهى لا تريد أن تسافر ، وإنما تريد أن تبقى . لا تريد أن تخرج من البيت ، وإنما تريد أن يمسكها زوجها فيه . لم تكن تحب « شالانج » لأنها لم تكن تعرفه . وهى تحب « هنرى » لأنها تعرفه . كانت مفتونة ، ولا ينبغى أن تسمى الفتنة حبا . فليس الحب إذن انقياد العواطف واهتياج الشهوات وعبث الهوى بالعقل ، وإنما هو شيء آخر . هو شيء هادئ مطمئن ، للقلب فيه أثر عظيم ولكن للعقل فيه أثراً أيضاً . تلح على زوجها أن يعفو عنها .

ولكن هـذا الزوج قد تألم فهو لا يجد إلى العفو سبيلا . غير أن هناك شيئاً فوق العفو وفوق الألم ، فوق الإساءة وفوق الإحسان . هناك الحب ، والرجل يحب امرأته . فلا يكاد يراها تعسة شقية حتى يأخذه الإشفاق والعطف ، فيلين ولكنه عنيف . يطلب إليها أن تذهب لتستريح ثم يراها مضطربة قد أخذها البرد فهى لاتكاد تثبت ، فيسرع إلى شىء من الحطب يلقيه فى الموقد ويشعل فيه النار ويجلسها أمامه .

هو واقف وسط الغرفة على بعـد منها وهى أمام النار تصطلى ، ولكن فى جوفها زفرة شديدة تريد أن تكتمها فلا تفلح فتجهش بالبكاء ، وإذا هـذا الزوج الغاضب الحانق قد أقبل فى هدوء وحنان فمد يده إلى امرأته فأنهضها ، فما تكاد تحس ذلك حتى تصيح باسم زوجها وتلقى نفسها بين ذراعيه . وكذلك تنتهى هذه القصة .

وأحسب أنى لست فى حاجة إلى شرح ولا إلى نقد . وإنما أنا فى حاجة إلى الأسف لأنى لم أترجم لك منهـا الشىء الكثير .

يونيو سنة ١٩٢٣

النضـــال

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « هنرى لفدان »

هى نضال بين عالم وقسيس ، أو هى نضال بين علم العالم ودين القسيس ، أو هى نضال بين العالم ونفسه ، وبين القسيس ونفسه ، أو هى نضال بين هـذين الرجلين وبين امرأة ، أو هى نضال بين هؤلاء جميعاً وبين الحياة الاجتماعية ، أو قل — وأنت مصيب فيما تقول — إنها نضال بين هؤلاء جميعاً وبين هذه الأشياء كلها . هى نضال منذ تبتدئ إلى حيث تنتهى . هى نضال فى جملتها وفى تفصيلها . ومع ذلك فهى تخلو من العنف وتخلو من القسوة ؛ لأنها نضال بين الآراء والأهواء والعواطف والشهوات . نضال لا يتجاوز هذه الآراء والعواطف والشهوات إلى الجهاد المادى ؛ ولهذا تخلو القصة من العنف والقسوة ، أو تخلو من العنف والقسوة الماديين .

أخشى ألا تعجبك هذه القصة . وليس يدهشنى ألا تعجبك ؛ فهى ، كما قلت ، تخلو من كل عنف وقسوة ، وتخلو من كل نتيجة من شأنها أن تهزّ النفس وتقفها أمام الأمر الواقع الذى ليس إلى إصلاحه أو استدراكه من سبيل . وهى كما قلت ، جهاد بين آراء وأهواء وعواطف وشهوات . هى ، جهاد يلذ العقل ويلذ الشعور ، ولكنه لا يفجأ بكبريات الأمور وجسام الحوادث . فمن المعقول ألا تستهويك ولا تؤثر فيك هذا الأثر العظيم الذى تؤثره القصص العنيفة المخيفة . ومع ذلك فأنا أريد أن تعجبك هذه القصة . وأريد أن تؤثر فيك هذه القصة ، وأريد أن يكون مصدر هذا الإعجاب وهذا التأثير نفس خلوها من العنف وبراءتها من الحوادث الجسام . فليس العنف شرطاً أساسيًّا لجمال القصة التمثيلية ، وليست الحوادث الجسام أموراً لا بد منها ليستطيع الكاتب أن يؤثّر وأن يهز النفس . بل — ماذا أقول ! — العنف موجود فى هذه القصة ، بل هذه القصة عنيفة كلها ، بل هذه القصة كلها حوادث جسام . ولكن يجب أن نتفق على معنى العنف ، ويجب أن نتفق على معنى الحادث الجسيم . فليس من الحق فى شىء أن العنف مقصور

على هذه الحركات المادية القوية التى تستتبع الآثار الضخمة فى الحياة الخارجية . وليس من الحق أن الحوادث الجسام مقصورة على ما تراه العين وتسمعه الأذن وتلمسه اليد من حقائق الحياة ، بل قد يكون ما يحدث فى النفوس وما يجرى فى القلوب دون أن يراه أحد ودون أن يحسه إلا صاحبه أشد عنفاً وأقرب إلى الفزع والهلع من كل ما نشهد فى الحياة الخارجية من الأمور العنيفة .

وقد تكون هذه العواصف النفسية التى تستأثر بنفس الإنسان فتنسيه كل شىء وتلهيه عن نومه ويقظته وعن طعامه وشرابه ، بل تلهيه عن حياته كلها ، قد تكون هذه العواصف وما تحدث من الآثار ، حوادث جساما لا تعدلها الحوادث الجسام المعروفة . وعلى هذا النحو وعلى هذا التفسير للعنف وللحادث الجسيم نستطيع أن نقول إن هذه القصة ليست إلا عنفاً وليست إلا حوادث جساما . وإنما ينبغى أن نتعوّد هذا النحو من الفهم ونألف هذا النحو من التفسير . ينبغى أن نتعود النظر فى أنفسنا ونقدر العواطف التى تدير حياتنا وحركاتنا ، ونشعر شعوراً قوياً ، بل نعلم علماً لاشك فيه ، أن هذه العواطف التى تدير نفوسنا وتسخّر أجسامنا وتدبر حياتنا المادية

والمعنوية هى مصدر كل شىء فى هـذه الحياة . هى مصدر ما يبهرنا من عنف ، وهى مصدر ما يخلبنا من لين . هى مصدر البؤس والنعيم ، وهى مصدر السعادة والشقاء ، وهى مصدر التردد بين هذا وذاك . يجب أن ننظر فى أنفسنا نظراً صحيحاً ، وأن نقدر عواطف أنفسنا وأهوائنا كما ينبغى أن نقدرها . إذن يتغير إعجابنا بالقصص التمثيلية ، ويكون كلفنا أشد بهذه القصص التى تخلو من العنف المادى منه بتلك التى يملؤها العنف المادى . يكون إعجابنا بهذه القصص أشد وأقوى لأنه إعجاب مصدره العقل والشعور والتفكير ، وليس مصدره تأثر الحواس واهتزاز الأعصاب بهذه المؤثرات الخارجية .

قلت إن هذه القصة نضال بين أشخاص و بين أشياء .

فيجب أن أبدأ فأقدّم إليك أشخاص هذه القصة وهم أربعة : امرأة ، وثلاثة رجال :

فأما المرأة فهى الدوقة « دى شاى » فى ريعان شبابها ، قد أوتيت من الجمال والفتنة حظا عظيما ، وهى إلى جمالها وشبابها شديدة الذكاء ، كثيرة العلم ، قوية الإرادة إلى حد غريب ، شديدة السلطان على نفسها ، تشعر بالشىء العنيف ، وتتأثر بالعاطفة

الحادة ، ولكنها تخفى هذا كله على الناس فلا يحسونه ولا يشعرون به . وقد تستطيع أن تخفيه على نفسها . جميلة ذكية فاضلة عالمة ، ولكنها مع هذا كله سيئة الحظ . سيئة الحظ منذ ولدت ، بل قبل أن تولد . فقدت أباها قبل أن تُقبل على هذه الحياة بيومين ، فلما وُلدت أفقدت أمها الحياة ، فكان مهدها ، كما تقول ، يهتز بين نعشين . ثم أخذت كلما شبّت فقدت بعض أهلها وذوى قرباها . حتى إذا استكملت قوتها وبلغت الشباب كانت وحيدة أو كالوحيدة فى الحياة . ولكنها بحكم هذا اليتم المتصل كانت غنية ضخمة الثروة لما ورثت عن هؤلاء الراحلين . فكان من المعقول وقد جمعت بين الجمال والذكاء والثروة أن يكون حظها فى الزواج حسنا ، وقد خيّل إليها أنه حسن . خطبها شاب غنى عظيم الاسم ماجد الأسرة أنيق رشيق هو الدوق « دى شاى » فأحبته ، أو خيّل إليها أنها أحبته . ولكنها لم تكد تقترن به حتى تبينت أن حظها فى الزواج ليس خيراً من حظها فى غير الزواج . فهذا الزوج الذى فتنها بجماله وثروته ومجد أسرته كان مريضاً أو قل إنه كان مجنوناً . أسرف فى اللذة وتهالك عليها ، وافتتن فى ضروب الفساد حتى أصابته بلادة الحس ، فاصطنع « المورفين » وما يشبه المورفين ، وأتت هذه المخدّرات

على ما كان قد بقى من عقله وصحته . فهو الآن مجنون ، وهو يعالج فى مستشفى يديره الدكتور « هنرى مورى » وهو الشخص الثانى من أشخاص هذه القصة ، عالم مشهور بمهارته فى طب المجانين ، قد نبغ فى هذا الفن ووقف حياته وقوته عليه ، حادُّ العاطفة قويها ، شديد التأثر بأهوائه وشهوات نفسه ، مُلحِد ولكنه يؤمن بالمثل الأعلى ويُطمح إلى الكمال ، ويعتقد أن فى هــذه الحياة أشياء غير المادة خليقة بعناية الإنسان وإكباره ، وأهم هــذه الأشياء الحب . وهو مُلحد ولكنه كان شديد الإيمان قبل إلحاده . كان مسرفاً فى التعبّد وضروب النسك حتى سخط عليه أبوه الذى كان يحتقر الدين ورجال الدين ويكره أن يتصل أبناؤه بالدين ورجال الدين . كان شديد الإيمان فأصبح شديد الإلحاد . وله أخ هو الشخص الثالث من أشخاص هذه القصة . كان فى شبابه فاجراً مسرفاً فى الفجور ، وكان بحكم هذا الإسراف فى الفجور قرة لعين أبيه مقرباً عنده مختصا بإيثاره . ولــكنه أسرف فى اللذة حتى عافها ومال عنها إلى شىء من الزهد اضطره إلى شىء من الدين ثم إلى الإسراف فى الدين ، حتى وقف حياته على

الدين وأصبح قِسيساً . فغضب عليه أبوه وطرده وحظر عليه أن يتسمى باسمه .

أما الشخص الرابع من أشخاص هذه القصة فرجل من رجال الدين أيضاً هو الأسقف « بلمين » من أساقفة الصين ، رجل شيخ وقور واسع العقل راجح الحلم شديد الإيمان ، قد وفَّق فى نفسه بين الدين الخالص الطاهر وبين العلم وبين حاجات الحياة وضرورتها . فهى لا تتناقض فى نفسه ، وهو لا يفهم مصدر تناقضها عند الناس . وهو يستطيع أن يتحدث إلى الملحدين . فإذا هم يشعرون بحاجتهم إلى اكباره وإجلاله ، وأن يتحدث إلى المؤمنين المسرفين فى الإيمان فإذا هم يشعرون بضعف إيمانهم . وهو يستطيع أن يتحدث إلى الأغنياء والمترفين والمفتنِّين فى اللذات والشهوات فيحبّب إليهم الخير دون أن يؤذيهم ودون أن يمكنهم من أن يؤذوه . وهو مبتسم أبداً ، يقول الجد ولكن فى مزاح ، ويمزح فإذا فكاهته جدّ مر . أصابه الأذى والاضطهاد فى الصين فلقى ألوانا من العذاب عطفت عليه قلوب الناس جميعاً ، فأعجب به المعجَبون وأنعمت عليه حكومة الجمهورية بأوسمتها . وهو يسخر مما لقى من الأذى ،

ويعجب أن يكون هذا الشيء اليسير مصدرا لهـذا العطف الـكثير . أثّر هذا الإيذاء فيه فيناله من حين إلى حين ضعف عصبي ، وهو الآن فى مستشفى الدكتور « مورى » يتعهد أعصابه بشيء من الراحة . ومن حول هؤلاء الأشخاص الأربعة أشخاص آخرون ليس لهم شيء من الخطر .

✡✡✡

فإذا كان الفصل الأول رأيت الطبيب فى مكتبه وقد دخلت عليه الدوقة ، فأخذ يسألها عن زوجها ، فتتبين أن حاله لا بأس بها وإن لم يكن قد برئ ، وإن لم يكن ينتظر له الشفـاء ، وتتبين أنه سيترك المستشفى هذا اليوم على أن يتعهده الطبيب فى قصره ، ولـكنك تتبين بنوع خاص أن الطبيب يحب هذه المرأة حبًّا ليس يعـدله حب . وهو يجاهد فى كتمان هذا الحب دون أن يحرص على هذا الـكتمان . يريد أن تشعر به الدوقة ولـكنه لا يريد أن ينبئها به . وتتبين أيضاً أن هـذه الدوقة شقية سيئة الحال لـكل ما قدمت لك من أمرها ، ولـكنك تشعر بأن نفسها تنزع إلى شيء غير بيّن ، وأنها تحارب هذه النفس وتلزمها أن تطمئن إلى ما هى فيه من حال سيئة .

فإذا ذكر الحب أعلنت فى شدة وعنف أنها تكرهه وتنفر منه كل النفور ؛ لأنه مصدر ألم لا حد له . ثم إذا ذكر الدين أعلن الطبيب إلحاده ، وأنبأته هى أيضاً بأنها ملحدة . وهما فى هذا الحديث إذ يستأذن الأسقف ، فإذا دخل وقُدِّمت إليه الدوقة وتحدّث القوم فيما أصاب الأسقف من العذاب فى الصين وحاولت المرأة أن تخرج فقبّلت يد الأسقف قبل خروجها ، ظهرت على وجه الطبيب مظاهر تدل على شىء من الألم والامتعاض . ثم يخلو الطبيب إلى الأسقف ، فيتحدثان فى أمر هذه المرأة ، يمدحها الطبيب ، فيسأله الأسقف فى صوت هادئ طبيعى : ألها عاشق ؟ فإذا غضب الطبيب لهذا السؤال وزعم أن هذه المرأة أطهر النساء وأشرفهن ، أجابه الأسقف : وإذا كانت كما تقول شريفة عفيفة طاهرة لا عاشق لها فما بالك تحاول أن تكون أنت عاشقها ؟ فهم الأسقف إذن حب الطبيب ، ويحاول الطبيب أن ينكر هذا الحب فلا يلح الأسقف . ثم يسأله الطبيب عن رأيه فى هذه المرأة فيجيبه : هى امرأة مؤمنة خالصة للكنيسة ، فيسخر الطبيب لأن هذه المرأة قد أنبأته بأنها ملحدة ، ولكن الأسقف ينبئه بأن الطبيب الماهر يستطيع أن ينظر إلى الرجل

الذى يخيل إلى الناس أنه صحيح الجسم ، فلا يكاد ينظر إليه حتى يتبين أنه مريض وحتى يشخص علّته ، وكذلك المهرة من رجال الكنيسة ينظرون إلى الإنسان يخيل إليك أنه ملحد فيتبينون إيمانه وإخلاصه للدين . يقع هذا الحديث موقعاً سيئاً من نفس الطبيب ، ولكنه يخفى ذلك . وهما يتحدثان إذ يدخل الخادم ومعه بطاقة يقدمها إلى الأسقف ، فيهمّ الأسقف بالخروج لاستقبال زائره ، فيمسكه الطبيب ويعرض عليه أن يستقبله فى مكتبه ويخرج . يبقى الأسقف ويدخل الزائر ، فإذا هو القسيس أخو الطبيب . وكان هذا القسيس تلميذاً للأسقف ، فكلاهما يحب صاحبه حبًّا شديداً . وكان القسيس قد أقبل إلى هذا المستشفى ليرى أخاه فى أمر من الأمور ، فلما سمع اسم الأسقف أسرع إلى لقائه . يدهش الأسقف حين يعلم أن الطبيب أخو القسيس ، فينبئه القسيس بكل ما قدمت لك ، وينبئه بأنه مقاطع أخاه منذ عشر سنين وأنه سيراه لأول مرة منذ ماتت أمهما .

ثم يخرج الأسقف ويرافقه القسيس . فإذا عاد الطبيب إلى مكتبه ودخل عليه القسيس كانت بينهما ألفاظ فيها شىء من المودة ، ولكن المودة الجافة . ذلك أن الطبيب يكره

الدين . وإذ كان لا يستطيع أن يفرق بين الأشخاص وآرائهم ومذاهبهم فهو يكره الأشخاص إذا كره آراءهم ، ولكنه مع ذلك يتلطف بأخيه . أما أخوه فقد أقبل يسأله المعونة فى شيئين : الأول أن طائفة من المؤمنين فى حيه قد أنشئوا مستوصفاً لمرضى الفقراء ، فهو يعرض على أخيه أن يعمل فى هذا المستوصف ساعة أو ساعتين فى الأسبوع . ولكن الطبيب يرفض ؛ لأنه لا يستطيع أن يعمل مع رجال الدين . الثانى أن الطبيب يعالج الدوق « دى شاى » وامرأة هـذا الدوق غنية محسنة ، فيريد القسيس أن يتوسط له أخوه عند هذه المرأة لتعينه بشىء من المال فى عمله الخـيرى . ولـكن الطبيب يرفض أيضاً لأنه لا يريد أن يثقل على الدوقة فى شىء كهذا. وانظر إلى هـذا الحوار الذى يبين موقف الأخوين كل من الآخر :

القسيس : هذا حسن ! سأعمل وحدى ، أترى بأساً فى أن أكتب إلى الدوقة أو أزورها ؟

الطبيب : لا بأس ! ولكن على شرط ألا تعلم الدوقة أنك أخى .

القسيس : ستجهل ذلك !

الطبيب : هذه منفعتك !

القسيس : ومنفعتك أيضاً !

(يظهر الطبيب انكار ذلك)

القسيس : نعم ! أنا أضايقك ، فأنت خجل من انتسابى اليك !

الطبيب : لايخجلنى انتسابك إلىّ أكثر مما يخجلك انتسابى إليك ؛ فليس لأحد منا أن يخجل من صاحبه أو أن يفاخر به ، لقد وجهت حياتك كما أحببت ، وكذلك فعلت أنا ، ثم انقطع التزاور بيننا !

القسيس : فهل انقطع بيننا الحب ؟

الطبيب : تأمل ! لم يحب أحد منا صاحبه قط !

القسيس : قليلا فيما مضى !

الطبيب : قليلا جداً فى غير عمد ، ولكن منذ ذلك الوقت الآن ؟ ليس من اليسير علىّ أن أفرق بين الأشخاص وآرائهم ! وإذن فماذا تريد ؟ أنا أكره آراءك كما تكره أنت آرائى ! أما أشخاصنا فأنت أحب إلىّ من الأجنبى !

القسيس : أو دون الأجنبى !

الطبيب : أتظن أنى أكرهك ؟ كلا ! وإنما تبعث فى نفسى شعوراً آخر ، غضباً يمازجه الإشفاق حينما أفكر فى هذه الصنعة التى تنفق فيها حياتك فأنت لا تحيا وأنت لا تفيد . . .

القسيس : لست من الجور بحيث أصفك بما تصفنى به .

الطبيب : أنت مكره على ذلك بحكم البداهة . فأنا أحارب وأنا أجاهد العلل والآلام . وربما أسرت هذه العلل والآلام وجردتها من أسلحتها . فهذا وحده يستأثر بالنفس ، وهذا وحده يجعل الحياة خليقة أن يحرص عليها صاحبها . هذا الصراع فى كل لحظة صراع الألم والموت . ومن هنا أكاد أبكى حين أرى قوة كقوتك جميلة شابة تضيع فى تقبل الاعتراف من الخادمات .

القسيس : تستطيع أن تمسح عينيك ! فهذا الكلام يدهشنى من عالم ! ذكرت الاعتراف ... ألم تفكر قط فى أن قسيساً متواضعاً يقضى سنة فى تقبل الاعتراف قد يعلم أمر الإنسانية أكثر مما يعلم الفلاسفة جميعاً . إنك تذكر الصراع ! ولكن ضروب الصراع التى تنفق فيها حياتك ليست إلا ألاعيب أطفال مضحكة بالقياس إلى الصراع الذى أحيا أنه فيه . صراعى أنا أشد من صراعك حدة ، وأقرب منه إلى العنف ، وأنا فى كنيستى الصغيرة الخالية أحيا منك ألف مرة فى مستشفياتك ومستوصفاتك .

الطبيب : لا أفهم ! ...

القسيس : أنظر ! (ثم يدنو منه) اسمع ! إن بين اللاتى أسمع لهن امرأة أستطيع أن أتحدث عنها فى غير حرج . فأنا لا أعرفها ، لم أر قط وجهها فهو مستور أبداً . وقد أسمعها تتحدث غداً فلا أعرف من صوتها شيئاً . فكل هذه الأصوات الهامسة التى تتحدث فى الأعتراف مجهولة من القسيس . ومهما يكثر عدد المعترفين و يبلغ المئات فنحن لا نسمع إلا رجلاً واحداً وامرأة واحدة .

الطبيب : إذن فمعترفتك ؟ . . .

القسيس : هى متزوجة شقية ، وهى تحب رجلاً غير زوجها . ومع أنها مضطرة إلى معاشرة هذا الرجل لم تشعره قط بهذا الحب ، مع أنها تعلم أنه يحبها . ولقد كادت شهوتها المكظومة تنفجر عشر مرات ، فخرجت مسرعة إلى هذا الذى تسميه فيما بينها و بين نفسها عاشقها ، ولكنها فى كل مرة أسرعت إلى المعترف فبكت وتضرعت ثم عادت منتصرة فرحة .

الطبيب : إلى متى ؟

القسيس : عهدى بهذا الجهاد منذ شهرين . فأنا أمسك هذه النفس وأنا أذود عنها وأحميها من السقوط فى هوة الحب . هذا صراعى ! هذا ما أفعل !

الطبيب : هذا وحشى !

القسيس : أنا أمنع هذه المرأة من السقوط . فانظر فائدتى فى الحياة .

الطبيب : أنت لا تمنع شيئاً لحسن الحظ ! وكل ما تفعل انك تؤخر إلى دقائق هذا اللقاء الذى لابد منه لهذين الشخصين ، ولن تكون بينهما أبداً حين تهب عاصفة الرغبة . غداً أو هذا المساء تسرع صاحبتك المنتصرة إلى عاشقها وتعترف هناك ذارفة دموعاً أخرى ، تقول لعاشقها كل ما لم تقل لك ، ويتحابان حباً عظيماً قوياً لأنهما انتظرا طويلا . ولن يكون عملك فى آخر الأمر إلا ترقية لحظهما من السعادة ؟

القسيس : ستعود إلىّ !

الطبيب : تعود إليك بعد أن تكون قد سقطت ! .

القسيس : سأنهضها !

الطبيب : ستسقط مرة أخرى !

القسيس : لقد سقط المسيح مرات ثلاثا ، فستكون لى الكلمة الأخيرة .

الطبيب : نعم حين تبلغ الشيخوخة . وهبك تنتزعها من بين ذراعى الحب فلن تستطيع أن تمنع أنها أحبت . هذا كل ما أردت أن أثبت . فالرجال جميعاً غنيمة ولو مرة واحدة فى الحياة لهذه الجذوة الملتهمة الضرورية ، جذوة الحب . تخيل إلى نفسك فى سذاجة أن قصتك هذه معجزة ! أنظر ! (ثم يدنو) اعف عن اعترافى هذا مقابل اعترافك . انى أحب أنا أيضاً .

القسيس : أنت ؟

الطبيب : أنا ! فأنا حر ، ولم أنذر العفة . أحب امرأة متزوجة أيضاً ، امرأة متكبرة قوية الإرادة ، تقاوم وتمانع هذا الألم اللذيذ ، ومع أننا كتمنا الأمر ولم يتحدث أحدنا إلى صاحبه بشىء فإن لحاظنا قد فضحت هذا السر ، وقد نهض بعضنا لبعض وأنذر بعضنا بعضا ، ونحن الآن نتقدم بحكم القضاء وفى سعادة وغبطة ، وبيننا مصاعب وعقاب أشد من تلك التى تحول بين صاحبتك المؤمنة و بين عاشقها . ومع ذلك فسننتصر مثلهما قبلهما ، وسيملك كل واحد منا صاحبه ، فليس الأمر إلا إلى ساعات .

القسيس : ليست الساعة بيد أحد !

الطبيب : نعم أعلم !

✡✡✡

فقد فهمت من هذا كله إلى أى حد بلغت الخصومة بين هذين الأخوين . وقف أحدهما نفسه على الدين ، ووقف الآخر نفسه على العلم . فكلاهما يزدرى صاحبه . وقد فهمت أيضاً أن الأمر بينهما قد ازداد تعقيداً ، فليست هذه المرأة التى تلتهمها جذوة الحب ، ولكنها تجاهد وتمانع وتستمد القوة على هذا الجهاد من القسيس والدين إلا الدوقة التى تحب الطبيب والتى يحبها الطبيب . وهى تنكر حبها ولكنها تصطليه ، والطبيب ينتظر أن تعترف به . يخرج القسيس وتأتى الدوقة لتنبىء الطبيب بأن زوجها قد عاد إلى القصر فى خير . فما أسرع ما يصلان إلى الحب ، وما أسرع ما يعلن الطبيب إليها حبه ، فإذا هى وجلة ، وإذا هى تنفر من هذا الحب وتأباه . وإذا الطبيب يلح عليها فيه ، وإذا هو ينبئها بأنها تحبه أيضاً . تنكر وتأبى ، ولكن إلحاحها فى الإنكار وإصرارها على الإباء لا يزيدان حبها إلا وضوحاً ، ولا يزيدان ميلها إلى الإذعان إلا ظهوراً . ما أسرع ما تتغلب إرادة الطبيب وما أسرع ما ينتصر الحب ، فإذا المرأة مذعنة ، وإذا هى معترفة بالحب ، وإذا هى قابلة لكل ما يطلب إليها . وماذا يطلب اليها صاحبها غير

الموعد ! ... هو الذى يضرب الموعد ، ويحدد مكانه وساعته ، وهى قد فقدت كل إرادة وكل قوة على المقاومة فلا تستطيع أن تجاوب إلا بالرضا ...

***

فاذا كان الفصل الثانى فنحن فى بيت القسيس ، وهذا القسيس قد جلس إلى مكتبه فى غرفة فقيرة ولـكنها لا تخلو من جمال فنى ، لأن هذا القسيس يحب الفن ويكلف بالجمال ، بل هو لا يعبد الله ولا يحبه إلا لأنه يرى الدين مظهراً من مظاهر الفن والجمال . هو يتحدث إلى خادمه ، وإذا الباب يطرق ، فينكر القسيس نفسه ، ولـكن الطارق يلح ويعلن أنه سينتظر عودته . فإذا أذن له فى الدخول رأيت الدوقة قد أقبلت إلى القسيس تستغيثه وتستنجده . ذلك أن القسيس كتب إليها وهو لا يعرفها . كتب يطلب معونتها على عمله الخيرى ، فلما قرأت كتابه ، وكانت لا تفكر إلا فى الحب ولا تنتظر إلا الموعد ، ذكرت الدين وذكرت القسيس فأسرعت إلى الـكنيسة لا إلى الموعد . ولـكنها لم تجد القسيس فى الـكنيسة فأسرعت إليه فى بيته . وماذا تريد من القسيس فى هذا البيت

وهو لا يملك قبول الاعتراف إلا فى الـكنيسة ، وهو لا يستطيع أن يذهب معها إلى الـكنيسة ليسمع إعترافها وينزل عليها رحمة الله ! لا يستطيع لأنه مدعو لعيادة مريض يشرف على الموت ، وهذا المريض أحوج إلى كلمة الله من هذه التى تجاهد الإثم . لا يستطيع أن يذهب معها فلتنتظر إلى غد . وهو يتركها الآن ولها أن تجثو أمام هذه الصور ، صور القديسين وأمام هذا الصليب فتستمد القوة والمعونة . ولـكن القسيس لا يكاد يخرج حتى يطرق البـاب فإذا أخوه الطبيب ، ذلك أنه انتظر صاحبته فأبطأت عليه فخرج يترقبها فرآها تنحو نحو الـكنيسة فتبعها ، ثم رآها تنحو نحو بيت القسيس فتبعها ، ثم رآها تدخل فدخل . . . وقد علم الآن أن أخاه إنما ينازعه حبيبته ، وقد علم الآن أن هذه الحبيبة قد خدعته حين زعمت له أنها ملحدة ، وقد علم الآن أن الأسقف كان موفقاً حين زعم أنها مؤمنة . يريد أن يأخذها فتأبى ، ويمانع القسيس ويأخذه بالخروج ، ولـكنه يأبى أن يخرج حتى يتحدث إلى صاحبته فى خلوة . يمانع القسيس ، ولـكن المرأة تقبل ذلك فيتركهما . فإذا موقف عنيف مؤثر فيه الجهاد بين الحب الذى لا يعرف رحمة ولا ليناً

وبين الحرص على الشرف القديم والوفاء للفضيلة الموروثة . فليست هذه المرأة مؤمنة ولكنها تكره الإثم ، وقد دافعت نفسها عن هذا الإثم ، وقد دافعت هذا الإثم ما استطاعت ، ففقدت كل سلاح ولم يبق لها إلا الدين ، فهى تتعلق به وتتهالك عليه رجاء أن يعصمها من النقيصة . ولم تكن تعلم أن هـذا القسيس أخو الطبيب . أما الآن فقد علمته وتغير كل شيء . ليست أشد ميلا إلى الحب ، بل هى أشد نفوراً مما كانت . ولكن الحب قوى عنيف وما يزال صاحبها بها حتى يغلب إرادتها مرة أخرى ، وحتى يستهويها ويأخذها . وهما يخرجان إذ يدخل القسيس فينقض كل شيء ، وتظهر بشاعة الأمر لهذه المرأة واضحة جلية ، فتنصرف وتترك الأخوين يتنازعان . عنيف جـداً هذا النزاع بين الأخوين ، كنت أود لو ترجمته لك لأنى لن أستطيع أن أبلغه بالتلخيص والتحليل .

يتهم الطبيب أخاه ؛ لأنه ليس مخلصاً فى دينه ، وأنه لا يدفع هذه المرأة عن الاثم ابتغاء مرضاة الله وإنما هو يشتهيها . هو لا يفرق بين دينه وبين نفسه ، هو يزعم أنه يستخلص هذه المرأة للدين ، والحق أنه يريد أن يستخلصها لنفسه . ليس

قسيساً ولـكنه رجل فاجر . وعما قليل سينزع ثوب القسيس ، وعما قليل سيعود إلى ما كان فيه من الإثم . يلح الطبيب على أخيه فى هـذا الحاحاً شديداً ، ويدافع القسيس فيخيل إلى نفسه أن أخاه يريد أن يؤثر فيه وأن يخيفه من الإثم . ولكنه كلما إزداد الحاحاً فى الدفاع إزدادت الصورة وضوحاً فى نفسه ، فهو لا يدافع حقاً عن الدين منذ عرف هذه المرأة ، وإنما هو ألعوبة فى يد طائف من الطوائف . هو ألعوبة فى يد الحب لأنه يحب هذه المرأة وإن أنكر ذلك . يحبها ويعجب بها ، وإلا لما ذكر قصتها لأخيه ! هو يحبها ، وهو ألعوبة فى يد الحب ، وهو ألعوبة فى يد الغيرة أيضاً منذ عرف أن هذه المرأة تحب أخاه . هو يحب هذه المرأة ، ويكره أن تكون لأخيه . وهو لا يستطيع أن تكون له ، فهو يريد أن تكون للفضيلة وأن تكون لله . ليس إذن مخلصاً ، وقد أحس ذلك وشعر به فجثا أمام الصليب مستغيثاً متضرعاً بعد أن تركه أخوه .

***

فإذا كان الفصل الثالث فنحن فى دار للمرسلين من القسس ينزلون فيها كلما أقبلوا إلى باريس . والأسقف فى هذه الدار

يستعد لرحلته إلى الصين ، وقد أقبل خادم فأنبأه بأن الدوقة قد خرجت تريد زيارته ، ولكن زوجها ألقى بنفسه من النافذة فهو محتضر والطبيب عنده ، وقد أقبل هذا الخادم يطلب إليه أن يرفق بالدوقة وأن ينبئها بالأمر فى لطف . ينصرف الخادم وتقبل الدوقة فلا تتحدث عن زوجها وإنما تتحدث عن نفسها وعن صاحبيها . فإذا هى ما زالت تحب الطبيب حباً شديداً ولكنها تكره هذا الحب وتنفر منه نفوراً عظيما لأنها عرفت أمر القسيس .

وأحست أنها موضوع النزاع بين أخوين ، فكرهت الحب وكرهت الحياة وأقبلت تستشير الأسقف فى أن تترك الحب وتترك الحياة وتذهب إلى الدير متى مات زوجها . ولكن الأسقف يضحك منها و ينبئها بأنها لم تخلق للدير ، وأن واجبها ليس فى الدير و إنما هو فى قصرها . واجبها أن تحيا ، وأن تحب ، وأن تكون مصدراً للسعادة . وهما كذلك و إذا القسيس يستأذن ، فتختبىء المرأة ويدخل القسدس ، فإذا هو مستيقن بإثمه مؤمن بأنه ليس أهلا لمركزه الدينى . وإذا هو يريد أن يخلع ثوب القسيس ؛ لأنه يحب ؛ ولأنه يغار ، ولأن الحب

والغيرة لا يتفقان مع والدين ، والدين فى نفس القسيس . ولـكنه لم يأثم بالفعل . ولعله لا يحب بالفعل ، وإنما يخيل إليه أنه يحب ، ويخيل إليه أنه يغار ، ويخيل إليه أنه آثم . هو إذن يستطيع أن يجاهد . ذلك حديث الأسقف يريد أن يعصم صاحبه من الانقياد للهوى والتأثر بالعاطفة ، وما يزال به حتى يقنعه بأنه يستطيع أن يظل قسيساً .

« إذن فيجب أن أترك هذه الحياة التى أخالط فيها الناس وأن أذهب إلى الدير » .

« كلا ! يجب أن تظل قسيساً » .

« لا أستطيع » .

« كلا ! تستطيع ويجب أن تستطيع » .

« إذن نخذنى معك إلى الصين هنـاك حيث أستطيع أن أعالج المجذومين الذين تعنى بهم » .

وهنا حديث لذيذ مؤثر بين الأستاذ وتلميذه تفهم منه أن الإيمان بالله والوفاء للدين ليسا فى حاجة إلى التكلف وإجهاد النفس والتفنن فى احتمال الآلام وتذوق المـكروه المادى ، وإنما هما شيئان يسيران يجب أن يصدرا عن القلب فى هدوء وسلام ،

كما يصدر الماء عن الينبوع . فإذا لم يكن بد من العنف فيجب ألا يكون هذا العنف مادياً ، يجب أن يكون نفسياً ، يجب أن يكون فى أخذ النفس بالخير وصرفها عن الشر .

« سآخذك الى الصين ولكنى أشترط لذلك شرطاً هو أن تلقى هذه المرأة قبل سفرك ، وأن تخلو إليها ، وأن تقف منها موقف القسيس حقاً وأنا واثق بأنك قادر على ذلك ، وأنا واثق بأنك تظلم نفسك حين تزعم أنك غير قادر ، وستثبت لك التجربة صدق ما أقول . نعم ستلقى هذه المرأة وسأترككما وأذهب لأرى زوجها الذى يموت . لا تمانع فليس من هذا بد » . ثم يتركه ويعود ومعه الدوقة : سيدتى إن هذا القسيس يريد أن يودعك قبل أن يسافر سفراً طويلا جداً ، ثم ينصرف . ويخلو القسيس إلى هذه المرأة فإذا هما وجلان ، وإذا هما ضيقا الصبر . ولكن المرأة تبتدىء الحديث فتسأله عن السفر ومتى ، وهو يجد من الحديث وسيلة إلى أمرهما . فإذا الأسقف لم يخطىء ، وإذا النفس الانسانية ضعيفة قوية حقاً . أليس الطبيب قد أستطاع أن يؤثر فى نفس القسيس حتى أقنعه بأنه فاجر ، وبأنه سيخلع ثوب الدين ! ألم يكن هذا القسيس معتزماً

منذ لحظة مفارقة الحياة الدينية ! انظر اليه الآن ! لقد استطاع الأسقف أن يعبث به عبثاً جديداً ، وأن يؤثر فيه تأثيراً جديداً . أقنعه بأنه قسيس ، وبأنه بر بدينه وربه ، وبأنه يستطيع ، ويجب ، أن يقف من هذه المرأة موقف القسيس . انظر اليه وقد جرد نفسه من كل حياتها المادية حتى أصبحت جوهراً نقياً صافياً ، فهو يعظ هذه المرأة ويأمرها أن تحب وأن تسعد ، فإذا ذكرت الدير أنكره وحثها على الحياة الدنيا : على أن تألم وتلذ ، على أن تفرح وتحزن ، على أن تسعد وتشقى .

ثم حدّد أغراضه وأوضح نصيحته فأمرها بأن تحب ، وأمرها بأن تحب أخاه وأن تكون له زوجاً . وهما كذلك إذ يقبل الأسقف والطبيب فيستمعان ثم يظهران . فينبئان بموت الزوج والمرأة واجمة ولكنها متأثرة بموقف هذا القسيس ، متأثرة بمنظر هذا الطبيب الذى يحبها والذى تحبه . وإذا هى تنبىء الطبيب بسفر أخيه وتطلب إليه أن يودعه فما أسرع ما يفهم الطبيب تضحية أخيه ! وما أسرع ما يتعانق الاخوان وأحدهما ملحد مسرف فى الإلحاد ، والآخر مؤمن متشدد فى الإيمان .

فما مصدر هذا التعانق بين الإلحاد والإيمان ؟ وكيف انتهت

هذه الضروب المختلفة من الجهاد العنيف الى هذا الاتفاق بل الى هذا التعانق ؟ أمران فيما أعتقد يفسران هذا كله . أحدهما معقول ، والآخر تكافه الفن . فأما الأول فهو هذا الأسقف الذى بينت لك خلاله فى أول هذا الفصل والذى هو رمز السلام والوفاق بين الناس وأهوائهم وعواطفهم لو استطاعوا أن يتدبروا وأن يفهم بعضهم بعضاً ، وأن يجتهد كل منهم فى أن يفهم نفسه .

وقف هـذا الأسقف جهده على أن يوفق بين هؤلاء المختلفين بل بينهم و بين أنفسهم فأفلح وأعانه التكلف الفنى : أعانه موت هذا الدوق الذى حل المشكلة وجعل تدخله ممكنا ، فقد أصبح يستطيع أن ينصح لهذين العاشقين بالزواج ، ولم يكن يستطيع أن ينصح لهما بالإثم . استطاع أن ينصح لهما بالزواج ، وأن يبين للقسيس أنه من حيث هو قسيس يجب أن يؤيد هذا الزواج و يبارك عليه ، وأن جهاده فى حماية هذه المرأة لم يبق له نفع ولا فائدة ، فهو بين اثنتين : أما أن يكون قسيساً حقاً ، و إما أن يكون رجلا قد ازدرى الدين وازدرى نفسه وازدرى الفضيلة . وقد آثر القسيس أن يكون قسيساً ، ولـكن بعد جهاد عنيف ، و بعد تضحية هى سفره الى الصين .

اكتوبر سنة ١٩٢٣

أنت وأنا

للشاعر الفرنسى « پول جرالدى »

ولـكنك تخطىء الخطأ كله إذا ظننت أنى جاد فى هذا الحديث وأنى أريد أن أكتب فصلاً يبقى . وتخطىء الخطأ كله إذا ظننت أنى مازح فى هذا الحديث وأنى أريد أن أضحك ليس غير . وإنما أريد أن أجدّ وأريد أن أمزح ، أو — بعبارة أوضح — أريد أن أضحك ضحكاً لا يخلو من فائدة . فقد سئمت الجد ، وأحسب أنك سئمته أيضاً . ومن حقك ومن حقى أن نمزح ولو قليلاً ، ولو يوماً فى الشهر ، على ألا يخلو هذا المزح من نفع ، وعلى ألا يكون كلاماً يقال ثم ينسى كأن لم يقل .

وقد حدثتك وسأحدثك عن أبى نواس ، فأضحكت فى نفع وفائدة ، وخالطت بين المزح والجد ، فرضى قوم وغضب آخرون . وأريد اليوم أن أحدثك عن شاعر فرنسى أو عن

ديوان لهـذا الشاعر يشبه من بعض الوجوه شعر أبى نواس فى الغزل .

ليس فى هذا الديوان إلا غزل ، وليس فى هذا الديوان إلا غزل كغزل أبى نواس ، موضوعه العبث والمداعبة . ليس فيه شىء من وصف العواطف القوية ، وليس فيه شىء من التحدث إلى الحرائر اللاتى يأخذنك بالإكبار والإجلال لأنهن كبيرات جليلات . . . وإنما هو عبث ووصف لطائفة من العواطف الدقيقة الهادئة الباسمة ، وتحدث إلى امرأة أو إلى طائفة من النساء كأولئك اللاتى كان يتحدث إليهن أبى نواس . ومع ذلك فهذا الديوان يخلو من الإثم وفاحش القول . كله ألفاظ مألوفة لمعان منها المألوف ومنها غير المألوف ، ولـكنها كلها صحيحة صادقة . وهى لا تخلو من فلسفة ، أو قل إنها كلها فلسفة . غير أنها نظمت فى سذاجة ويسر ، دون تـكلف وتعسف ، بل لم يتقيد الشاعر فيها باختيار الألفاظ المتينة أو التراكيب الرصينة ، أو بتكلف ما يتكلفه الشعراء المتفلسفون ، وإنما تحدث إلى صاحبته باللغة التى تفهمها صاحبته . وليست صاحبته أديبة بارعة فى الأدب ، ولا فيلسوفة متعمقة فى الفلسفة ، وإنما هى امرأة عادية تشعر وتلذ

وتألم وتفهم الحياة على ألا تكون الحياة معقدة . فمن الحق أن يتحدث إليها الشاعر بهذه اللغة السهلة التى يألفها الناس جميعاً ويفهمها الناس جميعاً . بل هو قد ذهب إلى أبعد من هذا فلم يتقيد فى شعره بما يتقيد به الشعراء من ضروب التضييق فى القافية والوزن ، وإنما أرسل نفسه إرسالاً ، واصطنع ضروباً من الحرية يغضب لها « بوالو » وأمثال « بوالو » . والحق أن لهذا الديوان مكانة عظيمة فى نفس الشباب الفرنسى وفى نفس الفتيات الفرنسيات بنوع خاص . فهو على يسره وسذاجة موضوعه ومعانيه وألفاظه غنى بالمعانى الطريفة ، غنى بوصف المعانى التى تشعر بها فى نفسك فى كثير من الظروف والأحيان . وأنا أزعم أنك لا تكاد تقرأ هذا الديوان القصير حتى ترى نفسك فيه غير مرة ، وحتى تمر بالمعنى من معانيه فتضطر أن تقول : هـذا حق لأنك شعرت به فى ظرف من الظروف ولأنك مستعد للشعور به إذا تجدد هذا الظرف .

ليس الديوان إذن هزلاً من الهزل ، وليس ضرباً من ضروب العبث ، وإنما هو طائفة من المقطوعات الشعرية الحلوة التى تقرؤها فتسيغها ثم تعيد قراءتها وتعيدها حتى تستظهرها

استظهاراً . وقد كنت أستطيع أن أتحدث إليك فيه جاداً ، وأن أترجم لك منه ترجمة عربية صحيحة لا تخلو من متانة وإن كان هذا عسيراً . ولكنى مع ذلك تعمدت أن أتحدث إليك فيه مازحاً ، وأن أتكلف الترجمة الحرفيـة التى يأباها الذوق العربى وآباها أنا أيضاً أشد الإباء ؛ لأنى أردت من هذا الخلط بين الجد والمزح أن تعرف هذا الشاعر من جهة ، وتعرف كيف يفكر القوم وكيف يتحدثون من جهة أخرى ، وتشعر بأن الترجمة الحرفية فى الأدب قد تكون نافعة وقد تكون قيمة ولكنها مفسدة للجمال الأدبى فى كثير من الأحيان . ثم أردت أن أبين لك مصدر هذا الأسلوب الغريب الذى يصطنعه طائفة من الشباب عندنا لأنهم يقرؤون الشعراء والكتاب من الفرنسيين والانجليز ولم يقرؤوا الشعراء والكتاب من العرب ، فيحاولون أن يكتبوا كما يقرءون ويحاولون أن يقلدوا أساتذتهم من الفرنسيين والانجليز فيأتون بالأعاجيب ويحولون بينك وبين أن تفهم ما أرادوا أن يقولوا . ومن يدرى ؟ لعلهم لم يريدوا أن يقولوا شيئاً ، وإنما أعجبهم الأسلوب فقلدوه .

أنا أترجم إذن ترجمة حرفية خالصة ، وأتكلف الأسلوب

الفرنسى فى اللغة العربية ، وأعرف أن هذا الأسلوب قد يُغضب كثيراً من الناس فأسارع بأن أعلن أنه يغضبنى أيضاً . وأعرف أنه قد يعجب كثيراً من الناس فأسارع بأن أعلن أنه يعجبنى أيضاً . فهو يغضبنى حين أريد الجد وهو يعجبنى حين أريد الضحك

* * *

وانظر إلى هذه المقطوعة التى سماها الشاعر « تبسطاً » والتى أراد أن يتحدث فيها إلى صاحبته بأن الحب أدق وأعظم من أن تصفه الألفاظ ولا سيما إذا ألفها الناس وابتذلها الاستعمال ، وأنه مع ذلك عاجز عن أن ينبئها بحبه من طريق غير طريق الألفاظ ، بل هو عاجز عن أن يحيا بغير الألفاظ ، وأنه مهما يقل ومهما يفعل فلن يستطيع أن يقول أو يعرب عن شعور أقوى من هذا الشعور الذى يجده حين يخاطب صاحبته وقد أخذ رأسها بين يديه فيقول لها : « أنت » ويختصر بهذا الضمير جمالها ومكانتها من قلبه وكل ما يحيط به وبها من حب وعاطفة وإعجاب

تبسط

آه ! أحبك ! أحبك ! أتسمعين ؟ أنا هائم بك . أنا هائم أردد أبداً كلمات بعينها . . . ولكنى أحبك ! أحبك ! . . . أحبك ، أتفهمين ! تضحكين ! تريننى سخيفاً ؟ ولكن كيف أعمل إذن لتعرفى حقاً ولتشعرى حقا ! فالألفاظ لا تدل على شىء ! إنى لأبحث ، إنى لأبحث عن وسيلة . . . ليس من الحق أن القبل تغنى . إن شيئاً يختنق هنا كأنه الزفرة . أنا فى حاجة إلى أن أعرب ، أنا فى حاجة إلى أن أُفسر ، إلى أن لا أترجم . فلن يشعر الإنسان حقاً إلا بما أحسن الإفصاح عنه . وإنما نحن قليلاً أو كثيراً فى الألفاظ . أنا فى حاجة إلى الألفاظ ، إلى التحليل ، يجب ، أن أقول لك . . . يجب أن تعلمى . . . ولكن ماذا ! احبى ! لو عرفت أن أصل إلى ما يجد الشعراء أفتظنين أنى أستطيع أن أقول لك أكثر من هذه الكلمة التى أرددها وأُرددها مائة مرة وألف مرة وأرددها فى هيام وقد أخذت بين يدى هذا الرأس الصغير : أنت ! أنت ! أنت ! أنت ! . . .

✡✡✡

وأنظر إلى هذه المقطوعة التى سماها الشاعر « حزناً » والتى هى فى الحق حزن شديد تشعر به إذا أحببت حقاً وفكرت فيمن أحببت ، وفى هذا الوقت الذى فاتك ممن تحب ، وفى هذه الضروب المختلفة من الشعور الذى وجده من تحب دون أن تشاركه فيه . ألست إذا أحببت قاسمت هواك لذته وألمه ويأسه وأمله ؟ ألست إذا أحببت وددت لو أنك استأثرت بحياة من تحب وبكل ما يقع من هذه الحياة من الأحداث !

حزن

ماضيك ! ... فإن لك ماضياً أنت أيضاً ! ماضياً عظيماً ، مليئاً بالسعادة ومليئاً بالألم ... أليس عجيباً أن يمتلىء هذا الرأس بالأفراح القديمة والهموم القديمة ، وبالظلال العظيمة والضئيلة ، وبألف صورة لست منها فى شىء ! أعيدى على كل هذه الأشياء التى قلتها مائة مرة . ذكرياتك ، لست أعرفها جيداً . آه ! هذا الليل وهذا اللغز دون عينيك ! إذن فمن الحق أن قد مضى عليك عصر من العصور كنت فيه تثبين تحت الضوء وقد انتثر شعرك الطويل كما أرى على هذه

الصورة ! . قُصّى على ، أهـذا حق ؟ أكنت كهذه الصورة التى لا أراك فيها جميلة ؟ قولى . فى ذلك الزمان ماذا كنت تصنعين ؟ ماذا كنت تفكرين ؟ ماذا كنت تقولين ؟ ماذا كان يحدث فى حياتك ؟ أوجدت هذه الحديقة الواسعة التى تلمح ، وأين كان منها مكان الباب ؟ أواثقة أنت بأن صورة هذه الصبية القبيحة تمثلك حقاً ؟ وهذه القلنسوة التى بعد بها العهد أكانت قلنسوتك ؟ أواثقة أنت ؟ وكل هـذه الوجوه الفانية أهى وجوه الذين عرفوك من قبلى ؟ أنت مدينة لهؤلاء النـاس بأول سياحة لك ، بأول ليلة فى القطار ، بأول غابة رأيتها ، بأول ساحل لعبت فيه ؟ الذين أعطوك يدهم وأعاروك أكتافهم ، وقالوا لك : « أنظرى هنا . . » والهفتاه ! ما بال هؤلاء الناس لم يتركوا لى هذا المقام ؟ ما كان أحب إلى أن أحملك وحدك إلى بعيد وأن أبتدع لك أسفاراً عجيبة ! إذن لأظهرتك على جمال المساء والصيف ، إذن لحببت إليك الطرق الطوال الخالية ، إذن لعلمتك أسماء القرى الجميلة التى نلمحها من بعيد ، إذن لقدمت إليك الأرض . وأظن أنى كنت أحسن ذلك الأحسان كله . وإذن لأمكن أن تفيض هذه

الآفاق الرائعة وهذه المدن والبلاد شيئاً من المجد ولو قليلا على الدليل . . . . آه ! هؤلاء الناس جميعاً ، أيتها العزيزة على ، أيقدرون ما حرمونى ؟ لقد قضى الأمر وليس الى استدراكه من سبيل : ومع هـذا فقد أرى هؤلاء الناس جميعاً كأنهم قوم عاديون لا يميزهم شيء . ثقى بأننا إذا أحسسنا شيئاً من الفرق والخلاف فيما بيننا فهم مصدر هذا الفرق والخلاف . نعم . هم مصدره ، هم الذين تعللوا بأيام الراحة فأخذوا ينقلونك من مكان إلى مكان وطبعوا حياتك بطابعهم قبلى . . . لا تفكر فى شيء من هذا . خبئى عنى هذه الصور . . .

☆ ☆ ☆

وهذه المقطوعة الأخرى التى سماها الشاعر « مصباحاً » والتى تضحك إذا قرأتها بالعربية وتعجبك إذا قرأتها بالفرنسية ، والتى تمثل الحياة تمثيلا صحيحاً لا مرية فى أنه صادق .

انظر إلى الشاعر قد خلا إلى صاحبته وقدم قبل المساء فشملتهما الظلمة لولا المصباح . . . أقبل المساء ومعه هذا النوع من الحزن العميق الشامل الذى ينال العاشقين إذا ولت الشمس وأقبل الليل ، والذى يبعث فيهم شيئاً عظيما من الحاجة إلى الحنان

والميل إلى الشعور بآثار الحب ، فإذا قلوبهم تخفق ، وإذا هم يمسكون أعينهم أن تفيض بعبراتها ، وإذا هم يتمنون ألا يحسوا إلا الحنان وألا يشعروا إلا بالحنان ، وإذا هم يتهالكون على الحب والحنان . وهم فى ذلك مستمتعين بلذته إذ حركة من حركات الحياة العادية قد نبهتهم من الحلم ، فشعروا أنهم أناس كغيرهم من الناس . أنظر إلى الشاعر يحس هذا كله ويطلب هذا كله ، ويبدأ بالاستمتاع بشىء من هذا وإذا الخادم تحمل القهوة فيحس الشاعر أنه جسم يأكل ويشرب ويلذ ويألم .

وهل الحياة إلا هذا !

مصباح

تسألين مالى لا أقول شيئاً ! ذلك أننا فى اللحظة القيمة ، فى ساعة الحظ والابتسام ، فى المساء وأنا أحبك هذا المساء حباً لا حد له ! ضمينى إليك أنا فى حاجة إلى الملاطفة . لو تعلمين كل ما يصعد فى هذا المساء من طمع ، وكبرياء ، من رغبة ، وحنان وخير ! . . . كلا تستطيعين أن تعلمى ! . . . إخفضى المصباح قليلا ، أتريدين ! ذلك خير . ففى الظلام وحده تحسن

القلوب الحديث ، وإنما تتراءى الأعين حقاً حين لا ترى الأشياء إلا قليلا . أنا أحبك هذا المساء أكثر من أن أتحدث إليك فى الحب . ضميني إلى صدرك ؛ أحب أن أكون أنا موضع الملاطفة الآن . . . اخفضى المصباح قليلا أيضاً . هذا حسن . لنصمت لنهدأ ، لنسكن . ما ألذ يديك الدافئتين على وجهى !... ولكن ماذا ! ماذا يراد منا ! آه ! إنهم يحملون القهوة ! إذن ضعى القهوة هنا ! اسرعى ! . . . واغلقى الباب ! . . . ماذا كنت أقول لك ؟ نشرب القهوة الآن ؟ تفضلين ذلك ! نعم فأنت تحبينها حارة . أتريدين أن أصبها لك ؟ انتظرى . دعينى أفعل . هى قوية اليوم ! تريدين سكّراً ؟ قطعة واحدة ؟ أيكفى هذا ؟ تريدين أن أذوق ! دونك ! هذه قهوتك أيتها الحبيبة . . . ولكن ما أشد الظلمة فلسنا نكاد نرى شيئاً . . . ارفعى المصباح قليلا . . .

***

ثم اقرأ هذه المقطوعة وحدثنى أليست صادقة ؟ أليس هذا الحكم الذى تشتمل عليه مع أنه جميل ومع أنه قد أورد فى لفظ شعرى وفى صورة شعرية موافق كل الموافقة لأصح نتائج الفلسفة

وأصدق نظريات العلم ؟ تلقى من تحب ، فهل قدرت أنك ستلقاه ؟ أليس يخيل إليك أنك لقيته مصادفة ، ومع ذلك فليس للمصادفة وجود ، وإنما لكل شيء علته ، ولكل علة نتيجتها . وقد تعاونت الأسباب وتظاهرت العلل منذ كان العالم على أن تلقى من أحببت فتسعدا معاً ، وتشقيا معاً . والأمر ليس مقصوراً على الحب وانما يتناول مع الحب كل شيء .

حظ

ومع ذلك فقد كان من الممكن ألا نتعارف ! تخيلى أيتها الحبيبة كل ما وجب أن يأذن به الحظ لنجتمع هنا ، وليحب كل صاحبه ، ولنكون إيانا !

تقولين : « خلق كل منا لصاحبه » . ولكن فكرى فى كل ما كان يجب من حظ ، ومن تعاون ، ومن أسباب ، ومن مصادفات ، لتحقيق هذا الشيء اليسير : حبنا ! فكرى فى أننا قبل أن نجمع بين رأسينا الهائمين قد عشنا منفردين ، منفصلين ، ضالين ، وفى أن الزمن طويل ، وأن الأرض واسعة ، وأنه كان من الممكن ألا نلتقى . أفكرت قط أيتها المخاطرة

الجميلة فى هذا الخطر الذى تعرضت له سعادتنا حين كان قلبانا يتجاذبان سراً فى أعماق الطبيعة التى لا حد لها ؟ أتعلمين أن قد كان مشكوكاً فيه ذلك الشوط الذى كان يدفعنا إلى اللقاء ، وأن عناداً أو صداعاً كانا يستطيعان أن يفرقا بيننا أبداً ؟ لم أقل لك قط ، هذا الشىء العجيب : لمحتك لأول مرة ، فلم أر بادىء الأمر أنك جميلة ، ولم أكد ألتفت اليك . فقد كانت صاحبتك تشغلنى عنك بضحكها . وإنما التقت لحاظنا فى وقت متأخر ، متأخر جداً . فكرى فقد كان من الممكن ألا تفهمى ، وكان من الممكن ألا أجرؤ .

أين كنا نكون هـذه الليلة لو أن أمك عجلت العودة بك فى تلك الليلة ، ولو أن وجهك لم يمر تحت الضوء حينما أردت أن أعينك على لبس المعطف ؟

تذكرى ! فقد كانت كل هذه الأسباب . ولو كان شىء من التأخير ، ولو عرض مانع من الموانع لما أحسسنا شيئاً من هذه النشوة العزيزة ولا من هذا التحول اللذيذ . لقد كان من الممكن ألا يوجد حبنا أبداً ! وكان من الممكن ألا تكونى فى حياتى اليوم !

☆ ☆ ☆

وأنظر إلى هذه « المحنة » أليست تترجم ما يقع بين العاشقين ! أليس من الحق أن العاشق كثيراً ما يتكلف إيذاء صاحبه امتحاناً له وفتنة ؟

محنـــــة

تنبئيننى بأنك فى هذا المرقص ضحكت ، ضحكت كمجنونة . وتشكين إذ يظهر لك أن ألفاظك تؤذينى . وددت لو لم أظهر حزيناً ، ولـكنى محزون ، هذا حق . تقولين إنى أثر ، ومع ذلك فقد تعمدت ما فعلت . هـذا الحزن الذى أحسه أيتها القـاسية لقد كانت عينك تلتمسه فى عينى ، ولو أنى ظهرت مبتهجاً لما كنت أنت راضية .

☆ ☆ ☆

وهذه « الهزيمة » . ألم يكن الرجل فى كل وقت منهزما أمام المرأة ! يظهر القوة والبأس ويتكلف أنواع الغيظ والغضب ولـكن لحظة واحدة ممن يحب وإذا قوته وبأسه وغضبه وغيظه كأن لم تكن . أيهما القوى حقاً ؛ الرجل أم المرأة الساحرة ؟

هزيمة

وبعد فليس هذا عدلا ! أنا شديد التأثر . تسيئين إلى فأحاول أحياناً أن أجزيك بالشر شراً . ولكن هذا مستحيل أبداً ، فأنا آلم دائماً أكثر مما تألمين .

أنت تعلمين كيف تحتملين الإعراض الطويل ، واللحاظ القاسية والصمت المتصل . . . آه لا تقسى علىّ أيتها الحبيبة إلى ! فأنا مسرف فى الحزن حين أحزن . . .

ولكنى مجنون ! لا تسمعى لى ! فأنا أعترف لك فى سذاجة بحقائق خطرة . . . أنت تعرفين الآن ضعفى : ولعلك تستغلينه . . .

✲✲✲

واقرأ هذه المقطوعة وحدثنى عن الجملة الأخيرة منها وهى بيت القصيد ، أليس من الحق أن الصلات الجنسية هى وحدها التى تكاد توجد الحب ؟

تفكير

مع أن كلا منا يحب صاحبه ، ومع أننا نتقسم الألم ، فنحن فى الحق لا نتشابه إلا قليلا جداً . يكفى أن يشجر بيننا خلاف ولو كان ضئيلا ليظهر أن بيننا هوات عميقة !

يخيل إلينا أننا نهيم أحياناً ، ولكن لا نكاد نفرغ من الملاطفة حتى نشعر بأن بعضنا لا يكاد يفهم بعضاً ...

لو أنك رجل أكنا نكون صديقين ؟

☆ ☆ ☆

وانظر إلى نهاية ما بين العاشقين كيف سئم كل منهما عشرة صاحبه . فاعتزما أن يفترقا وودع بعضهما بعضا وهمت أن تنصرف ، فإذا السماء تمطر ، وإذا هو يريد أن يمسكها حتى يقلع المطر ، وإذا هو ينتهز هذه الفرصة فيذكر حبهما : كيف نشأ وكيف نمى وكيف أخذ يضمحل وكيف انتهى إلى السأم ، وإذا هو يذكر ما سيصيران إليه من الجفوة وعدم الاكتراث ، وإذا يشعر بأن حياة الإنسان غرور ، وأن قلب الإنسان ضعيف ، وإذا هو يحس العجز عن احتمال هذه الفرقة ، فينظر فإذا المطر

لم يقلع ، فيتخذ المطر تعلة فيمسك صاحبته ويدعوها إلى البقاء ، على أن يحتملها وعلى أن تحتمله فى غير حب ولا كلف ولكن خضوعاً للعادة واطمئناناً إليها .

نهـــاية !

إذن فالوداع ألا تنسين شيئاً ؟ . . . حسن . انطلقى . فليس لدينا ما نقول . أتركينى . تريدين أن تمضى . . . ومع ذلك فانتظرى قليلاً ، انظرى . . . إن السماء تمطر . . . انتظرى حتى ينقطع المطر . استرى نفسك جيداً ! إن البرد شديد خارج البيت . لقد كان يجب أن تتخذى معطف الشتاء . . . لقد رددت إليك كل شىء ولم يبق لك عندى شىء . هل أخذت صورتك ورسائلك ؟ . . .

إذن فانظرى إلىّ ما دمنا سنفترق . . . ولكن احذرى ! لا تبك ! فذلك سخيف . ما أشد الجهد الذى يجب أن نبذله لنذكر عشقنا القديم . لقد منح كل منا صاحبه حياته كلها منحاً دائماً . وها نحن أولاء نسترد هـذه الحياة ! وسيذهب كل منا باسمه إلى حيث يستأنف حياته ، إلى كل شئ وإلى حيث ينبه ، وإلى حيث يحيا . . . قد نألم حينا . . .

ثم ماذا ! ثم يأتى النسيان هو الشيء الوحيد الذى يعفو . . . ثم توجدين فى ناحية أخرى ونكون بين الناس شخصين وإذن فستدخلين فى حياتى الماضية ! وقد نلتقى مصادفة فى الطريق فأنظر اليك من بعيد دون أن أعبر اليك ، تمرين فى ثياب لا أعرفها ونظل أشهراً لا نلتقى ، ويتحدث إليك أصحابى بانبائى ، وأسأل عنك وقد كنت حياتى ، عنك وقد كنت سعادتى ولذتى فأقول : « كيف هى ؟ »

إذن فقلبنا العظيم كان هذا الشيء الحقير ؟ ومع ذلك أكنا مجنونين فى أيامنا الأولى ؟ أتذكرين سعادة ؟ أتذكرين رقينا إلى السماء ؟ أكنا عاشقين ! . . . أنظرى ! كذلك كان حبنا ! إذن ! نحن ، نحن أنفسنا حين نقول : « أحبك » لا تدل هذه الكلمة على أكثر مما نرى الآن . يالله ! حقاً إن هذا مخجل . إذن فالناس جميعاً متشابهون ونحن كغيرنا من الناس ! . . .

ما أشد المطر ! لا تستطيعين أن تخرجى تحت هذا الجو . . . أقيمى ! نعم أقيمى ! سنجتهد فى أن نعش . من يدرى فقلبانا وأن تغيرا سيستلذان حركاتنا المألوفة .

سنفعل ما نستطيع . سنكون أخياراً . ثم مهما نقل فهناك العادة . . . إجلسى ! استأنفى إلى جانبى شقائك ، وسأستأنف إلى جانبك عزلتى .

☆ ☆ ☆

لعلك قرأت فأعجبت بالشاعر وسخطت على المترجم ، وودت لو أنى تكلفت الجد فترجمت ترجمة صحيحة مقبولة يسيغها الأسلوب العربى . وقد أفعل .

أكتوبر سنة ١٩٢٣

« دينـــيز »

« قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى السكندر دوما الصغير »

أريد منذ اليوم أن أقف هـذا الحديث على الأوبرا الملـكية وما يمثل فيها من آيات التمثيل . ويخيل إلىّ أن الأوبرا الملـكية خليقة بهذه العناية ؛ فنحن لا نشهد آيات الفن كل يوم . ومن الحق إذا أتيح لنـا أن نشهد هذه الآيات فى بلادنا يمثلها قوم مهرة بارعون أن نبتهج لذلك ، ونشجع هؤلاء الممثلين ، ونحمد لهم وللذين دعوهم إلى مصر نعمتهم على المشغوفين به المشوقين إليه . وقد يكون من الحق علينا أن نذيع أمر هذا التمثيل وما فيه من منفعة ولذة ؛ ليقصد إلى الأوبرا من استطاع أن يفهم اللغة الفرنسية ويتذوق جمال الفن الفرنسى . فقد آن لنا ألا ننظر إلى التمثيل كأنه فن من فنون اللهو والسمر ليس غير ، بل أن نسعى إليـه كما يسعى الإنسان إلى مدرسـة يجد فيهـا ما يشتهى من علم

وفلسفة ، ومن أدب وفن ، ويجد فيها ما لا يوجد فى المدارس عادة من لهو لا يصرف عن الجد ، وفكاهة لا تلهى عن نفع .

ولقد كانت القصة التى مثلت فى الأوبرا الملكية مساء يوم الاثنين جامعة لهذه الخلال كلها ؛ فهى درس فى الأخلاق والتاريخ ، يمثل نظاما اجتماعياً خاصاً كان له سلطانه فى عصر من العصور ، ويمثل نظاماً إجتماعياً جديداً كان الكاتب يود لو انبسط سلطانه على حياة الناس ، ولا يخلو مع ذلك مما يلذ ويعجب ويعين على إساغة الجد والانتفاع به .

☆ ☆ ☆

« أندريه باردان » شاب غنى ، فقد أبويه منذ عشر سنين ، له ثروة ضخمة ولكنه لم يحسن تدبيرها ، وإنما أخذ يعبث بها ويبددها تبديداً حتى فسد أمره وأشرف على الفقر . وله أخت فتاة فى الدير اسمها « مارت » لا يستطيع أن يضمها اليه لأنه لا يحسن تدبير أمورها فيتركها فى الدير عشر سنين ينتظر أن تتاح له فرصه تمكنه من أن يخرجها من الدير . ولكن هذه الفرصة لا تتاح له إلا بعد مشقة ، وبعد أن تركت حياة الدير فى أخته آثاراً قوية ، فنزعت بها الى شىء من التصوف والميل

الى الرهبانية من جهة ، وملأت نفسها سخطاً على الناس واتهاما لهم من جهة أخرى .

صادف أخوها رجلاً من الشعب ، عاملا ، شديد النشاط ، قوى الذكاء ، عظيم الأمل فى المستقبل ، ولكنه فقير . واسمه « توفنان » ، فأعانه بقليل من المال . وجد هذا الرجل حتى أصبح من أكبر المشرفين على الصناعة المتصرفين فى تدبير الثروة العامة . و بينما كان هذا الرجل يثرى وتضخم ثروته كان المحسن اليه يدنو من العدم قليلاً قليلاً ، حتى فكر فى أن يبيع الأرض الواسعة التى ورثها عن أبويه . فأشار عليه صاحبه أن يفرغ لتدبير ثروته واستغلال أرضه ، وأن يلتمس له معيناً شريفاً . فبحث عن هذا المعين ودلته عليه صديقة له اسمها « مدام دى توزيت » وهى امرأة فى السادسة والأربعين من عمرها ، بارعة الجمال ، فتانة المنطق ، قد ابتسمت لها الحياة ، وابتسمت هى للحياة ؛ فهى لا تعرف إلى الحزن سبيلاً ، قوية الجسم ، محتفظة بشبابها ، مزمعة أن تستمتع به ما استطاعت ، لا تضيع لحظة منه فى غير لذة . متزوجة ولكن جمالها وشبابها وكلفها باللذة حرمتها الوفاء لزوجها ، فهى تتنقل من خليل إلى خليل ، أو قل إنها

تستبدل خليلاً من خليل . وكان صاحبنا رفيقاً لابنها فى المدرسة ، فلما رآها وهو غلام حدث لا علم له بالحياة فتن بها ، ورأته هى فلم تكره حداثته وجهله فاتخذته خليلاً حينا ، ثم أعرضت عنه إلى غيره . فكان هذا الإعراض مصدر ألم الشاب ويأسه وتهالكه على الملهيات ، حتى بلغ من سوء الحال ما قدمت . بحث إذن عن رجل شريف يدبر ثروته ، فدلته صاحبته هذه على رجل كان صديقاً لزوجها الذى مات منذ حين واسمه « بريسو » كان ضابطاً بالجيش ، ولكنه أحب فتاة وأراد أن يتزوجها ، وكانت فقيرة فاضطر إلى أن يترك الجيش ، لأن القانون لا يبيح للضباط أن يتزوجوا من الفقيرات . ترك الجيش وعاش مع امرأته عيشة ضيقة مؤلمة ، ورزق منها طفلة هى « دينيز » نشأت نشأة الفقيرات ، ولكنها تعلمت ، وكانت ذكية فانتفعت بعلمها وأخذت تستعين به على الحياة . وكانت تستعد بنوع خاص للموسيقى والتمثيل ، ولكنها صادفت فى طريقها غلاماً كان يقاربها فى السن وهو « فرناند » ابن هذه المرأة التى وصفتها لك ، فأتلف الصبيان وتحابا ، وأزمعت الأسرتان أن تصلا بينهما بالزواج . فلما بلغا سن الزواج أثرى أبو الفتى وظل

أبو الفتاة فقيراً ، فانصرف الغلام عن صاحبته ، فأصابها من ذلك يأس كاد يبلغ بها الموت ، وانقطعت الصلة بين الأسرتين حتى مات أبو الفتى ودلت أمه صاحبها على أبى الفتاة فاتخذه مديراً لأمره . وما هى إلا أشهر حتى أخذ الأمر يستقيم لهـذا الشاب فنقص دينه وزاد دخله ، واطمأن إلى هذا المدير ، فكلف زوجه أن تشرف على القصر ، وأخرج أخته من الدير ، وكلف دينيز أن تقوم على إرشادها .

✲✲✲

فإذا كان الفصل الأول رأيت « اندريه باردان » فى قصره قد دعا إليه طائفة من أصحابه يقضون عنده أياماً . فأقبل صديقه « توفنان » وأقبلت صاحبته « مدام دى توزيت » وابنها فرناند ، وأقبل جار له يزوره مع امرأته ، وأقبلت « مدام بريسو » أم « دينيز » وأزمع هؤلاء جميعاً أن يجتمعوا إلى العشاء إلى مائدة القصر . وترى فى هذا الفصل اغتباط صاحب القصر بحسن حاله وانتظام ثروته ، وإعجابه الذى لا حد له « بدينيز » ، ثم ترى أن صاحبته القديمة تدور حول أخته تريد أن تتخذها زوجاً لابنها ، وأخذ هذا الفتى يمثل للفتاة

فصل العاشق الولهان حتى فتنها فمالت إليه ، وأخذ يكتب إليها رسائل الغرام فتقرؤها وترد عليها . وقد اعتزمت فى هذا اليوم أن تخرج معه ومع أمه للتروض على ظهور الخيل . فتقبل « دينيز » إلى أخيها فتنبئه بهذا وتتحدث إليه بأن الفتاة متعبة مغضبة هذا اليوم ، وبأن الخير ألا تخرج وحدها مع هذين الرفيقين لأنها ليست ماهرة فى الفروسية و بأنها ستكلف أباها أن يرافقها فى هذه النزهة . تنصح لصاحب القصر أن يتلطف باخته و يكسب ثقتها لأنها توشك أن تتورط فيما لا يليق بها ولا به . وتخرج « دينيز » و إذا « مدام دى توزيت » قد أقبلت فى زى الفارس تريد أن تتحدث إلى صاحبها فى أمر ذى بال ، فيذكر أن حبهما القديم فى غير ألم ولا لوعة ، ثم تخطب المرأة إلى صاحبها أخته لتكون زوجاً لابنها ، وكانت تقدر أن ذكرى الماضى و إحياء الأمل فى المستقبل يكفلان رضاه ، وكانت تقول له فيما تقول : إذا تم هذا الزواج استطعت أن أعيش معك فى القصر دون أن يرى الناس فى ذلك شيئاً ، حتى إذا كان ما لا بد منه فاتخذت لك زوجاً لزمت غرفتى ووقفت شيخوختى الباسمة على تربية أبنائك وأبناء ابنى ، فكنت جدة جميلة خفيفة الظل كما

أنا الآن رفيقة حلوة لذيذة المحضر . ولكنه رفض الخطبة لأن إبنها لا يليق بأخته ، رفض الخطبة وانتهى الحديث بهما إلى « دنيز » ، فظهر أن إعجابه بها مصدره حبه لها . ولم تكد تشعر المرأة بهذا الحب حتى اضطربت فى نفسها نار الغيرة فاتهمته بإغوائها وزعمت له أنه ليس أول من أغواها ، وانصرفت وقد تركت فى نفسه من الغيرة جرحاً دامياً لا يشفيه إلا أن يستكشف من أمر « دينيز » كل ما خفى عليه .

☆ ☆ ☆

فإذا كان الفصل الثانى رأيته يسأل « بريسو » عن ماضيه وماضى ابنته وما كان بينها و بين فرناند من صلة ، فينبئه الرجل بما قدمت لك فى صراحة وهدوء . فإذا أنبأه بأن قد كان بين الغلامين حب ، عظم الشك فى نفسه حتى بلغ اليأس أو كاد ، فاعتزم السفر لينسى .

وتراه يتحدث إلى صديقه « توفنان » فينبئه نبأه ويعرب له عن شكه . أما صديقه فينصح له أن يعلن إلى الفتاة حبه و يطلب إليها أن تكون له زوجاً فإنها إن تكن طاهرة السيرة نقية الماضى قبلت فى غير تردد و إلا فسترفض ؛

لأنه يثق بأنها أشرف وأنبل من أن تخدعه عن نفسها . ولكن صاحب القصر لا يزداد إلا شكا ، ولا يزيده الشك إلا اهتياجاً ، فإذا هو مضطرب ، وإذا هو نار تتلظى ، وإذا هو يصيح بلعن المرأة واستنزال السخط عليها ، وإذا هو يلعن فى يأس ساخر أنه لا يستطيع أن يطمئن إلى شىء . أليس من أشد الأشياء نكراً أن تنظر إلى هـذا الرأس الجميل الذى تعبده وأنت تعلم أن فيه سراً مكنونا ولـكنك مهما تفعل فلن تتبين من هـذا السر شيئاً ، ولقد يملكك حب الاستطلاع فتحطم هذا الرأس تحطيماً تريد أن تظفر بما فيه فلا تظفر إلا بعظم وعصب ودم ! .

أريد أن أعرف الحقيقة ، ويجب أن أعرفها ، وسأعرفها . ولـكن صاحبه يلح عليه فى ألا يسلك إلى هذه الحقيقة إلا هـذه الطريق التى وصفها له : طريق إعلان الحب وعرض الزواج ، حتى لا تتعرض حياة الفتاة للافتضاح فيكون مصدر الشقاء لقوم لا يستحقون الشقاء .

ثم تدخل أخته ، فلا يكاد يتحدث إليها حتى يشعر بأنها ساخطة عليه وعلى « دينيز » وبأنها تكره الحياة معهما ،

وبأنها تحب « فرناند » وتريد أن تتزوجه مهما يكن رأى أخيها . فيغضب أخوها وينبئها بأنها عائدة إلى الدير فمقيمة فيه حتى تبلغ الرشد ويومئذ تستطيع أن تقترن بمن تشاء . يتركها، وتدخل « دينيز » فلا تكاد توجه إليها القول حتى تشعر منها بالسخط ثم بالإهانة ، وحتى تسمع منها أنها لن تقيم فى هـذا القصر لأنها تكره أن تخضع لهذه المراقبة الدنيئة وهذا التجسس المرذول . ألستِ كلفت أباك أن يراقبنا فى النزهة ليكون علىّ رقيباً ؟ بلى ! لأنى أرى ذلك محتوماً ولا آمن عليك هذا الشاب الذى أعرف سوء سيرته مع الفتيات ، والذى يعرضك للشقاء ، والذى يجب علىّ أن أحميك من شره وسأحميك رضيت أو كرهت .

ثم تتركها ويقبل « فرناند » ، فيسألها عن كتاب كتبه إليها : أقرأته ؟ ويتحدثان فى أمرهما ، فتنبئه برفض أخيها وإصرارها هى وما كان من عزمها على العودة إلى الدير . ثم تسأله عن شىء فتحس منه ميلاً إلى الكذب فتنذره بأنها لا تكره شيئاً كما تكره الكذب ، وبأنها إن أخذته بكذبة فستقطع بينها وبينه كل صلة حتى لو كانت زوجه .

***

فإذا كان الفصل الثالث رأيت « مدام بريســو » أم « دينيز » وقد دخلت عليها « مدام توزيت » فأنبأتها بأنها إن تكن سعيدة اليوم فتظفر غداً بسعادة لا حدّ لها ، فتجزع المرأة لهذا النبأ لأنها سيئة الظن بالأيام وبالناس وبهذه المرأة بنوع خاص . وتستنبىء صاحبتها فتنبئها بأن صاحب القصر يحب ابنتها ، ويريد أن يتخذها له زوجاً ، فلا تزداد لذلك إلا جزعاً حتى يأخذها شيء من الدوار ، وتشعر أنت بأنها تشفق من أمر عظيم . ولكن « مدام دى توزيت » تلاطفها وتزين لها أمر هذا الزواج لأن فيه سعادة كثيرين ، فيه سعادة « دينيز » التى ستصبح « كونتس » وقد كانت بائســة ، وفيه سعادة « مارت » أخته التى تحب « فرناند » وتريد أن تقترن به ولن تظفر بذلك إلا إذا أشارت به « دينيز » على صاحب القصر لأنه لا يرى إلا بعينيها ، تتحدث إليها بهذا كله فلا تزداد إلا وجلاً وإشفاقاً كأنها تعلم شيئاً تخشاه .

ثم يقبل صاحب القصر فتتلقاه « مدام دى توزيت » وقد تكلفت الحزن والغضب وتستأذنه فى الانصراف والعودة إلى باريس . ولكنهما يتحدثان ، فيسألها عما تعلم من أمر « دينيز »

فتقسم له أنها لا تعلم من أمرها شيئاً ، وإنها إنما اتهمتها غيرة وحسداً . ويظهر هذا كله معقولا لصاحب القصر فيطمئن إليه ، ويقبل « فرناند » مستأذناً فى السفر ، فإذا كان كل شىء قد تغير ، وإذا صاحب القصر يلح عليه فى البقاء ويقبله زوجاً لأخته ، ولكنه يستحلفه بالشرف أن ينبئه : أكان خليلا « لدينيز » ؟ فيجيبه كلاّ ! ويقسم على ذلك ، فإذا هم جميعاً سعداء . أليس يستطيع أن يقترن « بدينيز » ! أليس الآخر يستطيع أن يقترن « بمارت » ! أليس الأمر قد انتهى إلى ما كانوا يحبون جميعاً ؟

يخطب صاحب القصر الفتاة إلى أبويها ، فيتردد الأب ثم يرضى . أما الأم فسعيدة ولكنها جزعة ، وهى تشير بأن يتحدث صاحب القصر إلى بنتها . فإذا خلا صاحب القصر إلى « دينيز » أنبأها بحبه إياها ، وأنبأته بحبها إياه ، ثم يطلب إليها أن تكون زوجة فتجيب كلا !

— لماذا

— لأنى من اللاتى يحببن دون أن يكن للزواج أهلا ، ثم تنبئه بأنها مسافرة غداً بعد أن تعود أخته إلى الدير .

ولكن أختى لن تعود إلى الدير ، فقد رضيت أن تقترن « بفرناند » .

فإذا سمعت ذلك جزعت له جزعاً شديداً وأنبأته بأنها كانت خليلة لهذا الشاب ، خدعها عن نفسها فرزقت منه طفلا ، ثم أعرض عنها أثناء الحمل وبعد الميلاد ومات هذا الطفل وجهل أبوها الأمر كله فلا ينبغى أن يكون هذا الشاب مصدر شقاء لفتاة بريئة « كمارت » . إنه لا يريد أن يتزوجها وإنما يريد أن يتزوج ثروتها ! .

الموقف هنا مؤلم جداً ، فليس من اليسير أن تملك نفسك أمام جزع هذه الفتاة وهى تفضح أمرها لمن أحبها وأحبته وأمام صاحب القصر يبكى رحمة لها وحزناً على حبه ! ولكن أبا الفتاة قد سمع الحديث فأقبل وقد جن جنونه فطرد الفتاة طرداً عنيفاً وأعلن إلى صاحب القصر أنه مرتحل لساعته ليطهر هذا القصر من هذه الأسرة الدنسة ، ثم يرتب أوراقه . وهو فى ذلك إذ يقبل « فرناند » فلا يكاد يراه حتى يهجم عليه يريد أن يقتله ، ثم يتردد أمام الجريمة فيرسله قائلا : اذهب إلى أمك فأنبئها بأنى انتظرها هنا لتخطب إلىّ ابنتى على أن

تكون زوجاً لك ، فإذا لم تتم هذه الخطبة فى ساعة فأنا قاتلك ! .

☆ ☆ ☆

فإذا كان الفصل الرابع رأيت الأبوين محزونين يتحدثان . أما الأم فمكلومة مستسلمة وكأنها مرتاحة إلى هذه النكبة التى أباحت سرها لزوجها وأخفتها من الحذر والكتمان . وأما الأب فمحزون ولكن ثورته لم تهدأ بعد ، فهو يلعن ابنته وينكر إخفاء الأمر عليه وزوجه تستعطفه وتترضاه دون أن تجد إلى العطف فى قلبه سبيلا . وهى تكره أن تقترن ابنتها بهذا الفتى ، والفتاة تكره ذلك ؛ ولكن الرجل يلح فيه مهما يكن شرا ! لقد اشتركا فى الإثم فيجب أن يحتملاه معاً .

تقبل أُم الفتى فتخطب الفتاة إلى أبيها أمام صاحب القصر وصديقه توفنان ، ويقبل الأب وتقبل الفتاة ، ويستعد هؤلاء للسفر إلى باريس . ويخلو الصديقان ، فإذا صاحب القصر محزون ولكنه مطمئن لأنه عرف ما كان يبحث عنه . أما صاحبه فيشبعه لوماً وتأنيباً لأنه جنى هذه الجناية المنكرة على هذه الفتاة التى يحبها وتحبه والتى ضحت بشرفها وكرامتها فى سبيله وفى سبيل أخته . ثم من الملوم فى هذا كله ؟ أنت

لأنك عشقت أم الفتى فعرفت أختك وحببت إليها ابنها ، وهى التى دلتك على هؤلاء الناس جميعاً فاستخدمتهم ، ولولا هـذا العشق القديم وهذا الحب الجديد وما نشأ عنهما من الغيرة لما نال هذه الأسرة ما هى فيه الآن من شقاء . وليس لك أن تسخط على الفتى لأنك سألته أمراً فأخفاه عليك ، فمثل هذا السر لايباح . أتستطيع أنت أن تنبئه بأنك كنت خليل أمه لو سألك ؟ ولم لا تقترن بالفتاة ؟ ألم تعترف لك بخطيئتها ! ألم تر جزعها لهذه الخطيئة ! ألم تبك معها على هذه الخطيئة ! ألم تغسل دموعكما آثارها ! ؟ . أنت تحبها ولن تتعزى عنها ، وأنت الآن تتركها لما ينتظرها من شقاء ، فاحذر عاقبة هـذا الجبن وهذه القسوة فقد تندم حين لا ينفع الندم .

وتقبل أخته ، فإذا عرفت كل ما كان أخذها ندم شديد لما قدمت من الإساءة إلى « دنيز » فدعتها وأخذت تضمها إليها وتسألها عفوها ومغفرتها . لقد خانك هـذا الفتى وخاننى أيضاً فكانت خيانته دليلا على أنا لا نصلح للزواج . أحببنا هذا الفتى الخائن ، فلنبرأ من حبـــه ولنقدم حبنا إلى من لا يخون . لنذهب معاً إلى الدير ، ثم تنطلقان فلا تكادان

تبلغان الباب حتى يصيح صاحب القصر : « دينيز » لا أستطيع ! !
وإذا هى بين ذراعيه ، وإذا أختـه فرحة مبتهجة تفكر فى العشاء ومن دعوا إليه ، فإذا سئلت عن الدير أجابت بعد أن تتزوج « دنييز » .

✡ ✡ ✡

والآن وقد لخصت لك هذه القصة لا أجد بدًّا من أن ألاحظ أنها لذيذة ممتعة إذا قرأتها ، ولكنك لا تكاد تشهدها فى ملعب التمثيل حتى يأخذك شىء من الدهش ، ولا أريد أَن أقول من خيبة الأمل ، فقد يكون اللفظ أشد مما ينبغى .

بُعد العهد بهذه القصة فقد مثلت فى آخر القرن الماضى .
وما أسرع ما تطورت أخلاق النـاس وعاداتهم وأوضاعهم الاجتماعية منـذ ثلاثين سنة ولا سيما فى فرنسا ولا سيما بعـد الحرب ! .

ولهذا تشعر فى كثير من المواقف بأنك تشهد شيئاً ليس بينك وبينه صـلة ، وهو إلى التاريخ أقرب منـه إلى تمثيل الحياة التى تحياها .

أضف إلى هذا شيئاً آخر ليس أقل منه خطراً ، وهو

أن الكاتب يطيل فى حواره حتى إنك لتنسى فى كثير من المواقف أنك تسمع ممثلا ، ولتشك فى أنك تسمع خطيباً . ولقد يتكلم الممثل ربع ساعة أو نحو ذلك أو أكثر من دون أن ينقطع عن الكلام أو يسمع جواباً من محاوره .

فإذا اجتمع هذان الأمران فى قصة كالتى مثلت مساء الاثنين لم تجد بداً من أن تعذر الممثلين يمثلون آيات الفن الحديث وآيات التمثيل فى القرن السابع عشر .

بل أنا أعترف بأنى كنت أعجب بمسيو البير لامبير إعجاباً لا حد له ولكن يشوبه شىء من الرفق به والإشفاق عليه ، فقد كلّف نفسه عناءً كثيراً فى تمثيل المواقف التى وقفها أندريه پاردان واستطاع أن يخلب الجمهور غير مرة .

وكان المسيو شارل جرفال بارعا فى تمثيل فرناند ، وأحسبه أمهر الممثلين بعد مسيو البير لامبير فى هذه القصة .

وهل أسمح لنفسى بأن ألاحظ أنى لم أجد ما كنت أنتظر من الآنسة « دى لوك » التى كانت تمثل « دينيز » فربما نقصها فى هذا الموقف شىء من الشباب .

ولست أدرى كيف أثنى على السيدة سوزان فرنيل ،

فهى الوحيدة التى أنستنى أنها ممثلة ، ووقفت موقف الأم الرفيقة المحزونة والزوج الشفيقة المؤاسية حقاً .

وكانت السيدة « مارت مارسان » خلابة فى تمثيلها « مدام دى توزيت » فكنت تراها تنتقل فى سهولة ويسر من التمثيل الصحيح المتقن للخليلة الفتانة إلى التمثيل الصحيح المتقن للأم التى لا تحيا إلا ليكون ابنها سعيداً .

وقد أظهرت السيدة « بلانش جاكسون » مقدرة غريبة فى موقف « مارت باردان » ولا سيما فى الفصل الثانى حين كانت تعاتب أخاها وتهين « دينيز » وتتحدث فى الحب إلى « فرناند »

ومهما يكن من شىء فإنى إن أوجه نقداً فإنما أوجهه إلى لجنة البرنامج لا إلى الممثلين ؛ فقد كان من الميسور أن تختار لنا قصص غير هذه القصص التى إن تكن ممتعة قيمة فقد لا تعطينا من التمثيل الفرنسى العصرى صورة صحيحة ، وقد تحول بيننا وبين الاستمتاع ببراعة الممثلين كلهم أو بعضهم على أقل تقدير .

نوفمبر سنة ١٩٢٣

روى بلاس

قصة تمثيلية شعرية لڤكتور هوجو

كانت لذيذة قيمة تلك الساعات التى قضيناها مساء الاثنين فى الأوبرا الملكية ، نسمع أمهر الممثلين الفرنسيين ينشدون ويمثلون شعر أنبغ الشعراء الفرنسيين . كانت تلك الساعات لذيذة ممتعة ، وربما استطعت أن أقول إنها كانت ساحرة تستهوى اللب وتخلب العقل وتنسى النظارة أنهم فى ملعب من ملاعب التمثيل يسمعون قوماً يلقون الشعر ، أو يرون قوماً يذهبون ويجيئون ويختصمون ويتفقون ، تنسيهم هذا كله ويخيل اليهم أنهم فى عالم آخر ليس من الميسور وصفه أو تحديده ، وإنما أستطيع أن أقول أنه عالم كله تأثر ، كله ألم ولذة يكادان يتجردان من الحياة المادية . وليس فى ذلك شىء من العجب ؛ فقد كان « البيرلمبير » يفسر « ڤكتور هوجو » .

كانت لذيذة قيمة تلك الساعات . والغريب من أمرها أنها لم تكن تلذك لفكرة فلسفية أو نظرية من نظريات العلم أو قضية من قضايا الاجتماع ، وإنما كانت للفن وحده . كانت تلذك لأن الممثل نابغة فى التمثيل ، ولأن الشاعر نابغة فى الشعر ، ولأن الشاعر قد استطاع بقوته التى تشبه قوة المردة أن ينتزعك من هذا العالم انتزاعاً ، وأن يصعد بك فى سماء من الجمال الفنى لا تجد فيها إلا بهجة واستبشاراً ، وإلا نعمة واغتباطاً مهما تكن البيئة التى يمر بك فيها الشاعر ، ومهما يختلف على نفسك من لذة وألم ومن أمل ويأس . واستطاع الممثل أن ينفخ فى هذا الشعر القوى الحى روحاً آخر قوياً حياً منحه من القوة والحياة حظاً ليس الى وصفه من سبيل .

قلت إن هذه القصة لا تستهويك لفكرة فلسفية أو نظرية من نظريات العلم . وآية ذلك أنك تقرأ القصة من أولها إلى آخرها فيبهرك جمالها الفنى ، وجمالها الفنى وحده ، وتشهد هذه القصة فى ملعب التمثيل فيبهرك نبوغ الشاعر ومهارة الممثل ولا تكاد تفكر فى شىء غير هذا . ومع ذلك فان « ڤكتور هوجو » كان يعتقد حين وضع هذه القصة إنها قصة فلسفية

تاريخية ، وأنه لم يقصد بها الى الفن وحده وإنما قصد بها إلى الفن وإلى العلم قصد بها إلى أن يرضى العقل ، وإلى أن يرضى الشعور . ماذا أقول ! ؟ بل قصد بها إن يرضى الحس أيضاً . وأستميحك المعذرة فى أن أتحدث اليك فى هذا الفصل عن « فيكتور هوجو » أكثر مما أتحدث اليك عن القصة نفسها . فسترى أن الحديث عن القصة ليس بالأمر اليسير ، وإنى مهما أبذل من جهد وأنفق من قوة فلن أظهر على شىء من جمالها الفنى . وأين السبيل إلى ترجمة الشعر ولا سيما شعر « فكتور هوجو ! » وإلى اعطاء صورة صادقة من التمثيل المتقن ولا سيما تمثيل « البير لمبير »

أريد إذن أن أتحدث اليك عن فيكتور هوجو فقد وضع فكتور هوجو لهذه القصة مقدمة لا تخلو من لذة ، بل لا تخلو من شىء يحمل المؤرخ الحديث على الابتسام .

« فكتور هوجو » يرى أن النظارة منقسمون بطبيعتهم إلى طبقات ثلاث ، تختلف أغراضها حين تذهب إلى دار التمثيل إختلافاً شديداً .

الطبقة الأولى النساء ، وهن حين يذهبن إلى دار التمثيل إنما يردن ارضاء العاطفة والشعور ، يردن أن يجدن من اختلاف

الأهواء وتنازعها ، ومن جهاد الشهوات واصطدامها ، ما يؤثر في شعورهن ؛ لأنهن إنما يحيين بالشعور .

الطبقة الثانية طبقة المفكرين . وهؤلاء يريدون حين يذهبون إلى دار التمثيل أن يروا فى الملعب خلالاً تستحق أن تدرس ، وأن يفكر فيها الباحث ، وأن يجد من درسها والتفكير فيها علماً جديداً يدله على شيء جديد

الطبقة الثالثة طبقة الجمهور أو طبقة العامة . وهؤلاء يذهبون إلى دار التمثيل لأنهم يريدون أن يروا حركة تمثيلية تستهوى أعينهم وتخلب حسهم وتتيح لهم ما هم فى حاجة إليه من اللهو .

النساء إذن يريدن أن يتأثرن . والمفكرون يريدون أن يتعلموا . والجمهور أو العامة يريدون أن يلهوا . ولقد يشعر فكتور هوجو بأن فى هذا التقسيم شيئاً من الغلو ، فيعتذر ويعترف بأن تقسيمه غير دقيق ، وبأن من الممكن بل من الحق الواقع أن تطلب المرأة شيئاً غير التأثر فتطمع فى اللهو وفى لذة العقل ، وأن يطلب المفكر شيئاً غير التعلم فيطمح إلى التأثر واهتزاز العاطفة ، وأن يكون فى جمهور النظارة من يجمع بين هذه الخلال جميعاً فيلهو ويتأثر ويفكر . . . ويعترف بهذا ، ولكنه

يلح فى أن هذه الخصال الثلاث هى الخصال التى لا بد من أن تشتمل عليها قصة تمثيلية متقنة . وهذه القصة التى تشتمل على هذه الخصال كلها هى عنده المثل الأعلى فى التمثيل ، هى خير من « التراجيديا » لأن التراجيديا تؤثر فى الشعور وحده ولهذا يحبها النساء . وهى خير من « الكوميديا » لأن الكوميديا تلذ العقل وحده ولهـذا يحبها المفكرون . وهى خير من قصص الهزل والحركة لأن هذه القصص تعجب الحس وحده ولهذا يكلف بها عامة الناس

هذه القصـــة التى يكلف بها فـكتور هوجو تجمع بين هذين النوعين العظيمين من أنواع التمثيل ، أو قل بين هذه الأنواع الثلاثة التى تقدمت الإشارة إليها . ويقول إن « كورنييل » زعيم التراجيديا « وموليير » زعيم الكوميديا يستطيعان أن يعيشا مستقلين وألا يلتقيا أبداً لولا أن « شكسبير » يستطيع أن يمسك أحدهما بيسراه والآخر بيمناه وأن يجمع بين فنيهما جميعاً فتكون قصته تراجيديا وكوميديا معاً .

على هذا النحو تصور فكتور هوجو القصة التمثيلية ، وعلى هذا النحو ، أنشأها . فسترى فى هذه القصة التى نحن بأزائها

ما يؤثر فى الشعور ، وما يلذ العقل ، وما يلهى . أى إنك سترى فيها ما يرضى الطبقات الثلاث التى تؤلف النظارة فى ملعب من ملاعب التمثيل . فإذا سألت فكتور هوجو عن موضوع هذه القصة أو عن الفكرة التى صدرت عنها هذه القصة أجابك بأن هذا الموضوع يختلف باختلاف الناحية التى تنظر منها إلى القصة . فقد تستطيع أن تنظر إليها من الناحية الإنسانية العامة ، وقد تستطيع أن تنظر إليها من الناحية الأدبية الخالصة . فإذا نظرت إليها من ناحية فلسفة التاريخ فموضوعها عظيم الخطر جداً لأنه يمثل لك حال الدولة الملكية العظمى قد أشرفت على الانحلال ، ثم يعرض عليك صورة جميلة مؤثرة لهذا الانحلال لا عيب فيها إلا أن فكتور هوجو قد أسرف فى تعميمها واتخذها قاعدة . وربما تكون هذه الصورة صحيحة فى أسبانيا ، وربما تكون صحيحة فى بعض الدول الملكية ، ولكن الشىء الذى لا شك فيه هو أنها لا تصلح قاعدة من قواعد التاريخ ولا أصلا من أصول الفلسفة الاجتماعية . ولكن لا تنس أن فكتور هوجو كان يكتب هذه القصة ومقدمتها فى أوائل الثلث الثانى للقرن الماضى ، أى فى العصر الذى أخذت تظهر فيه فلسفة التاريخ

ظهوراً قوياً وتبسط سلطانها على كل شىء ، وتزعم أنها قادرة على أن تفسر الحياة الإنسانية على اختلاف صورها وأشكالها .

أفلست فلسفة التاريخ فى أواخر القرن الماضى

فليس عجيباً أن نبتسم نحن مع شىء من العطف لهذه القواعد العامة التى كان يضعها ڤكتور هوجو متأثراً بهؤلاء الفلاسفة المؤرخين الذين كانوا يعاصرونه و يتسلطون على عقول المفكرين . وليس عجيباً أن ينظر المفكرون . ولا سيما الشبان منهم ، فى عصر ڤكتور هوجو إلى هذه القواعد نظرة المعجب المفتون الذى كان قوى الإيمان بفلسفة « أوجست كومت » و « سان سيمون » وغيرهما من الذين كانوا يريدون أن يفسدوا الحياة الاجتماعية الماضية و يضعوا أساس الحياة الاجتماعية المقبلة .

يظهر أن الدولة إذا أشرفت على الانحلال ظهر الفساد ظهوراً قوياً فى أشرافها ؛ لأن الدولة إذا مرضت فمرضها فى الرأس ، والأشراف رأس الدولة . ولهـذا الفساد مظهران : أحدهما الأثرة والإسراف فى حب المنفعة والتهالك عليها والتضحية بكل شىء فى سبيلها . والآخر الازدراء والسخرية والتهالك على

اللذة دون تضحية للشرف والكرامة . ويقول فكتور هوجو إن الأشراف ينقسمون أيام فساد الدولة قسمين : قسم شعر بالضعف واستيقن السقوط ، فهو ينتهز الفرصة ويريد أن ينتفع ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وإذن فأموال الدولة ومرافقها نهب لمنافعه يسخرها كما يحب . وقسم شعر بهذا الضعف واستيقن الانحلال أيضاً ، ولكنه شريف نقى ، فيعتزل الأعمال ويفرغ للذاته وأهوائه يستمتع منها بما استطاع أن يستمتع به قبل أن تنزل النازلة .

فأما القسم الأول فهو قسم الدس والكيد والاختلاس والإفساد . وأما القسم الثانى فهو قسم اللهو واللذة والاسراف ، لا يزال بما لديه من المال يتلفه ويبدده حتى يعدم فينحط من منزلته العليا إلى حيث يعايش عامة الناس . كان فى القمة فأصبح فى الحضيض ، لا يحتفظ من ماضيه ، كما يقول فكتور هوجو ، إلا بشرفه ، واسمه الذى يخفيه ، وسيفه الذى يظهره . وهو يرى القسم الآخر من أقربائه وذوى عمومته مستأثراً بالعزة والشرف منتفعاً بالمناصب وثروة الدولة ، فلا يدفعه ذلك إلا إلى الازدراء والسخرية . وكذلك كانت الحال فى أسپانيا آخر

القرن السابع عشر وهو العصر الذى تمثله قصة « رى بلاس » .

وقد يكون هذا صحيحاً من بعض الوجوه ، ولكنى لا أشك فى أن الشاعر العظيم لا يصوّر لنا فى هذا الفصل إلا صورة خيالية هى التى ملكت عليه أمره فحملته على إنشاء هذه القصة . فسترى أن لهذه القصة بطلين من أسرة واحدة ، كلاهما شريف ، ولكن أحدهما قد فقد شرفه الخلقى وضحى بكل شىء فى سبيل منفعته ، فهو يدس و يكيد و يأتمر . والآخر قد فقد مظهر شرفه المادىّ فهو فقير مشرّد يعاشر اللصوص والمجرمين ، ولكنه محتفظ بخلقه ومروءته ، فهو لا يؤْثر نفسه و إنما يؤثر عليها .

إلى جانب هؤلاء الأشراف ، الذين أخذوا يضعفون و ينحلون ، توجد قوة أخرى عظيمة عنيفة تملؤها الصحة ، ذاقت من الذل ألواناً ولكنها ينعشها الأمل ؛ فهى تطمع فى المستقبل وتطمح إلى الرقى ، وهذه القوة هى الشعب ، يقوى و يشتد أيْدُه فى حين يضعف سادته و ينحلّون . فأنت ترى من هذا نفسه أنك فى عصر الثورة الفرنسية ، وأن الذى يتحدث إليك هو ابن من أبناء هذه الثورة ، متأثر بالديمقراطية ، قد آمن بها إيماناً شديداً ، واجتهد فى أن يوفق بين إيمانه و بين عقله ، وفى أن يصطنع مذهب الفلاسفة المعاصرين

له الذين كانوا يتحدثون دائماً عن عصر مضى هو عصر الارستقراطية ، وعصر مقبل هو عصر الشعب ! .

وما أيسر ما خيّل إلى الشاعر أنه يمثل فى قصته إلى جانب هؤلاء الأشراف المنحلّين قوة الشعب ناهضةً مصعدة فى السماء فى حين يهوى الأشراف إلى الأرض . ذلك أنك سترى فى هذه القصة بطلاً باسمه سميت القصة . كان خادماً ، فسما إلى مالا يسمو إليه الخادم ، ومثل بذلك طموح الشعب إلى الرقى والفوز . . .

ثم هناك غير بعيد من هاتين القوتين المتناهضتين قوة أخرى هادئة باسمة كلها رحمة ورفق ، وكلها عطف و إحسان ، وكلها حب وجمال ، يكيد لها أولئك و يطمح إليها هؤلاء ، يأتمر بها الأشراف ويسمو إليها الشعب . هذه القوة التى تمثل الفضيلة ، التى تمثل المثل الأعلى للحياة الانسانية الصالحة ، هى السلطان ممثلاً فى شخص الملكة . فسترى فى هذه القصة بطلة هى ملكة اسبانيا الوديعة الرؤوم البائسة ، يأتمر بها الأشراف ، ويكلَف بها ممثل الشعب .

فأنت ترى أن لهذه القصة موضوعاً فلسفياً تاريخياً عميقاً . ولكنى أعترف لك بأنك لا تحس هذا الموضوع ولا تتأثر به إلا حين تقرأ مقدمة الشاعر . فإذا قرأت القصة أو شهدتها فى دار

التمثيل لم تفكر فى شىء من هذا إلا فى موقف واحد يضطرك الشاعر إلى أن تفكر فيه ؛ لأنه يتحدث إليك فى عنف وقوة عن انحطاط أسبانيا و إشرافها على الفناء . ولولا هذا لما فكرت إلا فى أن شريفاً يأتمر ، وشريفاً آخر يلهو ، وفتى من أبناء الشعب يحب الملكة

فإذا نظرت إلى هذه القصة من الناحية الإنسانية الخالصة رأيت لها موضوعاً آخر أرقى من موضوعها الأول ؛ لأن أحد أبطالها وهو هذا الشريف المؤتمر ، يمثل الأثرة العنيفة التى لا تحفل بشىء والآخر ، وهو هذا الشريف الساخر اللاهى ، يمثل الإيثار والانصراف عن المنفعة . والثالث يمثل النبوغ الذى أخذت ناره تصعد فى الجو دون أن تحفل بمقاومة ، وهو هذا الفتى الذى يمثل الشعب . أما البطل الرابع فيمثل الفضيلة مهضومة وهى الملكة .

فإذا نظرت إلى القصة من الوجهة الأدبية الخالصة رأيت مظهراً آخر واجتمعت لك فيها صور التمثيل الثلاث ، فرأيت الشريف المؤتمر يمثل « الدرامة » وهو هذا النوع من التمثيل الذى لا يخلص للكوميديا ولا للتراجيديا و إنما يؤلف بينهما . ورأيت الشريف الساخر يمثل الكوميديا ، ورأيت ابن الشعب يمثل التراجيديا ، وكانت هذه القصة مجتمعاً صادقاً لصور التمثيل .

أترى أن موضوع القصة وقيمتها يختلفان باختلاف الناحية التى تنظر منها إلى هذه القصة . ولهذا يمثل فكتور هوجو الفكرة بالجبل الشامخ يختلف منظره باختلاف المكان الذى تطلع عليه منه . ثم يرى أن فى هذه القصة أشياء كثيرة وأغراضاً متباينة ، وأن لكل فرد أو فردين من النظارة أن يأخذ من هذه الأشياء والأغراض ما أراد . ثم يعترف بحقيقة لا شك فيها ؛ لأنها تخلو من كل فلسفة أو محاولة للفلسفة ، وهى أن الذى يعنى جمهور النظارة من هذه القصة بنوع خاص إنما هو هذا الخادم الذى يحب الملكة ويلقى فى حبها ما يلقى من أسى .

هناك شىء فى هذه المقدمة لا يخلو كما قلت من لذة ولا مما يبعث على الابتسام ، وهو تأثر فكتور هوجو بطائفة من المصادفات ، أو قل بطائفة من الحوادث خليقة أن تؤثر فى نفس العامة فتبعث فيها العجب ، وخليقة أن تؤثر فى نفس الشاعر فتخرج منها الشعر . فقد ولد « شارل كان » سنة (١٥٠٠) ومات شارل الثانى آخر سلالته سنة (١٧٠٠) ، ثم ورث لويس الرابع عشر « شارل كان » سنة (١٧٠٠) ، وورث نابليون

لويس الرابع عشر سنة (١٨٠٠) . فوقوع هذه الحوادث فى هذه السنين التى تفتتح العصور شيء من شأنه أن يبهر العامة ، كما أن من شأنه أن يبهر الشعراء . ويظهر أنه بهر فكتور هوجو فحمله على أن يفكر فى أمر هذه المملكة الاسبانية العظيمة فوصل الى هذه الصيغة البديعة وهى أن شمس هذه الأسرة النمساوية التى ملكت إسبانيا قد أشرقت سنة (١٥٠٠) وغربت سنة (١٧٠٠) . وكان من نتائج هذا التفكير فى اسبانيا وملوكها وأشرافها آيتان من آيات الفن : الأولى هرنانى تمثل فجر العظمة الاسبانية . والأخرى « رى بلاس » تمثل أصيل هذه العظمة .

وأظن أنه قد حان لى أن ألخص لك هـذه القصة . ولن يكون تلخيصها طويلا ، فقد قلت إنى مهما أفعل فلن أظهرك من جمالها على قليل أو كثير .

٭ ٭ ٭

إذا كان الفصل الأول رأيت دون سالوست وهو رجل شريف من عظماء الدولة وذوى المكانة الممتازة فى القصر ، مغضباً محنقاً ، لأن الملكة قد غضبت عليه فكُلِّف أن يغادر القصر والعاصمة ، وأن يعود إلى أرضه . وهو يريد أن ينتقم

لنفسه ، ويبحث عن وسيلة لهذا الانتقام . فيدخل عليه ابن عم له هو دون سيزار ، كان غنياً فأعدم لكثرة ما عكف على اللهو ثم استخفى ؛ فتحدّث الناس عنه الأحاديث ، فمنهم من زعم أنه ارتحل . ولكنه ما زال فى مدريد مستخفياً يعاشر المشرّدين واللصوص . فإذا دخل على ابن عمه أخذ هذا يلومه ويذكر سيئاته ، فيدفع عن نفسه ضاحكاً معترفاً بآثامه مفاخراً بها ساخراً من كل شىء ، لا يشكو إلا الفقر وكثرة الدين . فيعده ابن عمه بالمعونة وأداء دينه ، بل يعد بأكثر من هذا بأن يجعله عظيماً . ولكنه يشترط لذلك شروطاً لا يكاد يعلمها صاحبه حتى يرفضها رفضاً عنيفاً ملؤه النذير ؛ لأنه يحس منها الائتمار بامرأة ، فتأبى نفسه هذا ويؤثر حياة الاجرام والفجور على الكيد لامرأة ضعيفة مهما يكن مكانها . ولكن ابن عمه لم يتحدث اليه فى هذا كله إلا ضاحكاً متنكراً ، فما أسرع ما يقنعه بأنه كان يعبث ، ثم يتركه ليأتى له بشىء من المال . وبينما هذا الشريف المعدم ينتظر ابن عمه إذ يدخل عليه « رى بلاس » ، وهو خادم دون سالوست . فلا يتراءى الرجلان حتى يتعارفا لأنهما كانا رفيقى بؤس ، ويقص كل منهما على صاحبه

ما كان من أمره . فإذا هذا الخادم شاب قد أحسن تعليمه ، فكلف بالفلسفة ، وأسرف فى هذا الكلف حتى صرفه عن الحياة العاملة ، فتكلّف ضروباً من البؤس والشقاء وانتهى إلى خدمة دون سالوست . ولكن حياته الأليمة ليست شيئاً بالقياس إلى همّ يفعم قلبه وينغّص عليه أيامه ، وهو يحاول أن يجد له اسماً فلا يوفق . وهذا الهم هو أنه يحب و يغار . يحب الملكة ويغار من الملك ، وهو فى كل يوم يقطع فراسخ ليحمل أزهاراً تحبها الملكة ، فإذا كان الليل تسلق سور القصر واندس حتى يضع أزهاره بحيث تستطيع الملكة أن تراها . وقد أسرف فى الجنون حتى أضاف اليوم إلى طاقة رسالة غرام لم يمضها . وكان سيده قد سمع لهذا الحديث ، فيدخل هادئاً ويدفع الى ابن عمه المال وقد أوصى به من يتبعه ، حتى إذا خرج من القصر عدا عليه وحمله إلى البحر فباعه من قرصان أفريقيا . ثم يخلو الى خادمه فيكلّفه أن ينزع ثياب الخادم ويلبس ثياب الرجل الشريف ، ويملى عليه رسالة غرامية ، فإذا كتبها أخذها منه واحتفظ بها ، ثم يملى عليه كتاباً آخر فيه عهد على نفسه بأنه خادم مولاه وأنه سيخلص له أبداً ، يأمره فيمضى الكتاب

ويدفعه إليه . ثم يعلن إليه ما يريد ، فهو يريد أن يجعله رجلاً شريفاً لما آنس فيه من الكفاية والشرف والوفاء . وما هى إلا أن يقبل أشراف القصر فيقدمه إليهم على أنه ابن عمه « دون سيزار » ويوصيهم به خيراً عند الملك .

* * *

فإذا كان الفصل الثانى رأيت الملكة قد جلست إلى وصائفها يتحدثن ويطرزن ، وهى تنتقل من حديث إلى حديث ، ولكن السأم عليها ظاهر ، لأن الملك يهجرها منصرفاً عنها إلى الصيد . ثم هى لا تجد فى الحياة لذة ولا سبيلاً إلى اللهو ، تريد أن تخرج فتلفتها رئيسة قصرها إلى أنها لن تستطيع أن تخرج ما دام الملك غائباً . تريد أن تنظر إلى النافذة فتلفتها إلى أن ذلك لا يباح للملكة . تريد أن تأكل مع وصائفها فتلفتها إلى أن الملكة يجب أن تأكل وحدها ما دام الملك غائباً . تريد أن تلاعب وصائفها بالورق فتلفتها إلى أن الملكة يجب أن لا تلاعب إلا أسرة الملك ، ثم لا تسمح حتى بالحديث فتأمر الوصائف بالانصراف لتخلو الملكة إلى نفسها وتفكر فيما بينها وبين الله حيناً .

فإذا خلت الملكة إلى نفسها فكرت فى المسيح والعذراء ولكن لتستعينها على الحب . فهى تحب هذا الشخص المجهول الذى يحمل الزهر وهى لا تعرفه والذى ترك لها كتاباً منذ أيام والذى يظهر أنه خرج وهو يتسلق غرفتها فتمزقت ثيابه و بقيت منها قطعة معلقة وترك أثراً من دمه على الحائط فهى تضم إلى صدرها كتابة وما بقي من ثو به ، وتنظر الى هذا الدم ، وتحاول أن تنصرف عن هذا كله فلا تستطيع . تحب هذا الفتى ، ولكن حبها غير آثم . ولولا أن الملك منصرف عنها لما فكرت فى غيره .

ثم يدخل عليها الوصائف ورئيسة قصرها وغلامان يحملان كتاباً على وسادة نخمة ، فإذا بالكتاب من الملك قد حمله إلى الملكة بعض أتباعه . تبتهج الملكة ، وتحاول أن تقرأ الكتاب ولكن رئيسة قصرها تلفتها إلى أن التقاليد تقضى بأن تقرأ هى الكتاب أولاً . تفضّ الرئيسة الكتاب وتقرأ ، فإذا الملك يقول : سيدتى الريح عاصفة وأنا أصيد وقد قتلت ستة ذئاب . ثم يمضى . ولا تسل عما أصاب الملكة من يأس وقد كانت تنتظر كتاب حب . ولكنها لا تكاد تنظر فى الكتاب حتى

تدهش . إن الملك لم يكتبه وإنما أمضاه ! وخط الكتاب يشبه خط كتاب آخر تضمه إلى صدرها . تسأل عن حامل الكتاب ، فتتقدم إليها الرئيسة رى بلاس ، وتنبئها بأن الملك قد ألحق هذا الشاب بخدمتها ، فلا تكاد تنظر إليه حتى يظهر عليها الافتتان به .

أما الشاب فاضطرابه لا يخفى على أحد . وفى ناحية من نواحى الغرفة وقف شيخ قوى مفتون بالملكة ، ولكنه يقنع من حبه بالابتسام والتحية . فإذا رأى هذا الشاب واضطرابه وتبين ميل الملكة إليه أراد أن يمتحن الشاب ، فأقبل ينبئه بأن عمله هو أن يقف فى هذه الغرفة ، حتى إذا أقبل الملك هذه الليلة وأراد أن يدخل على الملكة فتح له الباب ثم أغلقه دونه . فلا يكاد الشاب يسمع هذا الحديث حتى تأخذه الغيرة ، فإذا رأسه يدور ، وإذا هو يوشك أن يفقد الصواب .

وترى الملكة ووصائفها منه هذا فيقبلن عليه يردن إسعافه فلا تكاد تدنو الملكة منه حتى تتبين الجرح فى ذراعه فلا تشك فى أنه صاحبها .

ثم يكون بين هذا الشاب و بين ممتحنه الشيخ خصام عنيف

***

فإذا كان الفصل الثالث فقد مضى على هـذا الشهر ، وارتقى الشاب حتى أصبح زعيم الدولة ورئيس الوزارة ، والوزراء يتحدثون عنه ويحقدون عليه وعلى الملكة ، وهم يذكرون منافعهم فيقتسمون فيما بينهم ثروة الدولة . ولكنهم يجهلون مكان رى بلاس الذى يسمعهم ويراهم دون أن يروه . فما هى إلا أن يقبل عليهم فيزجرهم زجراً عنيفاً ، هو آية من آيات الشعر الوطنى . ثم إذا خلا إلى نفسه أقبلت الملكة فهنأته بما سمعت من زجره للوزراء ، وتحدثا فى الحب وتعاهدا عليه ، وهو سعيد مغتبط يكاد يجن فرحاً . ولكن أمد سعادته قصير فإن سيده القديم يدخل عليه فيشبعه لوماً وتأنيباً لأنه أهمله وأغضب عظماء الدولة حرصاً على منفعة أسپانيا وتدبير ثروتها وحياطة كرامتها . ثم لايزال به يأمره ويهينه حتى يثور الشاب ، ولكن سيده يذكره من هو ، ويذكره العهد الذى أعطاه على نفسه ، وينذره بإظهار الملكة على هذا كله . ثم يأمره أن يلزم بيته غداً ، وأن ينتظر هناك ما سيصدر إليه من أمر .

يحس الشاب أن هناك ائتماراً بالملكة فيتضرع إلى سيده

ألا يعرض لحبيبته بسوء وألا يتخذه وسيلة لهذه الإساءة . ولكن سيده يسخر منه ومن حبيبته ومن حبه .

***

فإذا كان الفصل الرابع رأيت « ری بلاس » فی بيته ولهان جزعاً مشفقاً على الملكة ، ثم ينفذ إلى الملكة كتاباً يدعوها فيه ألا تترك القصر أياماً . ويخرج ليسلّي عن نفسه ، ولا يكاد يخرج حتى يظهر فى البيت ذلك الشريف المعدم الذى رأيناه فى الفصل الأول وقد بيع ، فما زال يجد حتى خلص وعاد إلى العاصمة ورأته الشرطة فتبعته ، فما زال يعدو حتى التجأ إلى هذا البيت وهذا الفصل كله مضحك متقن .

***

فإذا كان الفصل الخامس رأيت « ری بلاس » قد عاد إلى البيت وهو هادئ مطمئن ؛ لأن الملكة لن تخرج . أما هو فيريد أن يقتل نفسه قبل أن تعرف الملكة حقيقة أمره . وهو فى لوعة إذ تدخل الملكة لأن كتابه لم يصل إليها وإنما وصل إليها كتاب آخر هو الذى أملاه دون سالوست على « ری بلاس » فى الفصل الأول فأقبلت .

يلح عليها رى بلاس فى أن تعود أدراجها ، و يكاد ينبئها بكل شىء ، ولكن دون سالوست يدخل فيعلن إليها أنها ليست ملكة أسپانيا منذ الآن لأن خلوتها إلى هذا الشاب تكفى للطلاق ويطلب إليها أن تمضى اعترافاً بهذه الخلوة سيرفعه إلى الملك . أما هى فتستطيع أن ترحل مع حبيبها إلى حيث تشاء .

تكاد الملكة تمضى لولا أن رى بلاس ينبئها بكل شىء ، و بأنه خادم لا شريف . ثم تكون بين الملكة و بين دون سالوست خصومة تهان فيها الملكة إهانة شديدة يغضب لها رى بلاس فيقتل مولاه انتقاماً لمولاته . ثم يسألها : أتعفو عنه فتجيبه ناحبة ، و يشرب السم ، فإذا رأت الملكة أقبلت عليه جزعة فأعلنت إليه حبها وعفوها ومات بين يديها .

ديسمبر سنة ١٩٢٣

أنصاف الحرائر

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « دوماس الصغير »

دوماس الصغير نَغْلٌ(1) لدوماس الكبير ، ولد له فى ٢٩ يونيه سنة ١٨٢٤ من رابطة لم يحلها القانون . وقد ربّى فى حجر ظئر ظل عندها بعد فطامه زمناً . وفى الخامسة من عمره انتقل إلى مدرسة يقوم بأمرها أحد أصدقاء أبيه ، ومنها انتقل إلى مدرسة أرقى ، ثم ترك الدراسة فى السادسة عشرة من عمره ، وظل إلى الحادية والعشرين لا صناعة له إلا التنقل بين الأوساط التى يتردد إليها أمثاله من الشبان . وأثقل الدين كاهله فى تلك الفترة ، فلم يجد سبيلا للخلاص منه إلا أن يلجأ للتحرير مستفيداً من اسم أبيه . وتلك مصادفة من المصادفات السعيدة التى تفيد صاحبها وتفيد الإنسانية كلها ؛ لأنها

(1) ولد غير شرعى .

مصادفة أصابت روحاً قوياً ، ونفساً طموحاً ، وقلباً كبيراً ، وعقلا نامياً ، وخيالا خصباً ، وأعصاباً حساسة ، وفؤاداً عرف الألم فامتلأ بالأمل وأحاطت به عظمة أبيه ، فلم يتردد لحظة فى أنه مصيب من العظمة ما أصاب أبوه .

على أن هذه القوى الكبيرة والملكات الجمة لم تلق النجاح لأول ما عالجت سبيله . ذلك بأن دوماس أراد أن يسلك فى الكتابة طريق أبيه . ودوماس لم يكن صاحب تلك النفس الضعيفة التى تأتم بأمام لها ، بل كان قوة لذاته . فلم يفده ضغط نفسه إلا ضياع مجهوده . ورأى هو ذلك رأى العين ، فأطلق نفسه من كل قيد ، وأراد أن يغامر فى الحياة بكل ما فيه من قوى الحياة . أراد أن يكون سيداً لا أسيراً . أراد أن ينشر على الحياة المحيطة به لون نفسه . فكتب لأول ما كتب فى هذا النوع قصته الكبيرة « غادة الكاميليا » ، وحكى فى الفصلين الأولين من هذه القصة صورة نفسه والمحيطات التى أحاطت به أيام صباه ؛ فكان فيما كتب صادق التصوير قويه . فلم تلبث روايته حين نشرت أن لقيت ما قدر لها من نجاح لا يزال إلى اليوم فى حدّته ؛ فما تزال « غادة الكاميليا »

غادة على المسرح رغم تعاقب السنين ، وما تزال النفوس تشتاق إليها كما تشتاق إلى كل شىء محبوب .

وصف دوماس فى « غادة الكاميليا » بعض صور حياته . وحياته ، كما رأيت ، شاذة ، خارجة على متعارف الناس فى الحياة . ولد فى وسط غير شرعى ، وعاش فى جماعة الأدباء والكتاب والمفكرين . وهؤلاء لا يعيشون عيشاً عادياً أغلب الأمر . لذلك كان ما جاء فى غادة الكاميليا خارجاً على تعارف الناس فى الحياة ؛ لأنه جعل بطلة روايته إحدى أولئك الجميلات اللاتى ولدن فى أحضان الفقر والفاقة ، وفى وسط من الأوساط الوضيعة المقام . ولكن هذه البطلة امتازت بجمال فتان يرفع المرأة إلى ذروة لا يتسامى إليها المال ولا تتسامى إليها الألقاب . وإذن كان الجمال ثروة لذاته ، وكان ثروة طبيعية . ثم إذ كان الفقر وكانت ضعة القدر لا تتنافى مع العواطف السامية ، فقد جعل دوماس لمرجريت حظاً من هذه العواطف يعدل حظها من الجمال . وأسمى العواطف الحب . الحب عاطفة قوية تأسر القلب ، وتتحكم فى الفؤاد ، وتدفع صاحبها لكل صور التضحية . انتهت هذه العاطفة بغادة الكاميليا إلى الموت .

هذه القصة الأولى لدوماس لقيت من الناس إعجابا ؛ ولكنها لقيت كذلك اعتراضاً عليها وتبرماً بها . وكيف لا يعترض الناس على قصة تضع قواعد الخلق المتعارفة موضع الشك ! . وكيف يقر الناس رجلا يرى فى بغيٍّ موضعاً لفضيلة ! . وهل قام نظام الاجتماع إلا على الفضيلة القاسية الضيقة التى تأخذ الناس بخطاياهم فتجزيهم عنها أشد الجزاء ! . ولو أبيح لأمثال دوماس أن يكتبوا فيسوغوا ما تنكره الجماعة من بعض صور الحياة لما ظلت الجماعة قائمة قوية متينة الأساس .

كذلك اعترض غير جماعة على دوماس . لكن للكتاب ورجال الفن ردّهم على هذا الاعتراض ؛ وليس أبلغ من كلمة دوماس نفسه فى التعبير عن هذا الرد . قال :

« أول شرائط العبقرية الصدق . وكل ما كان صادقاً كان طاهراً . والزهرة العذراء عريانة وهى مع ذلك عذراء . والانفعال الذى يحدث عن تصوير عاطفة من العواطف تصويراً تعبر عنه لغة جميلة وحركة جميلة كذلك هو أيا كان نوع تلك العاطفة خير الف مرة من تلك التدابير الموضوعة التى تطلبون الينا كتابتها مقابل رضا كم

عنا ، على نحو ما توضع تلك المناقصات التى تقرر فى أعمال البلديات . وتلك الانفعالات أبعد أثراً فى تقويم أخلاق الإنسان بما تدفعه إليه من النظر فى أعماق نفسه ومن تحريك غرائز الطبع الإنسانى تحريكا يدفع بخبايا الفؤاد إلى الظهور أمام بصيرته » .

إذن فهؤلاء الفنانون من الكتاب لا يريدون أن يقف الكاتب عند تكرار ما تعارف الناس عليه فى ألفاظ براقة وجمل خلابة ، ولكنهم يريدون أن يبحث فى مختلف صور الحياة مما صادفه ، وأن يحلل ما وقع تحت حسه من هذه الصور ، وأن يسبر غورها ويجلو حقيقتها ، وأن يعرضها على الناس كما يراها ، حتى يعرف الناس دخائلها وحتى يحيطوا بكل ما فى الحياة ، يجب ألا يبقى الكثير من زوايا الجماعة مظلماً لا يعرفه إلا بعض الناس ممن دفعتهم إليها صروف القدر . بل يجب على الذين احتكوا بها وعرفوا جوانبها وبحثوها أن يطلعوا الناس على كل ما وجدوه فيها . يجب أن يطلعوهم على الطريف فى جماله ، وعلى الطريف فى وحشته ، والطريف فى نفعه ، والطريف فى ضره . يجب أن تكون غايةُ صاحب الفن ، مصوراً كان أو رساماً أو شاعراً أو كاتباً ،

أن يقصد إلى الحقيقة يجلوها مهما كانت هـذه الحقيقة مرعبة مخفية . ولـكن صاحب الفن إنما يقصد إلى تجميل الحسن وتقبيح القبيح . وإنما يكون ذلك بصدق الوصف صدقاً يجعلك تحس بالصورة وكأنها الشيء انتقل كل ما فيه من المعانى إلى نفسك فأحدث فيها كل ما يمكن أن يحدثه من الانفعالات .

وحياة دوماس الصغير شاذة كما رأيت . هو قد عرف من حياة الجماعة تلك الزوايا المظلمة التى لا يتاح لكثيرين أن يعرفوها ، عرف مرارة إحساس الابن الذى يولد من علاقة غير مشروعة . وعرف صور الحياة التى يلجأ هذا النَّغْل إلى أن يعيشها . عرف حياة الإماء وأشباه الإماء ، وعرف ما يدفع إلى هذه الحياة من النضال بين هبات الطبيعة وتقاليد الجماعة ، وعرف معاذير الأشخاص الذين ينزلون إلى هذا النضال ، وعرف النتائج السيئة التى تعلق بهم منه ، والآثار الخطيرة التى تترتب على ذلك فى حياة الاجتماع ؛ فكان من ذلك كله موضع بحث وتفكير عميق عنده .

وقد تطورت استنباطاته فى هذه المسائل تطوراً عجيباً . فقد كان فى صباه رءوفاً بالمرأة الساقطة ، وكان يجد لها من

جمالها ومن إحاطة الناس بها عذراً عما قد ترتكبه من هفوات. ورأيه هذا أبداه فى « غادة الكاميليا ». ثم إنه تحوّل عن هذا الرأى بعد ذلك، ورأى فى وجود هذا الصنف من الساقطات أذى للجماعة وإضراراً بها يجب معه تجنبها ومحاذرتها. ورأيه هذا أبداه فى أنصاف الحرائر.

ثم انتقل إلى أبعد مدى من هذا، فلم ير مجرماً من يقتل المرأة الخائنة. وهذا هو رأيه فى قصته « قضية كلمنسو »

☆ ☆ ☆

قد مثلت روايته « أنصاف الحرائر » فى دار الأوبرا الملكية مساء الاثنين الماضى. وكانت واحدة من الروايات القليلة التى قامت بتمثيلها الممثلة الفرنسية البارعة الآنسة سيسيل سوريل. وكانت من بين الروايات التى نالت نجاحاً باهراً. فحق علينا وقد شهدناها أن نثبت أمرها فى « السياسة »، وأن نعرضها للقراء.

موضوع هذه القصة بسيط كل البساطة. خلاصته أن جماعة من النساء اللاتى أوتين حظاً من الجمال، وكن طُمُحا

إلى ما حلّ وحرُم من نعم الحياة ، جماعة من النساء اللاتى يجدن فى المدن وفى اجتماعاتها من صور الاستمتاع ما يحبب إليهن اتباع هواهن والخروج على متعارف قواعد الاجتماع اجتمعن .
وهذا الطراز من النساء المولعات بنعم الحياة وأنواع الاستمتاع فيها يوجد فى كل مدينة من المدائن الكبرى ، حيث لا يعرف الناس بعضهم بعضاً ، وحيث لا يقف الواحد من شؤون جاره على الكثير ولا القليل ، وحيث يتاح لكل أن يحاذى الجريمة أو يقارفها وهو مرتد برداء المجد والشرف . وهو طراز يمتاز بأن النساء من أهله كلهن متزوجات ، ولا يرى واحد لإحداهن زوجاً ؛ لأن زوج واحدة منهن منقطع عنها لوفاة أو لغربة . وهن لذلك فى انتظار الزوج لا يأبين المتعة ، وفى يد كل واحدة عصمتها . وعقد هذه المتعة الحب أو دعوى الحب . وهى تدوم ما دام عقدها .

اجتمع إذن جماعة من هذا الطراز من النساء . إحداهن سوزان التى أسمت نفسها البارونة دانج نسبة الى زوج لم تعرفه حياتها ، ولكن اسمه يجعل لها فى الحياة بريقاً محبوباً . و « الفيكونتس دفرينير » وإبنة أختها « مارسل » ،

وإبنة الأخت هذه فتاة طيبة القلب ، لم تعرف حراماً فى الحياة ، ولـكنها ولدت ، ثم سارع اليها اليتم ، فلم يكن بد من أن تلجأ إلى خالتها وأن تبقى فى جماعتها . وإلى جانب هؤلاء الثلاث « فالنتين دسانتيس » وهى زوج ممن يدعى « فرنان شاربان » الذى هجرها منذ عشر سنوات أى من بعد زواجهما بقليل ، إذ ثبت لديه أنها خانته . ولم يك عجيباً أن تخونه ، فقد ولدت فى بيئة كهذه البيئة التى وصفناها ، وعاشت فيها ثم ابتعدت عنها زمناً حتى تزوجت ، فكان طبيعياً بعد ذلك أن تعود إلى مثل أخلاق البيئة التى خرجت منها .

وكانت « سوزان » رفيقة « المركيز تومران » زمناً ، فحصلت منه على ثروة كانت تدر عليها خمسة عشر ألف فرنك كل سنة ، فلما هجرته أحبت شاباً من ذوى النبل يدعى « أولفييه دجاثى » زمناً ثم بدا لها أن تهجر هذه الحياة التى عاشتها إلى الثامنة والعشرين من عمرها وفكرت فى الزواج من شاب مستقيم غنى كريم المحتد . ولم يكن ذلك الشاب ميسوراً لها بين من عرفتهم وعرفوها . لذلك انتظرت تتحين الفرص . فلما عاد

« ريمون دمانجاك » من أفريقيا وكان جندياً قضى بها عشر سنوات أقبلت عليه وجعلت الزواج منه غايتها وهمها .

وإذ خشيت إن هى بقيت معه فى باريس أن يقف على حقيقة أمرها فيتداعى ما تدبره ، فكرت فى أن تسافر معه بعيداً عن فرنسا إذا اقتضى الحال . ورأت أن تخبر « أولفييه » بعزمها وبانقطاع ما كان بينهما من صلة وأن تودعه قبل سفرها . وإنها لتدخل إلى بيته فتجد عنده « الفيكونتس دفرنبير » ، وكانت قد جاءت تحدثه فى شأن ابنة أختها « مارسل » التى تهواه ، وتسأله لم لا يتزوّجها ؟ . فيرفض ؛ لأنه قد يعتقد بطهارة مارسل ، ولكن أمامه مدام دسانتيس مثلا حياً على أن المرأة تعود إلى بيئتها وإن خرجت منها أول خروجها نقية طاهرة . تدخل سوزان عند أولفييه وتخرج دفرنبير ، وتخبر سوزان صاحبها بانقطاع ما بينهما وبعزمها على السفر وبإحلال الصداقة المخلصة محل ما كان بينهما من علاقة قديمة . وإنهما ليتحدثان إذ يعلن الخادم مقدم المسيو ريمون دمنجاك . فتضطرب سوزان ؛ لأنها لم تكن تريد أن يعرف واحداً ممن يعرفونها . وبعد هنيهة من روية تأمر الخادم أن يدخل ريمون . ولا تبقى هى فى حضرة الرجلين طويلا بل تدعهما وتنصرف .

ولم يكن ريمون يعرف أولفييه من قبل . وإنما جاء من قبل صديق له يتحدث فى أمر مبارزة تقع بين صديقه وصديق لأولفييه . وقد أُخذ حين رأى البارونة دنج (سوزان) عنده ؛ لذلك كان حديثه أول الأمر حاداً قاسياً ؛ فكان يقف فى سبيل كل حل يتقدم به أولفييه لمنع المبارزة . وقد أبدى له أولفييه دهشته عند ذلك ، فسأله عما يمكن أن يكون بينه وبين سوزان من علاقة . فلما علم منه أنها الصداقة ليس غير ، ولما اقتنع حين أخبره أولفييه بأنه كان يستطيع أن يخبئها فى أى غرفة من غرف الدار لو أن فى الأمر شيئاً ، اتفق على ما ارتآه أولفييه من منع تلك المبارزة ، وأصبح الرجلان صديقين . وأفضى ريمون إلى أولفييه بعزمه على التزوج من سوزان ، وبما بينهما من حب جاوز حدود العقل . هنا ينتهى الفصل الأول .

✡ ✡ ✡

فإذا كان الفصل الثانى فقد اعتزم أولفييه أن يحول دون زواج سوزان بريمون . وهو يزعم خلال القصة كلها ، ويتابعه فى زعمه نقاد الرواية أنه أخذ نفسه بذلك كشريف يريد أن

يحقق لصديق شريف معنى الشرف ، وأن يحبط أباطيل هذه المرأة الساقطة . وقد يكون ما يزعمه أولڤييه من ذلك صحيحاً . قد يكون الدافع له على العمل للحيلولة دون هذا الزواج هو هذه الصداقة الجديدة التى تمت بينه و بين ريمون وحبه لطبقة الأشراف التى هو منها . ولكنى أحسب أن ثمت دافعاً آخر . فقد كان أولڤييه يحب سوزان ، وهو لم يزل يحبها . وهى التى أرادت أن تقطع ما بينه و بينها من حب . وهى التى أرادت أن تستبدل به رجلاً آخر . وهى التى أعلنت ذلك إليه حين أخبرته بعزمها على السفر ، وحين أفضى إليه صديقه الجديد بأنه سيتزوج من سوزان . فالغيرة التى حركت نفسه والتى حركت عوامل الحقد على سوزان لأنها ستتركه وحرصه على أن تبقى إلى جانبه وأن لا يستأثر بها رجل سواه . هذه الغيرة وهذا الحرص هما اللذان دفعا إلى نفسه هذا العزم ، وهما اللذان حرّكاه بقية فصول الرواية ، وهما اللذان هوّنا عليه المخاطرة بحياته فى آخرها .

اعتزم أولڤييه إذن أن يحول دون زواج سوزان بريمون . وقد تهيأت له أول فرصة لذلك حين كان معه فى منزل الكونتس دفرنيير ، وكانت هناك سوزان ، وفالنتين وسانتيس ،

ومارسل . فقد جعل يقص على صاحبه من حياة أولئك النسوة ويصف له طرازهن ونوع حياتهن وصورة مجتمعهن هذا المجتمع الوبىء الذى تهوى إليه كل زوجة لا تحرص على الوفاء لزوجها ، والذى ترتفع إليــه كل ساقطة عافت الهوى وسيلة للكسب وتعلقت به سبباً للاستمتاع بلذات الحياة . صور له هذا المجتمع ، وأشهده ما يدور من حوار بين السيدات فيــه . وقد تنبهت سوزان إلى الحديث فأسرعت إلى منعه . ولما سألت أولفييه كيف يعدها الصداقة بالأمس ثم يطعن عليها اليوم — ولو بالطعن على بيتها — أجابها بأن الصداقة لا تمنع الرجل من المحافظة على شرف الشريف ؛ وكذلك أعلنت الحرب بينهما .

على أن هذا الحديث الذى جرى بين أولفييه وريمون لم يفتح عين هذا الأخير بعد ، إذ غشّى عليها الحب الذى نصبت سوزان له حبائله ، وكانت لا تفتأ تغذوه بدعوى الحب من جانبها وبما تظهره من عواطف ملتهبة . وكل ما فعله أن خاطب سوزان فيما قاله صاحبه : فكفى أن تظهر الصد والعدول عن فكرتها ليعود هو إليها خاضعاً ذليلاً .

٭٭٭

لم يغير ذلك من نفس أولقييه ولم يَثْنه عن عزمه . بل تراه فى الفصل الثالث أكثر إمعاناً فى تنفيذ ما اعتزمه ، وأشد إقداماً على اقتحام كل العقبات . تراه وقد منعت سوزان عليه بابها ينتهز فرصة دخول ريمون فيستأذن هو الآخر ويتساءل عن ربة البيت ، فيعلم أنها خرجت ، فيهمّ بالانصراف ويطلب إلى ريمون أن يبلغها أنه كان يحمل إليها رسالة . ولكنه يعود فيخاطب ريمون فى أمر سوزان من جديد ويطلب إليه أن يسألها عن زوجها الأول . فاذا انتهى من حديثه وهمّ بالانصراف سأله صاحبه عن الرسالة التى يريد أن يحمله إياها لمخطوبته . فيتردد ، ثم يسلمه الرسالة بعد أن يأخذ عليه عهداً ألّا يفضها ، وبعد أن يخبره أنها خطابات غرام كانت ترسلها إليه سوزان . هنالك يغلى الدم فى عروق ريمون ، وينتظر عودة سوزان بصبر ذاهب . فإذا عادت قدّمت إليه شهادة ميلادها وعقد زواجها وشهادة وفاة زوجها . وأنت لا شك تعلم أن هذه الأوراق الرسمية الثلاث مزورة كلها . ولكن الرجل الساذج الذى قضى عشر سنوات فى أفريقيا الذى يحسب أن كل برّاق ذهبا لا يلتفت إلى هذا التزوير ، ويضعف أمام هذه الماكرة الماهرة ، ولكنه يظل

مأخوذاً بفكرة الخطابات التى تبودلت بين سوزان وأولڤييه ، فيطلب إلى سوزان أن تكتب خطاباً بخطها ثم يحضر الرسائل ويفضها ويقارن الخط ، فإذاً كل شبهة ساقطة ؛ إذ ليس بين خطها وخط هذه الرسائل شبه . حينذاك يقتنع ويستغفر لها عن سوء ظنه بها ، ويكرر لها أحر عبارات الحب وأقواها .

وعاد أولڤييه وقابل سوزان ، فسخرت منه وأخبرته بأنها عرفت كيف أسلم رسائلها ريمون ، وأنها لم تكن مكتوبة بخطها ، وإنما كانت تمليها على مدام دسانتيس كما أخبرته بأنها قدمت شهادة ميلادها وعقد زواجها وشهادة وفاة زوجها ، وتحدَّته إن استطاع أن ينقض ما أبرمت .

***

فلما كان الفصل الرابع عاد أولڤييه إلى حيث صديقه ورفيقته ، وذكر ريمون ما عرفه من أمر الخطابات ومن تزييف الأوراق التى قدمتها سوزان ، فطرده ريمون . ولما لم يخرج انتهيا إلى أنهما سيتبارزان . فلما رأت سوزان عظيم الخطر الذى يتهدد رفيقها القديم وزوجها جاهدت تريد أن تمنع هـذه المبارزة ، فتوسلت لريمون فلم يَجِدْ توسلها . وأخيراً قابلت « مارسل »

وأخبرتها بما سيكون . ومارسل ، كما رأيت ، مولعة ولهى بأوليفييه ، فذهبت إليه أول الفصل الخامس تريد منعه . فأبدى أنه نازل على إرادتها . لكنه تركها وخرج من باب آخر . وجاءتها سوزان فذكرت لها أن أولفييه الذى يبدى أنه يحبها يقول لها هى أيضاً أنه يحبها . فترددت مارسل فى تصديق الخبر ، فطلبت إليها أن تخرج وتدع لها المكان . وعاد أولفييه من المبارزة جريحاً . فلما رأى سوزان ذكر سابق حبه ولاعج غرامه . وعند ذلك دخل ريمون فوجدهما على هذه الحال ، فانفتحت عينه وأيقن أن ما ذكره أولفييه له عن سوزان صحيح ، فألقى إليها بعقد لها . فأخذته فمزقته مغضبة حانقة أن أخفق كل ما كانت ترجوه . ودخلت مارسل ، فاستقبلها أولفييه فى حفاوة وترحاب ، وطلب يدها ، ومدحها له ريمون ، وتم زواجهما . وانتهت الرواية .

***

هذه القصة — أنصاف الحرائر — هى الدور الثانى من تطورات تفكير دوماس الصغير فى أمر أنصاف الحرائر . فقد رأيت أنه كان يعطف عليهن حين كتب « غادة الكاميليا . »

فلما كتب أنصاف الحرائر كان قد بدأ يحقد عليهن . وقد تم تطوره حين كتب « قضية كلمنسو » فإنه جعل موضوعها دائراً حول امرأة تزوجت ، فخانت زوجها ، فقتلها زوجها وأبرأه القضاء .

***

ولعلك ترى مافى قصة أنصاف الحرائر من بعض أوجه النقد . فهـذا جالن ينعى على مدام دسانتيس سيرها ، ويرد سوءه إلى نشأته ، ويجعل ذلك سبباً لرفض التزوج من مارسل أول الرواية ، ثم هو يعود فيقبل زواجها فى آخر الرواية ولم يحدث ما يدعو إلى تغيير رأيه . وهـذا دمانجاك يظل الأيام والأسابيع تتتالى عنده الشبهات ، فإذا الحب قد غشى على بصره فلا يرى . وهذا قد لا يكون عيباً ، ولكن هـذه سوزان اعتزمت السفر حتى لا يقف أحد من أمرها على شيء . وهى أشد ما تكون رغبة فى الفرار بعيداً عن أولفييه جالن . وهى تطيق هذا الفرار ولكنها على الرغم من ذلك تبقى ، والحرب بينها و بينه حرب ضروس لن تنتهى إلى حين .

لكن مواضع النقد هـذه ليست ذات خطر إلى جانب قيمة الرواية وقوتها . وقد وضعنا دوماس أمام مشاهد بلغت من

الإبداع فى الفن غايته . مشاهد ليست مما يراه الكثيرون فى الحياة ، وقد يرى بعض الخلقيين عرضها فى غير مصلحة الأخلاق . ولكنها مشاهد تمثل حياة طائفة كبيرة من أهل المدن ، وقد يكون من الخير أن تعرض حتى يعرف الناس موضع المرض فيتقوا جرثومته .

☆☆☆

وقد مثلت جوقة الكوميدى بالأوبرا الملكية هذه القصة خير تمثيل . ولسنا بحاجة للثناء على مدموازل سيسيل سوريل فى تمثيلها دور « سوزان » فقد كانت هذه الحرب بينها وبين أولڤييه وحرصها على أن تصل إلى الفوز وإلى تحقيق ما اعتزمته من التزوج من ريمون دمانجاك تحتاج إلى قوة فى بعض المواقف ورقة فى البعض الآخر وضعف فى مواقف أخرى . فلم يكن صوت سوريل وحده هو الذى يعبر عن القوة وعن الرقة وعن الضعف ، بل كانت مقدرتها فى العبارة راجعة إلى كل كيانها وإنك لتستعبر فى بعض المواقف حين تراها ، وقد رأت نفس ريمون يداخلها الريب ، قد صارت كلها حباً واستعطافاً ورقة وضعفاً ، ثم إذا بك تراها أمام أوليڤييه وقد ملكت كل وسائل

القوة فى حالة من الهـدوء النفسانى تتجلى معها القوة القاسية فى سكينتها وسخرها .

وقد نفثت مدموازل سوريل على الرواية من روحها قوة . وكان الممثلون إلى جانبها يزيدون هذه القوة وضوحا وجلاء لولا بعض مواضع كانت تبدو فى الأدوار الثانوية .

وقد مثلت جوقة الـكوميديا بالأوبرا الملـكية هذا العام تمثيلا حاز أكبر الإعجاب .

ديسمبر سنة ١٩٢٣

« خيـاطـة لونيفيل »

للـكاتب الفرنسى « الفريد سقوار »

لا تقل إنها إمرأة ذكية حادة الذكاء ، ولـكن قل إنها جذوة من الذكاء . ولا تقل إنها ماهرة فى الفن ، ولـكن قل إنها الفن يحيا ويتحرك . فأنت إذا شهدتها لم تستطع أن تفرق بين الذكاء والذكىّ ولا بين الفن والفنان ، وانما أختلط عليك الأمر اختلاطاً ، ثم اقتنعت بأنك تشهد الذكاء والفن يضطربان ويترددان فى ملعب التمثيل فيستأثران بهواك ، ويخلبان لبك ، وينسيانك نفسك وما يحيط بك ، ويقصران حياتك على ما تسمع وعلى ما ترى . فأنت معلق بألفاظ الممثلة ، وأنت معلق بحركاتها . وغريب جداً ما تشعر به حين يلقى الستار . وتعود الى نفسك فتشعر بها وتفكر فيما يحيط بك . وأنا زعيم بأن هذه العودة لن تكون يسيرة

عليك ولا محببة اليك ، فستظل بعد أن تفارق ملعب التمثيل أسير الملعب ، وستسمع صوت الممثلة ، وسترى حركاتها ، وستحب هذا الأسر وترغب فيه ، وتكره أن تصرفك عنه صارفات الحياة . ستتصل نفسك بما سمعت لأنه جميل . وستتصل نفسك بما رأيت لأنه جميل . وستستعذب هذا الاتصال وتستثقل الحديث الذى يصرفك عنه وتتبرم بغير الحديث من شؤون الحياة التى تضطرك إلى أن تفكر فى غير ما رأيت أو سمعت . وستتمنى حين تخرج من ملعب التمثيل أن تخلو الى نفسك ، أو أن تخلو إلى ما سمعت وإلى ما رأيت ، أو أن تخلو ليتاح لك أن تستعذب الفن وتسيغه ، وأن تستعذبه وتسيغه الى غير حد . وبم يمتاز الجمال الفنى ؟ وبم يمتاز أثر الجمال الفنى فى نفسك ؟ أليس يمتاز بأنك لا تنال منه حظاً إلا استعذبته وتمنيت منه المزيد ، ومهما أتيح لك منه فلن يثقل عليك ، ولن تنصرف عنه نفسك ، ولن تزداد إلا اتصالا به وفناء فيه !

أنا زعيم لك بهذا كله إذا شهدت هذه الممثلة فسمعتها تقول ورأيتها تلعب . وقد أطيل القول فلا أقول شيئاً . وقد أتكلف تخير الألفاظ فلا أجد ما أؤدى به شيئاً مما أجد فى

نفسى . من ذا الذى يستطيع أن يصور بالألفاظ ما يحس فى نفسه من جمال الفن ! ومن ذا الذى يستطيع أن يترجم الموسيقى ترجمة صادقة الى الكلام ! أستطيع أن أقرأ كتاباً من كتب العلم أو الأدب أو الفلسفة فأعجب به ، ثم أنقل اليك خلاصة ما قرأت ، وأصف لك لذتى بما قرأت ، وأُشركك فى هذه اللذة . ولكنى أعترف ، وأظن أن غيرى من الكتاب يعترفون ، بالعجز كل العجز عن أن نشهد آية من آيات الفن ثم ننقل اليك منها صورة صادقة أو قريبة من الصدق ، ثم نصف لك لذتنا بهذه الآية واغتباطنا بها ، ونشركك فى هذه اللذة وفى هـذا الاغتباط . نحن عاجزون عن هذا العجز كله ؛ لأن استعدادنا للشعور أعظم من قدرتنا على الوصف ، ولأن الألفاظ التى أتيحت لنا حين نحاول الوصف أقل عدداً وأضيق نطاقاً من هـذه العواطف والأهواء التى لا تحصى والتى تثيرها فى أنفسنا آيات الفن على اختلافه . وإذا ضاقت اللغة بالعلم والفلسفة فهى بالفن أشد ضيقاً . وأحسب أن اللغة لم تخلق لتعبر عن الفن . وان تكن قد خلقت لتعبر عن الفن فأنا أعتقد أن بينها وبين تحقيق هذه الغاية التى خلقت لها أمداً لا يزال بعيداً .

لقد رأيت السيدة سيمون فى مواقف مختلفة الاختلاف كله ، متباينة أشد التباين ، وحاولت أن أفاضل بينها فى هذه المواقف المختلفة المتباينة وأفضلها على نفسها فى موقف دون موقف ، فما وجدت الى ذلك سبيلا . ومع ذلك فإن اختلاف هذه المواقف عظيم ، عظيم بحيث لا تكاد تتصور أن يوفق فرد إلى إتقانها جميعاً . انظر إلى هذه الممثلة فى موقف كله لعب وفتنة ، وكله لذة ولهو ، انظر اليها فإذا هى تأخذ بحظها من ذلك موفوراً كأنها لم تعرف فى حياتها إلا اللعب والفتنة وإلا اللذة واللهو ، وكأنها خلقت لهذا الموقف ، وخلق لها هذا الموقف ! ولكن احذر أن تحكم عليها مثل هذا الحكم ، فما أسرع ما تراها قد انتقلت من هذا الموقف الى أشد المواقف بعداً عنه ومناقضة له : إلى الحزن والكآبة ، إلى البؤس العميق الذى امتزج باللحم والدم وصور النفس على صورته ، فإذا هى بؤس وكآبة . تنتقل الى هذا الموقف فى سرعة مدهشة ، فانظر اليها فيه فستشعر بأنها ليست أقل اطمئناناً اليه وقدرة عليه وبراعة فى تمثيله مما كانت فى الموقف الأول . ثم دع هذين الموقفين وانظر اليها فى موقف آخر ، فى موقف يزدرى اللذة واللهو ، كما يزدرى الحزن والبؤس . فى موقف

يشرف منه الإنسان على الحياة ولذاتها وآلامها إشراف الفيلسوف يزدريها ويبتسم لها ابتسامة لا تستطيع أن تتبين أهى ابتسامة سخط أم رضا . انظر اليها فى هذا الموقف فستضطر إلى الحكم بأنها قد خلقت له وخلق لها . وليس العجب أنها تستطيع أن تتقن هذه المواقف وتبرع فى تمثيلها فحسب ، وإنما العجب كل العجب أنها تستطيع أن تتنقل بين هذه المواقف فى غير هدنة ولا مهلة وفى غير تكلف ولا تصنع .

ماذا أقول ! هى إلى التأثير فيك أسرع منك إلى التأثر بها . فبينا أنت مغرق فى الضحك لأنها بعثتك على الضحك ، وبينا أنت فى حاجة إلى شىء من المهلة لتقضى العجب وتأخذ بحظك من هذا الضحك ، إذا هى مغرقة فى حزن لا أول له ولا آخر ، وإذا هى اختطفتك فى عنف وخفة من الابتهاج والسرور إلى الابتئاس والعبوس ، واذا أنت لعبة فى يدها ، تضحك لأنها أرادت أن تضحكك ، وتبكى لأنها أرادت أن تبكيك ، وقد نسيت نفسك فما تدرى لم تضحك ولم تبكى ! وكيف تنتقل من ذلك الضحك الى هذا البكاء !

شهدتها تمثل قصتين : إحداهما التى أحدثك عنها اليوم .

وأعترف بأن هاتين القصتين فى نفسهما لم تعجبانى ولم تتركا فى نفسى من الأثر القوى ما كنت أنتظر أن تتركا ، ولكنى مع ذلك لم أعجب قط بقصة تمثيلية قرأتها أو شهدتها إعجابى بهاتين القصتين حين شهدتهما فى الأوبرا الملكية ، لا أستثنى من ذلك إلا قصة « بيرنيس » لراسين حين كانت تمثلها « بارتيه » ، وإلا قصة « الحب » لبول جيرلدى حين تمثلها « بييرا » . لا أستثنى غير هاتين القصتين ، على أنى شهدت قصصاً تمثيلية كثيرة وحظها من الإبداع الفنى عظيم ، وشهدت ممثلات كثيرات فيهن « سيسيل سوريل » ونظائرها .

وقد أستطيع أن أحدثك فلا أفرغ من الحديث دون أن آتى بشىء مما أشعر به من الحق للسيدة « سيمون » فلأرحك ، ولأرح نفسى من هذا العناء غير المفيد ، ولألخص لك القصتين تلخيصاً موجزاً .

* * *

« خياطة لو نيفيل » قصة غريبة فى نفسها ، كلها أشياء غير منتظرة . ويكفى لإثبات ذلك أن تعلم أن التلخيص الذى وضع

لها ليقرأه الجمهور قبل التمثيل لا يشتمل إلا على خلاصة الفصل الأول ، فأما الفصول الثلاثة الباقية فقد أشير إليها بأصفار ، وهذا يبين مقدار اعتماد الكاتب على الممثلة وأمله فيها ، فقد أنشأ القصة لها وحدها .

يرفع الستار فإذا مطعم من مطاعم باريس الفرحة المبتهجة يختلف إليه آخر الليل أولئك الذين استمتعوا بما أتيح لهم من اللذة فى ملاعب التمثيل والموسيقى ، فلما قضوا حظهم من ذلك أقبلوا يأكلون ويشربون ويتمون الليل فى لهو ولعب . وهذه الليلة من ليالى الرقص فى الأوبرا . فالمزدحمون على هذه المطاعم كثيرون تضيق بهم غرفاتها الخاصة والعامة . وقد أقبل فيمن أقبل على هذا المطعم فتى فرح مبتهج ، ومعه امرأة جميلة فتنته ، أو قل إنه فتنها ، أو قل إنها تعبث به . هذا الفتى هو « بيير رولون » وهذه المرأة هى « ايرين سلفاجو » كانت فى أحد ألواج الأوبرا ، فلحظت هذا الشاب فأشارت إليه ، فسعى إليها ، فأقبلا يتمان ليلتهما فى اللهو بهذا المطعم . فلا تكاد تسمع حديثهما حتى تتبين أن هذه المرأة أجنبية ، وحتى تتبين من صوتها وحديثها أنها غامضة شديدة الغموض ، مبهمة إبهاماً لا حد له ، شديدة

الانتقال من طور إلى طور فى عبث وتحكم ، مالكة أمر نفسها ، لا تأكل ولا تشرب ولا تلهو إلا بمقدار ما تريد . أما الفتى فعلى عكس هذا كله ، سمح ، طلق ، سهل القياد ، لم يكد يخلو إلى صاحبته وتدفعه إلى الحديث حتى أخذ يتحدث ويتحدث ويقول عن نفسه ما يقال وما لا يقال ، وهو نشوان ، ثم لا يلبث أن يسكر ويندفع فى القول . وقد زعم لصاحبته أنه يحبها ويهيم بها حباً وهياماً لا عهد له بمثلهما ، وأنه حر لا يقيده حب آخر . ولكن نظرة فى صحيفة من الصحف تظهر صاحبته على أنه سيتزوج غداً ، أو قل سيتزوج ظهر اليوم ، فنحن فى الساعة الثالثة صباحاً . هذه المرأة روسية معروفة ، تلعب فى السينما توغراف ، فإذا علمت أمر صاحبها وإنه سيتزوج بعد ساعات ، وعلمت من قصته فى ماضيه أنه كان ضابطاً فى الجيش وأنه رابط فى مدينة لونيفيل غاظها خداعه وكذبه وإخفاؤه أمر الزواج ، فأضمرت فى نفسها شيئاً ، فأقبلت عليه تلاطفه وتلهيه وتتكلف الشرب وتغريه به ، فيشرب حتى يفقد صوابه ، وحينئذ تدعو سائق سيارتها وتكلفه أن يحمل هذا السكران إلى لونيفيل وأن يعزله فى قهوة هناك بالقرب من القلعة ثم يعود . وهى إنما تريد بذلك أن تفوت عليه ميعاد الزواج .

٭ ٭ ٭

فإذا كان الفصل الثانى رأيت صاحبنا فى باريس وقد مضى على قصته هذه ستة أشهر . وكان مالياً يعمل فى المصارف والبورصة ، فما زالت به صاحبته الروسية هذه حتى بدد ثروته وانصرف إليها عن كل شىء . وما هى إلا أن أسرع إليه الإفلاس ففقد ما كان عنده وأضاع ثقة الناس به ، واعتزم أن يترك باريس وأن يذهب إلى حيث تقيم أمه فى الأقاليم . وهو مع ذلك كلف بهذه المرأة التى حملته كل هذه الأعباء دون أن يظفر منها بشىء . كلف بها حتى إنه ليرجو من خادمه أن يبعث إليها بأزهار ، وأن يدفع ثمن هذه الأزهار من دين له على سيده . يخرج الخادم ولكنه يعود مسرعاً لأنه يرى هذه المرأة مقبلة . فلا يكاد ينبىء سيده بمقدمها حتى يهيم هذا فرحا ، فيأذن لخادمه فى أن ينصرف ، ويلهو طول يومه ، يريد أن يخلو إلى صاحبته . فإذا دخلت عليه أنّبها ولامها لوماً عنيفاً ، فتظهر له أنها قد أقبلت لتنيله ما يريد ، وأنها إنما امتحنته طول هذه المدة فاطمأنت إليه ، وأقبلت تريد أن تعيش معه . ولكنها جائعة فهى تريد أن تأكل ، وعطشى فهى تريد أن تشرب . وقد انصرف الخادم ، فصاحبنا مضطر إلى أن يذهب

ليحمل طعاماً وشراباً . ولكنه لا يكاد يخرج حتى تتغير هذه المرأة تغيراً غريباً ، فإذا شكلها ولباسها أبعد الأشياء عن شكلها ولباسها حين دخلت . ويعود صاحبها ، فلا يكاد يراها حتى يدهش ويبحث عن صاحبته ويناديها ، فتجيبه هذه المرأة فى حركة جنونية وصوت ملائم لهذه الحركة حتى يخيّل إلى الرجل أنه أمام مجنونة . وهو حانق على هذه المرأة لأنه لا يجد صاحبته . وما هى إلا دقائق حتى يتبين أمر هذه المرأة التى أمامه ، فإذا هى امرأة من لونيفيل كانت بنت رجل يبيع التبغ . وعرفها صاحبنا حين كان مرابطاً فى هذه المدينة فأغواها ثم هجرها ، وعرف أبوها الأمر فطردها . وكانت حاملاً فولد لها طفل لم يلبث أن مات . وقد مضت على هذه القصة أعوام طوال حتى نسيها صاحبنا نسياناً تاماً . أما هى فلم تنسها ولم تفكر إلا فى هذا الفتى الذى أغواها وهجرها ، والذى تحبه هى حباً شديداً وتريد أن تلقاه . عاشت وحدها ، فاتخذت حرفة الخياطة ، ثم انتقلت إلى باريس فوصلت إلى ملاعب السينما توغراف ، ولكنها لا تقص على صاحبنا تفصيل أمرها وإنما تنبئه منه بما يكفى فإذا علم بأنها كانت حاملاً وأنها فقدت طفلها ذكر ماضيه وماضيها ورق لابنها وعطف على الفتاة ، وسألها ماذا تريد ، فتنبئه بأنها

اقتصدت وأن لديها ١٠٠٠٠٠ فرنك تريد أن تثمرها وهى تأتمنه على هذا المقدار لأنه يعمل فى المصارف . صاحبنا سعيد بهذا ؛ لأن هذا المال سيصلح من أمره وسيرد إليه ثقة الناس به ، فهو مغتبط ، وصاحبته هذه كلفة به ، فهى تعرض عليه حبها وتعزيتها ، وما أسرع ما يطمئن إليها الفتى فيقضيان الليل معاً ! . . .

***

فإذا كان الفصل الثالث أصبح الفتى فلم يجد صاحبته ، فيفترض أنها خرجت . وهو سعيد لأنه سيصلح من أمره المالى سيبقى فى باريس وسيستأنف عمله . ولكن الروسية تقبل مغضبة ، فتزعم له أنها بينما كانت منتظرة حين ذهب ليأتى بالطعام دخلت امرأة اسمها « أناتريبييه » وعرفت هى أن هذه المرأة صاحبته فانصرفت مغضبة . يجتهد صاحبنا فى إقناعها بأن هذه المرأة ليست صاحبته الآن ، وإنما عرفها قديماً حين كان فى الجيش وهجرها منذ أعوام طوال ، وقد أقبلت إليه لحاجة ! :

ولكنك قضيت الليل معها ! . . . وما تزال به حتى يعترف ، ولكنه إنما قضى الليل معها فرقت له وواسته ثم عرضت نفسها عليه . ثم لا تزال به صاحبته حتى تكرهه على أن يصف

لها ليلته وصفاً مفصلا فيفعل . . . ولكنه يكذب كثيراً ، فيصف نفسه بالبراءة ، ويصف صاحبته بالمكر والخديعة . وقد لا يكتفى بذلك فيذم جسم صاحبته ذماً يغضب هذه المرأة لأنها هى بعينها . حتى إذا أتم لها وصف الليلة أظهرت عفوها عنه وسماحها له ولكنها تطلب إليه ١٠٠٠٠٠ فرنك لأنها محتاجة إلى هذا المقدار احتياجاً شديداً ، ولأنها إذا لم تظفر به فستضطر إلى أن تبيع خاتماً فى يدها وهى حريصة على هذا الخاتم . يعتذر فتلح ، فيعترف بفقره و إفلاسه ، فلا تصدقه ، ثم تعمد إلى خزانته فتفتحها وتبحث فيها فإذا المال الذى أودعته « أنا » . تحصيه وتريده فيأبى ، وينبئها أنه لا يملك هذا المال ولا يستطيع أن يعرضه ، ولكنها تلح وتنذر وتعلن أنها ستسلم نفسها إلى شريكه القديم ، وما تزال به حتى يفقد صوابه فيدفع إليها المال فتنصرف فرحة .

أما هو فتعس محزون ، لأنه أضاع ما لا يملك ، وأضاعه فى شهوة دنيئة ، ليرضى امرأة ، يشتهيها ولا يحبها ، بل هو يمقتها لأنها تعبث به وتسخر منه . وهو فى حزنه إذ تقبل « أنا » فرحة مبتهجة وقد حملت إليه متاعاً ، ونظرت فى شئونه ، فهى تريد أن تصلح الفاسد منها ، هى فرحة مبتهجة وهو تعس

حزين . وقد أحضرت صحيفة مالية ، فيسألها ما هذه الصحيفة ؟ أحضرتها لنبحث معاً عن أحسن مورد نستغل فيه مائة ألف الفرنك . ما رأيك فى مناجم الذهب ؟ يعترف لها بجريمته فتبكى ويبكى ، ثم يريد أن يصلح ما أفسد فيعرض عليها أن يتخذها زوجاً لأنه عرفها فقيرة ثم هجرها ، ثم عرفها غنية فأضاع ثروتها وهو فقير فيستطيعان أن يقترنا وسيحبها وسيفى لها . أما هى فتظهر الشك ثم تمتحنه فتسأله أعندك رسائل لهذه المرأة ؟ نعم ! إذن فهاتها واحرقها . . . يتردد ثم يستطيع أن يحضر هذه الرسائل فإذا عاد أنبأته بأن هذه المرأة تحدثت فى التليفون فقالت إنها تنتظره نصف الليل . فلا يكاد يسمع هذا الحديث حتى يجن جنونه فينسى كل شىء إلا هذه المرأة وميعادها وتحذره هى وتنهاه أن يذهب .

***

فإذا كان الفصل الرابع فنحن فى بيت هذه المرأة الروسية بل فى غرفة نومها . وهى تتحدث إلى نفسها و بين يديها رسالة تنظر فيها . كتبت هذه الرسالة منذ أعوام إلى « أنا » فى لونيفيل وكاتبها هذا الفتى « بييررولون » يعلن فيها القطيعة إلى صاحبته .

تتحدث إلى نفسها بأن هذا الفتى إن لم يردها فقد تاب وصلح أمره فهو إذن يحبها وهى إذن تستطيع أن تظهر له حقيقة أمرها وأن تقترن به وأن تسعد بالحياة معه لأنها تحبه إلى غير حد ، وهى تتكلف ما يتكلف ويؤلمها ما يؤلمه ، لأنها تحبه وتريد أن يحبها . وهى الآن أمام مسألة دقيقة أى المرأتين يحب ؟ أيحب هذه المرأة القاسية اللعوب أم يحب تلك المرأة الهادئة الصريحة ؟ أيحب الرحمة أم يحب العنف ؟ أيحب الشرف أم يحب الإثم ؟ إن لم يأت فسأسعد بالحياة معه ، فإن أتى فهى تضمر فى نفسها أموراً عظاماً تفهمها من حديثها إلى الخادم ، فهى تذكر لها صوت المسدس ، وأنها قد تسمعه وأنها قد تدعو الطبيب . وهى إذ يدق الجرس . إذن فقد أقبل ، إذن فهو لا يحب الرحمة ولا الشرف ، وإنما يضحى بهما فى سبيل القسوة والإثم . يدخل فإذا هى فى سريرها فيهجم عليها فتتلقاه عابثة مقطبة ولكنها مقصية . ثم يكون بينهما حديث فتشترط عليه ليظفر بما يريد أن يقطع ، بينه وبين « أنا » فيقبل ! إذن فاكتب الآن إليها رسالة القطيعة . يريد أن يؤجل فتأبى . يمانع فتلح وتأمره أن يجلس ويكتب ما تملى عليه نص الرسالة التى كانت تنظر فيها أول

هــذا الفصل والتى كتبها منــذ أعوام طوال إلى « أنا » حين هجرها فى « لونيقيل » .

يكتب كارها ولكنه لا يكاد يتوسط الرسالة حتى يكف عن الكتابة . تأمره فيأبى . ثم يشتد بينهما الخصام ، فإذا هو قد أطلق عليها المسدس ولكنه قد أخطأها !

إذن فقد كنت تريد أن تقتلنى !

نعم !

فى سبيل « أنّا » ! ؟

نعم ! ثم يعترف لها بأنه لا يحبها وإنما يشتهيها عناداً ويريد أن ينتقم لنفسه من هذ العبث الطويل . أما حبه فمقصور على « أنّا » ثم يريد أن ينصرف ولكنها تدعوه . إذن فتعال ! يلتفت فإذا « أنّا » أمامه ! من أنت أكنت اثنتين ؟ من أنت ؟ أأنت « أنّا » ؟ أأنت إيرين ؟ من أنت ؟ فتجيبه : أنا « أنا » التى تحبك ، وأنّا « ايرين » التى تفتنك ! يجيبها إنى لأحبك « أنّا » وإنى لأحبك إيرين ! .

ديسمبر سنة ١٩٢٤

الحـــارسة

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « بيير فروندى »

أريد اليوم أن أحدثك عن قصة اُختلفت فيها آراء النقاد اختلافاً عظيماً ؛ فمنهم من أكبرها حتى كاد يقرنها إلى آيات الفن فى القرن السابع عشر . ومنهم من أصغرها حتى أشفق منها على صاحبها . بل إن الاختلاف فى أمر هذه القصة لم يقتصر على النقاد وحدهم ، بل تجاوزهم إلى الجمهور . ويمكن أن يقال إن هذه القصة أخفقت أمام الجمهور ، فلم تمثل إلا مرات قليلة آخر السنة الماضية . بل نستطيع أن نقول إن الخلاف تجاوز النقاد والجمهور إلى الممثلين أنفسهم ، فقد وقع الخلاف فى أمور تفصيلية من هذه القصة بين السيدة سيمون التى كانت تلعب دور البطلة وبين الكاتب نفسه ؛ فألغت الممثلة أثناء التمثيل مناظر وحذفت جملاً طوالاً ، وحرص الكاتب على هذه المناظر وهذه الجمل عند

ما نشر قصته . وفى الحق أن كل هذا الخلاف يفهم إذا قرأت القصة بإمعان وتدبر . فقد أراد الكاتب أن يجمع فى قصته بين مذهبين مختلفين من مذاهب التمثيل ، أو قل بين مذاهب مختلفة فى التمثيل . أراد أن يتأثر بما رسم ارستطاليس من مناهج « التراجيديا » ، وأن يتأثر أيضاً بما رسم القرن السابع عشر من هذه المناهج . ثم أراد مع ذلك أن يكون ملائماً للعصر الذى يعيش فيه والذوق الذى يحيط به ، وأن يكون متأثراً بالحوادث التى خضعت لها الإنسانية فى هذه الأعوام الأخيرة . ثم أراد مع هذا وذاك ألا تكون قصته خالصة لأحد المذهبين أو خالصة لهما معاً ، و إنما حرص على أن تكون قصته فلسفية ، فيها فكرة أساسية تقوم عليها وتنتهى إلى ما تنتهى إليه من النتائج . و إذن فهو أراد أن تكون قصته ساذجة سهلة على نحو قصص القدماء ، مركبة معقدة على نحو قصص المحْدَثين ، وفلسفية غنية بالآراء على نحو ما كتب « فرنسوا دى كوريل » . ومن الواضح أن التوفيق بين هذه المذاهب المختلفة ، والجمع بين هذه الأنحاء المتباينة ، ليس بالأمر الهين ولا اليسير .

لست أدرى بم كان يشعر النظارة الذين شهدوا تمثيل

هذه القصة فى باريس ! ولكنى أعلم أنك إذا قرأت هذه القصة شعرت بأشياء مختلفة ، وشعرت بهذه الأشياء المختلفة بانتقالك من فصل إلى فصل . فإذا قرأت الفصل الأول أعجبتك اللغة وراقك الأسلوب الكتابى وما فيه من دقة ومهارة ، ولكنك تحس شيئاً من البطء والفتور ، وتتمنى لو انتهى هذا الفصل لتعلم ماذا يريد الكاتب أن يقول وماذا يريد أن يفعل . ثم إذا انتهى هذا الفصل لم تتبين شيئاً ، أو تبينت شيئاً ولكنه غير ما أراد الكاتب ، أو لمحت ما أراد الكاتب لمحا دون أن تتبينه أو تستيقنه . فأنت مشوق كل الشوق إلى الفصل الثانى ، وأنت فى الوقت نفسه مشفق كل الإشفاق أن تكون قراءة الفصل الثانى كقراءة الفصل الأول لا تخلو من شعور بالبطء ومن إحساس بالملل ، ولكنك لا تكاد تقرأ هذا الفصل الثانى حتى يأخذك دهش ليس بعده دهش ، لأنك تشهد تغيراً عظيماً فى موقف الأشخاص وسيرتهم ، تغيراً كنت تتوهمه فى الفصل الأول ، ولكنك كنت تستبعده الاستبعاد كله ، فإذا وقع لم تستطع أن تقول أنه سيء وإنما اضطررت إلى أن تقف موقف الدهش الحائر . فإذا قرأت الفصل الثالث فلا حد لما تشعر به من خوف وإشفاق ، ثم لا حد لما تشعر به من ألم

ويأس . فإذا انتهيت من قراءة هذا الفصل لم تشك فى أن القصة تستطيع أن تنتهى بانتهائه ، وأنها إن وقفت عند هذا الحد فقد حققت ما كان يريد أرسطاليس والممثلون القدماء من اليونان وممثلو القرن السابع عشر من الفرنسيين حين يذكرون « التراجيديا » أو يعمدون إليها . ولكن القصة لا تنتهى ، وإنما هناك فصل رابع هو أقوى وأشد عنفاً من الفصل الثالث ، وهو أدق وأبعد أثراً فى التحليل ، وهو فى الوقت نفسه يجمع بين مذهب القدماء ومذهب المُحدَثين من فلاسفة الكتاب التمثيليين . حتى إذا أتممت قراءة هذه القصة استيقنت أنها قوية عنيفة ، ولكنك تحس مع هذا اليقين أن شيئاً ينقص هذه القصة لا تدرى ما هو ، وأن هذه القصة على جمالها وقوتها وقدرتها على أن تؤثر فى نفسك أعظم تأثير وتثير فيها الجهاد بين طائفة من العواطف العنيفة لم تلائم هواك ، ولم ترضك كل الرضا . ولكنى قد قطعت بك كل الطريق التى قطعتها القصة دون أن أنبئك من أمرها بشىء . فلأَبدأ فى تحليلها ، فسيكون هذا التحليل دليلاً صادقاً على ما قدمت .

* * *

« أودلف دى كوبورج » أمير شاب ، فيه ما فى الشباب

والأمراء من ضعف وطمع ، ومن استراحة إلى الأمل وإشفاق من الجهد ، من حب للهو وحرص على الاستمتاع بالحياة وكلف باسترداد الحق الضائع على أن يرده إليه غيره ، وعلى ألا يكلفه ذلك عناء . وهو ضحية من ضحايا الحرب ؛ فقد مملكته فى ثورة من هذه الثورات التى بدلت أمور أوربا الشرقية . فهو منفى ، يقيم فى سويسرا مع أخته « ماريابيا » وهى أميرة شابة ، ولكنها تخالف أخاها الخلاف كله ، فهى تظهر قوية أبية شديدة الإيمان بحقها ، شديدة الحرص على أن تسترد هذا الحق . وقد انصرفت إلى العمل لاسترداد الملك الضائع ، فهى تدبر وتأتمر ، وقد شغلها التدبير والائتمار عن جمالها وقلبها وأهوائها وعن الحياة وما فيها من لذة ، فانصرفت إلى ذلك ، وانصرفت معه إلى الدين والتقوى ، وشاع ذلك عنها حتى فتن بها أهل مملكتها فأجلّوها إجلالاً عظيما ولقّبوها بالقدّيسة . ويعيش معها ومع أخيها مرب لهما من رجال الدين هو أسقف « فرتنبرج » . وهو مثال هؤلاء الأساقفة الذين يجمعون بين الدين والسياسة ، فهم يمثلون الله فى الأرض ولكنهم يمثلون حقوق الملك أيضاً . وهم لا يتصورون الفرق بين حقوق الله وحقوق الملك ، بل هم يؤمنون بهذه الحقوق جميعها إيماناً واحداً ،

وهم مهرة فى فهم هذه الحقوق ، يؤلفون بين متناقضاتها ، ويوفقون بين متبايناتها ، ويجدون الحل لكل شكل منها . فهم يجدون للملوك وسيلة يجمعون بها بين رضا الله ورضا لذاتهم وشهواتهم . وهم قادرون على الائتمار وما يتصل به من الكيد والدس

* * *

فإذا كان الفصل الأول رأيت الأمير الشاب جاثيا بين يدى الأسقف يعترف ويستغفر الله خطاياه ، ثم يغفر له الأسقف باسم الله ويحثه على رغم هذه التوبة على أن يظهر هذا المساء فى مرقص سيكون لهوا كله . ويجرى بينهما حديث قصير ، تشعر منه بأن الأسقف يعمل فى رد الملك إلى الأمير ، وأن الأمير يريد ذلك ويرجوه ولكن أمله ضعيف . ثم يدخل عليهما رجل قد اتخذ صورة الكناديين وأسماءهم ، وما هو فى الحقيقة إلا ضابط من ضباط الأمير قد أقبل إلى سويسرا ليتم المؤامرة بعد أن أحسن لها التمهيد فى أرض المملكة . واسم هذا الضابط « ميشيل زوريس » . وهو شاب جميل الطلعة ، حسن الخلق ، قوىّ الإرادة ، لا يعنى بالتفكير وإنما يعنى بالعمل والمضى فيه ، وهو شجاع قد امتحنته الحرب فأحسنت امتحانه ، وقد خلص

أميره مرة من مخالب الموت . وهو معجب بالأميرة أو قل إنه مفتون بها ، لأنه رآها فى صباه فأحبها ، ولكنه كتم هذا الحب لأنه يائس من الفوز . فتدخل الأميرة فيقدّم إليها هذا الشاب ، فتحس أن الأميرة تعجب به . ثم تدخل طائفة من الصحفيين يريدون أن يتحدثوا إلى الأمير والأميرة وقد استعدا لهـذا الحديث . فأما الأمير فقد تكلف اللهو والعبث حتى لا يحس أحد أنه يريد استرجاع ملـكه وقد أتقن هذا التكاف . أما الأميرة فلم تتكاف شيئاً ، وإنما ظهرت بطبيعتها ميالة كل الميل إلى أن تسترد الملك وتنتقم لأبيها وتجلس أخاها على العرش . فإذا انصرف الصحفيون وخلا الشاب الضابط إلى الأميرة لحظة أحسست أنه يتحبب إليها وأنها لا تكره منه ذلك . ثم ينصرف كل هؤلاء الناس ، وتخلو الأميرة إلى نفسهـــا تريد أن تعمل استعداداً لحادث قريب سيرد الملك إلى أهله ، ولـكنها لا تجد من نفسها ميلاً إلى العمل وإنما هى متأثرة تأثراً غريباً ، وتذهب إلى كتاب تريد أن تقرأ فيه فلا تستطيع أن تقرأ . تذهب إلى الموسيقى فلا تستطيع أن تُوقِع . هى ثائرة مضطربة لأن شيئاً غريباً قد ملك عليها أمرها .

* * *

فإذا كان الفصل الثانى فأنت فى البيت الذى يقيم فيه الضابط منذ أشهر ، وقد أعدت فى هذا البيت أسباب اللهو وأدواته من شراب وطعام وزهر . ثم يدخل الضابط ويتبعه الأسقف ، فتشعر من الحديث بينهما أن الضابط قد اعتزم السفر فجأة ، وأن الأسقف يريد أن يثنيه عن هـذا السفر . فإذا استمر الحديث عرفت أن هذا الضابط إنما يريد السفر لأنه يحب الأميرة ، وهو يعلم أن هذا الحب عقيم ، ويشعر أنه يهين الأميرة بهذا الحب ، وقد حاول أن يكتم هذا الحب وأن يقتله فلم يوفق ، وإذن فهو يريد أن يفارق الأميرة أبداً . يحاول الأسقف صرفه عن السفر ثم عن الحب فلا يوفق ، فيحاول أن يقنعه بأن الواجب عليه إنما هو أن يعمل لمن يحب وأن يكتم هـذا الحب ويضحى به فى سبيل الواجب ، ولكن الضابط كما قدمنا لا يحب التفكير ولا الفلسفة ، وإنما هو رجل عمل ، وليس له فى الحياة غاية إلا أن يحارب ، ويحب ، وهو لا يعرف الحب العذرى ولا يطمئن إليه ، وإنما للحب عنده نتائج لا بد أن ينتهى إليها . وإذ كان يائساً من هذه النتائج فهو يريد أن

يسلى عن نفسه بالسفر . ينصرف الأسقف ويبقى الضابط لحظة مضطرباً ثم يقبل عليه قوم دعاهم للهو ، وفيه نساء ورجال ومن بينهم امرأة مغنية اسمها « مارت سوريكى » قد أحبها الضابط حباً يسليه عن حبه الآخر ؛ لأنه ينسيه باللهو واللذة ما يجد من ألم ووحشة . يتحدثون ويمزحون وينصرفون إلى المائدة . ولكن جرس التليفون يدق ، فلا يكاد الضابط يتحدث فى التليفون قليلا حتى يضطرب ويدعو خادمه فيعلن إليه أنه سيصرف من عنده من الناس ، وأن زائراً سيأتى ، فعليه أن يدخله دون أن يسأله عن اسمه ودون أن يدخل بعده أحداً . ثم يذهب فيصرف أصحابه معتذراً إليهم وينتظر ، فإذا الأميرة قد أقبلت ، وإذا هى مضطربة اضطراباً شديداً لا تستطيع معه أن تقف دون أن تعتمد على شىء . فإذا جلست وقف الضابط بين يديها كما يقف الرعية بين يدى مولاه . وتكلف أن يسألها عن مصدر هذه الزيارة الغريبة فلا يجد منها إلا اضطراباً وتردداً ، ثم تنبئه بأنها كانت تريد أن تقول له شيئاً كثيراً ولكنها نسيت كل ما كانت تريد ، وأنها عرفت أنه اعتزم السفر فأقبلت لتراه قبل أن يسافر ، ثم ينتهى بهما هذا الحديث المضطرب إلى ما لم

يكن بد من أن ينتهى إليه ؛ لأن الأميرة تحب هذا الضابط كما يحبها ، وقد كتمت هذا الحب ما استطاعت . فلما علمت أنه مسافر لم تستطع صبراً ، فأقبلت إليه ونسيت منزلتها وآمالها ومطامعها وسمعتها ، ولم تفكر إلا فى الحب . فإذا صرحت له بذلك كانت كأنها قد خلعت كل عذار وقد تجردت من شخصيتها الأولى ، فلم تصبح أميرة ولا قديسة ، و إنما أصبحت امرأة تملكها العاطفة وتستأثر بها الحاجة إلى اللذة . وهى بين ذراعى حبيبها فانية ، تناجيه مناجاة حلوة هادئة حيناً ، ثم مرة عنيفة حيناً آخر . وقد سحر الحبيبان فنسيا من حولهما كل شىء ، ثم يستيقظان فإذا هى تريد أن تعود ، و إذا هو يأبى عليها هذه العودة . ولم تكن الأميرة قد فكرت فى نتائج زيارتها هـذه ، ولم تكن قد أرادت إلا أن ترى صاحبها ، ولـكنها الآن تشعر بأنها لن تستطيع أن تعود ، فما أسرع ما يحملها صاحبها بين ذراعيه .

ذلك أن هذه المرأة التى كانت منصرفة إلى الملك والدين قد جاهدت جهـاداً عنيفاً فى إنكار نفسها وعواطفها وفى الانصراف إلى الزهد والتقوى ، وكان الناس من حولها قد

أحسوا منها ذلك فقدّسوها ، فلم توجه إليها كلمة حب ولا نظرة غرام . ولكنها لم تكد ترى هذا الضابط حتى تنبهت فيها تلك العواطف المكظومة كظما عنيفاً فانفجرت انفجاراً عنيفاً .

☆ ☆ ☆

فاذا كان الفصل الثالث فقد انتهى الحب إلى نتائجه بين هذين العاشقين ، ولكنه ظل أمراً مكتوماً لا يكاد يعلم به أحد إلا أثنان : أحدهما تلك المرأة المغنية التى تركت سويسرا ثم عادت إليها لا مغنية فحسب بل مغنية وجاسوسة أيضاً ، وهى تحب هذا الضابط . فما زالت به حتى خدعته واضطرته إليها مرات واسترقت سره كله ، فعرفت مكانه من الأميرة ومن الأمير . والثانى رجل عدو للأمير وملكه ، وقد أوفد إلى سويسرا ليتتبع الأمير ويخلص منه الدولة . وقد اتفق هذان الشخصان ، فتراهما فى أول الفصل يعملان معاً فى بيت الضابط يفتشان أدراجه ويفحصان أوراقه ويسخران من الأميرة القديسة ويتحدثان بقتل الأمير ، ثم ينظر الرجل من النافذة فإذا الضابط مقبلا فيرتاع ويطلب إلى المرأة أن تخفيه ، فتضطره المرأة إلى مخبأ يلجأ إليه ويدخل الضابط فينكر مكان هذه المرأة ، ولكنها

تلاطفه وتعرض نفسها عليه ، فينصرف ويأبى لأنه مشغول الليلة ولأنه ينتظر الأمير ، فتلح المرأة فى أن ترى الأمير ، وتنتظر حتى يأتى الأمير ثم تنصرف . ويتحدث الأمير إلى ضابطه ، فاذا ائتمارهما قد نجح ، وإذا هما يريدان أن يسافرا الليلة فى طيارة إلى حيث ينتظرهما أنصارهما وقد أعلنت الثورة فى المملكة وتم الأمر على ما كانا يريدان . وتأتى الأميرة فيتحدثون فى هذا وهم سعداء مغتبطون ثم ينصرف الأمير حيناً ليغير ثيابه ويتنكر فينتهز العاشقان هذه الفرصة ليتحدثا فى الحب ، فتتبين أنهما قد اعتزما الزواج بعد أن يتم رد الملك الى الأمير . ولكنهما يريدان أن يخلوا لحظة قبل هذا السفر الذى سيكون بعد ساعتين فيدبران بهذه الخلوة أمرهما ويتفقان على أن ينتظرا الأمير ، حتى إذا أقبل انصرف الضابط لحاجة ، ثم تنصرف الأميرة بعده بقليل ثم تعترف الأميرة لأخيها بكل ما كان بينها وبين صاحبها ، فلا يسع الأمير إلا أن يغتبط بذلك ، ويعد بأنه سيعرف لهذا الضابط حقه . ولكن الأميرة تطلب إليه أن يأذن لهما بالزواج وبالمعيشة الهادئة بعيداً عن الملك ومناصبه . ثم تستأذن أخاها فى الغيبة حيناً فيفهم ويأذن لها كارهاً لأنه مشفق من الوحدة .

فاذا خلا الأمير إلى نفسه اضطرب خوفاً وتردد فى الغرفة قليلاً ثم يشتد اضطرابه فيحاول أن يخرج ليمشى فى الشارع حيناً ، ولا يكاد يخرج حتى يظهر الرجل من مخبئه و يقبل إلى النافذة و يطلق مسدسه على الأمير فاذا هو قتيل

☆ ☆ ☆

إلى هنا يمكن أن تنتهى القصة فقـد استوفيت كل الشرائط اللازمـة لتكوين قصة قوية لذيذة ، وانتهت هذه الشرائط إلى نتيجتها العملية والفلسفية ، فقتل الأمير وقتل حين كان يستعد لاسترجاع عرشه ، قتل فى الساعة التى تحقق فيها أمله وذهبت مساعيه ومساعى أخته ومساعى الأسقف هباء . ثم قتل الأمير وكان مصدر قتله هذا الحب الذى وصل بين أخته و بين الضابط . فلولا أن هذين العاشقين حرصا على أن يخلوا لحظة قبل السفر لما وجد الأمير منفرداً ، ولما استطاع هذا القاتل أن يظهر من مخبئه . و إذن فهذه الأميرة التى انفقت من القوة والجهد شيئاً كثيراً لتجعل أخاها ملكا هى التى قتلت أخاها لا لشىء إلا لأنها سمحت لنفسها بأن تعيش كما يعيش الناس ، و بأن تحب كما يحب الناس . فأنت ترى أن هذا التصور أشبه

لأشياء بما كان يتصور للقدماء اليونان فى قصصهم التمثيلية المحزنة . ولكن القصة لم تنته بعد ، وهى لم تنته لأن الكاتب لا يكتفى بما وصل إليه من الحوادث . وإنما يريد أن يصل إلى أكثر من هذا ، يريد أن يصل إلى نتائج هذه الحوادث . على أننا نحن الذين يعلمون إلى الآن بمقتل الأمير ومصدرَه . أما أخته والضابط فيسمعان حين يعودان أن الأمير قد قتل ، ولكنهما سيجهلان مصدر هذ القتل ، ولا بد من أن يعلماه ؛ وهذا هو موضوع الفصل الرابع .

***

فإذا ابتدأ هذا الفصل فنحن فى إيطاليا لا فى سويسرا ، ونحن فى مدينة « فينز » وقد جلست الأميرة إلى أسقفها وهما يتحدثان وفى صوت الأميرة نبرات الحزن والأسى . ولكن هذا الحديث غريب ؛ فنحن نفهم منه أن الأميرة قد يئست من كل شىء ، فهى لا تطالب بملك ولا تطمع فيه ، وهى لا تفكر فى أن تثأر لأخيها ، وإنما انصرفت عن كل شىء إلا عن شىء واحد وهو حبها . ذلك أن صاحبها الضابط الذى كان يظهر لها قبل المحنة حباً لا يعدله حب ولكنه حب شهوة وحرص

على اللذة ، قد استطاع بعد المحنة أن يظهر لها حباً لا يعدله حب ، ولكنه حب رحمة وعطف وإشفاق . فهو لا يطمع إلا فى شىء واحد هو أن يعزيها ويهوّن عليها احتمال الحياة . وقد أثر هذا فى نفس الأميرة ، فعرفت أنها تستطيع أن تعتمد أيام المحنة على صديق لذتها أيام السعادة ، فاعتزمت أن تترك كل شىء وكل إنسان لتعيش مع صاحبها هذا بعيدين عن أوربا وما فيها ومما يذكرهما الآلام والآمال . وهما يريدان أن يهاجرا إلى أميركا . أما الأسقف فبذل ما يستطيع من قوة ليقنع الأميرة بالعدول عن هذا الجنون ولكنها لا تسمع له . فإذا طال الحديث بينهما رأيت أن هذه الأميرة القديسة لم تكتف باليأس من كل شىء ، بل تجاوزت ذلك فجحدت الدين فهى لا تؤمن بالله . وكيف تؤمن به وقد اضطرها إلى هذه المظلمة الفادحة ففتح لها باب الأمل واللذة لحظة قصيرة ريثما تذوقهما وتحرص عليهما ثم أسرع فأغلق أمامها هذا الباب ! هى لا تؤمن بالله لأنه لو وُجِد لكان أعدل من هذا . وإذا ذكر لها الأسقف ضابطها أجابت بأن وجود هذا الضابط ورحمته لها وبره بها آكد وأثبت من وجود الله ورحمته وبره ! . يئس منها الأسقف وأراد

أن يودعها ، فينبئها بأنه سيقيم فى روما أشهراً ، وأنه مستعد لإجابتها متى دعته . ثم يلقى إليها فى خفة أنها لو بحثت قليلاً لتعرفت السبب فى مقتل أخيها ، لأنه بحث فعرف أن هناك جاسوسة مغنية ترددت إلى المدينة التى كانوا يقيمون فيها فى سويسرا ، وأن هذه الجاسوسة كانت تعرف الضابط . ينصرف ، ويدخل الضابط فيتحدثان فى سفرهما وما ينتظر كل منهما من صاحبه من مودة وعطف وحنان ، ويتعزيان عن فقرهما وآلامهما ولكنهما يذكران القتل ، فتقص على صاحبها ما سمعت من الأسقف ، فلا يكاد هذا الضابط يسمع ذكر المرأة المغنية التى ترددت على سويسرا حتى يذكرها ، ثم لا يكاد يفكر حتى يبدو له الأمر واضحاً جلياً ولكنه فظيع منكر : أما الأميرة فكانت تفترض أن هذه الجاسوسة كانت صديقة أخيها فإذا الضابط ينبئها بأنها لم تكن صديقة الأمير وإنما كانت صديقته هو . نعم ! كانت صديقتى فأنا الذى قتلت الأمير ! إذن فقد ارتكب إثمين : قتل ملكه وخان عشيقته : وهو يعترف بهذا كله فى صوت المروّع الذى فقد رشده أو كاد ، وهو يعترف على نفسه بهاتين الجريمتين وبجرائم أخرى ؛ فقد كان مقتل الأمير مصدراً لنكبات ألمت

بأنصاره الذين أعلنوا الثورة ففقد الحياة خلق كثير، وفقد الحرية خلق أكثر. وهو مصدر هذا كله لأنه لها بجاسوسة، ولها بها خائناً عهد الحب. أما الأميرة فلا تسل عن روعها وغضبها حين تعلم هذا، فهى ساخطة على هذا الضابط تطرده، ثم تعمد إلى مسدس تريد أن تقتله فيكف يدها قائلاً: لا تفعلى فسأفعل ذلك أنا، ولكن كفى عن البكاء واجتهدى فى أن تعيشى وأن تكونى أقل شقاء منك الآن، ثم يحاول أن يتركها فإذا هى لا تزال متصلة به، لا تزال حريصة على حبه. ولكن ليس من سبيل إلى الحياة معه، فقد قتل أخاها، قتل الملك، وقد خانها ولم يخنها إلا حباً للاستطلاع، وإلا لأنه يحب المرأة من حيث هى امرأة. وإذن فليست هى بالقياس إليه إلا امرأة كغيرها من النساء! نعم! ما زالت تحبه وتوشك أن تعلن إليه ذلك. ولكن قتل الملك والخيانة أمامها يعقدان لسانها، فتمسك صاحبها قبل أن ينصرف، ولا تطلب إليه إلا شيئاً واحداً هو أن يصلى وأن يذكر الله ويؤمن بالدين. إذن فقد عادت هى إلى إيمانها. أما الضابط فقد أرسل يطلب الأسقف ثم انصرف، ولا يكاد ينصرف حتى يدخل الأسقف، فإذا الأميرة قد نال منها الذهول

فما تكاد تعى شيئاً ، والأسقف يبالغ فى تعزيتها فلا يصل إلى شىء : هلم ! تعالى ! إن أنصار الملك قريبون وهم يريدون أن يروك ، فاستجمعى قواك واظهرى لهم كما تعودت أن تظهرى . وهو يقول لها ذلك إذ يسمع طلق مسدس فتقول : هذا ميشيل يقتل نفسه . يجيبها الضابط : سأفعل ما يجب أن أفعل . ولكن تعالى واذكرى أنك تمثلين الملك ، فتتبعه ، وكأنها آلة تتحرك بلا إرادة .

فأنت ترى أن هذه القصة تجمع بين السذاجة والتعقيد ، وتجمع بين العمل والفلسفة ، وتجمع بين أساليب القدماء وأساليب المحدثين فى التمثيل . وما أحسب أنى فى حاجة إلى أن أطيل القول أو إلى أن أقول شيئاً فى تعليل ما شجر حولها من الخلاف بين النقاد

يناير ١٩٢٤

الأمير جان

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « شارل ميرى »

أما أنا فأعترف بأن هذه القصة لم تعجبنى ، ولو خيرت لتحدثت إليك هذا الأسبوع فى قصة أخرى . ولكن أمرين اضطرانى إلى أن أتحدث إليك فيها دون غيرها : الأول أنى أجتهد فى أن يلم قراء هذه الصحيفة لا بفن التمثيل من حيث هو فحسب ، بل بالحركة التمثيلية المعاصرة أيضاً ، أى أنى أريد أن يعلم قراء هذه الصحيفة شيئاً ولو قليلا من أمر القصص التمثيلية المستحدثة فى فرنسا فى هذا الفصل الذى تستحدث فيه القصص عادة . الثانى أنى قرأت من هذه القصص فى هذا الأسبوع الماضى طائفة لم تعجبنى وكانت هذه القصة التى ألخصها اليوم آخر ما قرأت . وهى لم تعجبنى أيضاً فكنت بين اثنتين : إما أن أعدل عن الكتابة هذا الأسبوع ، وإما أن أحدثك عن خير ما قرأت ، فآثرت الثانية . ولم أوثرها عبثاً ولا رغبة

فى الكتابة ، وإنما آثرتها لأن النقاد كادوا يجمعون على استحسانها والرضا عنها ، ولأن جمهور الفرنسيين فتن بها إلى غير حد ، حتى أن بعض النقاد تنبأ بأنها ستمثل مائتى مرة ، ومع ذلك لم تعجبنى . لم تعجبنى لأنى حين أقرأ قصة تمثيلية إنما أبحث فيها عن فكرة أو رأى أو مسألة فلسفية أو خلقية أو اجتماعية . فأنا لا أقرأ قصص التمثيل من حيث هى قصص وإنما أقرؤها من حيث هى غنية بما يغذو العقل أو يغذو الشعور أو يغذوهما معاً . ولا أكاد أتصور الفن الأدبى منفصلا عن اللذة العقلية الفلسفية ، فأنا أكلف بنوع خاص بقصص التمثيل ، وليست هذه القصة التى ألخصها اليوم من هذه القصص . فهى لا تقصد إلى إثبات فكرة بعينها ولا إلى تحقيق نظرية من نظريات الاجتماع والفلسفة والأخلاق ، وإنما هى تقصد إلى شىء آخر : تقصد إلى إلهاء الجمهور والتأثير فيه دون أن يكون هذا اللهو مناقضاً لما ألف الناس من أخلاق وعادات ومن نظم وأساليب للحياة . هى قصة يراد بها القصص لا أكثر ولا أقل . ويظهر أن هذا مصدر فوزها وكلف الجمهور بها ؛ فإن الجمهور يريد أن يلهو وأن ينفق فى ملعب التمثيل جزءاً من

وقته يخضع فيه لطائفة من المؤثرات القوية ، فيحس فيه اللذة القوية مرة والألم القوى مرة أخرى ، يستشعر فيه الخوف حيناً والرجاء حيناً آخر ، وهو لا يكره فى بعض الأحيان أن يخلى بينه وبين اللذة والألم والخوف والرجاء دون أن يضطر إلى التفكير العقلى للحكم على قضية من القضايا أو تمحيص نظرية من النظريات . يريد الجمهور فى بعض الأحيان أن يكون طفلا يلهو بالقصص والأحاديث لأنها قصص وأحاديث لا لأنها تفسر مذهباً من مذاهب الفلسفة أو تشرح رأياً من آراء العلماء فى الاجتماع . وفى هذا النحو من القصص يعتمد الكاتب على الخيال وحده ، ويطلق لنفسه من الحرية ما لا يملك لو أنه تقيد برأى أو نظرية . وهو بهذه الحرية نفسها أقدر على أن يلهى الجمهور ويلذه . وهذا ما يقصد إليه كاتبنا الذى نتحدث عنه اليوم فى طائفة غير قليلة من قصصه ، فهو أشبه بالذين يضعون قصص التمثيل أو يلعبونها للسينماتوغراف ، فلا ينبغى أن نقارب بينه وبين « فرنسوا دى كوريل » أو « هنرى بتايل » أو « هنرى فدان » أو « برنستين » . وإنما ينبغى أن نقارن بينه وبين كاتب آخر فتن به الجمهور الفرنسى حينـــاً وهو

« ساردو » . ومن غريب أمر هذا الكاتب أنه يجتهد فى أن يوفق بين خياله و بين حياته ، أو بعبارة أصح يجتهد فى أن يحقق خياله ، فهو يتخيل موضوعه ، ويخلق أشخاصه ، وينظم قصته ، ولكنه لا يبدأ فى الكتابة حتى يمثل بنفسه تمثيلا عملياً أهم أشخاصه وأجلهم خطرا ، ويجتهد فى أن ينشىء لنفسه الحوادث التى يريد أن يضيفها إلى شخص قصته أو إلى أشخاصها . فسترى فى قصة اليوم أن البطل شاب تكلف الأسفار ، واقتحم طائفة من الخطوب ، ونزل فى بيئات مختلفة متباينة . ويحدثنا بعض النقاد أن الكاتب بعد أن ابتكر هذا البطل تكلف أسفاراً ، واقتحم خطوباً ، ونزل فى بيئات مختلفة متباينة ، ثم بدأ فى كتابة قصته ، ثم دفعها إلى الممثلين ، فنالت ما نالت من الفوز .

* * *

فى مدينة بروكسل عاصمة بلجيكا أسرة غنية ممتازة ، لأنها من أسرة الأمراء ، هى أسرة « دا كسيل » ، تأتلف هذه الأسرة من زعيمها الشيخ وولده الثلاثة : جان ، وليوبولد ، وايزابيل . فاما أكبرهم وأحقهم بوراثة اللقب وزعامة الأسرة

مهوجان . وهو شاب ، قوى ، حسن الطلعة ، ولكنه مشغوف بالحركة والإسراف فيها ، فهو لا يستقر على حال ، وهو كلف باللهو وفنونه ، وبالعمل وضروبه ، فهو يندفع باللهو إلى غير حد ، ويتكلف طائفة من الأعمال يبدؤها فى نشاط وقوة ، ثم لا يلبث أن ينصرف عنها وقد أصابه الإخفاق أو ما هو شر من الإخفاق . وقد جرت عليه هذه الخصال طائفة من المحن ، فهو مقامر مسرف فى القمار ، يخسر كثيراً ولا يربح شيئاً ، وهو مع ذلك ملح فى اللعب . وقد بدأ طائفة من الأعمال فأخفق فيها ، وأضاع مقادير ضخمة من المال كان قد اقترضها أو اؤتمن عليها ، وأراد أن يكسب ما أضاع من الميسر فلم ينله التوفيق ، فبلغ به اليأس ذات ليلة أن حاول الغش ، وأخذ وهو يحاوله ، فافتضح أمره وضاع شرفه ، وأكره على أن يستقيل من النادى الذى كان يختلف إليه ، ولم يجد وسيلة للنجاة من السجن والفضيحة إلا أن يهرب ، فترك المدينة من ليلته ، وكان يحب فيها امرأة جميلة تحبه هى أيضاً ، وهى « كلير دارلون » . فلما نزلت به هذه النازلة استحيا أن يراها ، فهاجر دون أن يودعها وانقطعت أخباره عن أهله وحبيبته ومواطنيه ، حتى شاع فى الناس أنه

قد مات ، ودبرت أسرته أمرها على أنه قد مات ، فاجتهدت في إرضاء الدائنين . ولما مات أبوه ورث أخوه الأصغر لقب الإمارة وزعامة الأسرة وأخذ يتصرف في الأمر كما لو كان حراً لا يشاركه فيه شريك . ولكن « جان » هذا لم يمت ، وأسرته تعلم أنه لم يمت لأنها ترقبه وتتبعه بالعيون والجواسيس ، وهي حريصة كل الحرص على أن يعتقد الناس أنه قد مات أو أنه قد غاب غيبة منقطعة . وحقيقة أمره أنه هاجر إلى فرنسا ، فتطوع في فرقة الأجانب من الجيش ، ثم أعلنت الحرب الكبرى فاقتتل وجرح ونال وساماً ، ثم أرسل في فرقته إلى سلانيك ، ثم أرسل في فرقته أيضاً إلى أفريقيا الشمالية ، فاقتتل في مراكش وأصاب عناء كثيراً . وقد انتهت الحرب وأبلى في قمع ثورة من الثورات في مراكش بلاء حسناً ، ثم ردت إليه حريته فغادر الجيش . وقد اتخذ لنفسه اسماً غير اسمه الحقيقي فتسمى « لوسيان جيرو » .

٭ ٭ ٭

فإذا كان الفصل الأول من القصة فنحن في مرسيليا في فندق من فنادقها مشرف على البحر وفي قاعة هذا الفندق

رجال ونساء يلهون ويلعبون ينتظرون السفن التى ستقلهم إلى وجوه من السفر مختلفة . وهم كذلك إذ يدخل شاب غريب الأطوار ، تردد قبل الدخول ثم صحت عزيمته فدخل ، فتلقاه صاحب الفندق مبتسماً يسأله عما يريد ، فإذا الشاب كان قد نزل فى هذا الفندق منذ خمس سنين ثم سافر وترك فى الفندق متاعاً له ، وهو الآن يريد هذا المتاع . أما صاحب الفندق فيتردد ، لأنه لم يكن يملك الفندق حين نزل فيه هذا الشاب ، وإنما اشتراه منذ عهد قريب ، فلا يكاد ينبىء الشاب بذلك حتى يثور هذا الشاب فينذر ويهدد مرة بالعصا وأخرى بالمسدس ، فيضطرب صاحب الفندق ويجزع ويذهب للبحث عن هذه الأمتعة . أما الشاب فقد جلس إلى مائدة ودعا بأجود الشراب فقدم إليه فهو يشرب ، وما أسرع ما يتعرف إلى سيدات فيشاربهن ويداعبهن . ويأتى صاحب الفندق فينبئه بأنه قد وجد المتاع ، ولكن إحدى هذه الحقائب مفتوحة وقد فتحت بأمره . ثم يقدم إليه كتاباً أرسله هو إلى صاحبه أن يخلى بين الذين يحملون هذا الكتاب وبين متاعه يأخذون منه ما يشاءون ، فلا يكاد يظهر على الكتاب حتى

يثور ثائره ، ويعلن أن الكتاب مزور ، ويهدد بالقتل ويهدد بالشكوى إلى الشرطة ويهدد بشيء كثير . وهو كلما بلغ منه الغضب أقصاه استطاع بشيء من الجهد أن يملك نفسه ويعود إلى صوابه . أما من حوله من الناس فمضطربون يبلغ الخوف بهم أقصاه أحياناً ، ثم ينتهون إلى الضحك والإغراق فيه أحياناً أخرى ، ثم يتركهم هذا الشاب ويصعد إلى غرفة طلب أن تهيأ له . وإنهم ليتحدثون فى أمره بعد أن فارقهم إذ يدخل رجلان يظهر عليهما أنهما أقبلا من سفر بعيد فيسألان عن « لوسيان جيرو » . فإذا أجيبا أنه فى الفندق اطمأنا وجلسا ينتظرانه . يشك صاحب الفندق ومن معه فى أن الشاب لص وفى أن هذين الرجلين أقبلا يلتمسانه وهما من الشرطة . ثم يأتى الفتى ، فإذا لمح الرجلين اضطرب وجلس ناحية وأخفى وجهه فى صحيفة يتكلف قراءتها ، ولكنه لا يكاد يستقر حتى ينهض إليه أحد الرجلين فيدنو منه وصاحب الفندق ينظر هذا فى لذة وانتظار للحدث العظيم . فإذا بلغ الرجل الشابَّ حياه وانصرف عنه الشاب ورده رداً عنيفاً ، فيلح الرجل فى التحية والملاطفة ويلح

الشاب فى الكف والانصراف . ولكن الرجل يستطيع أن يكرهه على الكلام فيتحدثان ، فإذا هذا الرجل ليس شرطياً ، وإنما هو رجل من أهل بروكسل كلف مراقبة الشاب والاجتهاد فى منعه من العودة إلى المدينة ، وقد أقبل يعرض عليه بلسان أخيه أن يختار من بلاد الله ما شاء أن يقيم فيها ناعماً موفوراً تدر عليه الأرزاق في سعة وسخاء على ألا يعود إلى بروكسل لأن الناس فى بروكسل لا يشكون فى موته ، ولأن عودته إلى المدينة ستذكر الناس بما كان من آثامه ومخازيه ، فيضيع شرف الأسرة فى غير نفع ولا فائدة ، أما هو فلا ينتظره فى المدينة إلا السجن والعار . يسمع الفتى هذا كله مغضباً مرة ، مازحا مرة أخرى ، معلناً عزمه على العودة ولا سيما حين يعلم أن أباه قد مات وأنه يستطيع أن يرث اللقب وحظا ضخماً من الثروة . وإذن فليس ما يمنعه من أن يعود فيصبح أميراً ويؤدى دينه ويسترد مكانته وشرفه . ولكن أخاه قد ورث اللقب واقتسم الثروة مع أخته ، وهو لا يريد أن يعود هذا الغائب فيفسد عليه ما يستمتع به من نعيم .

وبلغ اليأس والاشمئزاز من نفس الشاب أن كره الحياة

وازدرى الأحياء وأسرته بنوع خاص ، فاقتنع بألا يعود ، ورفض ما يعرض عليه من رزق ، ولـكنه سأل صاحبه قبل انصرافه عن حبيبته ما خطبها ؟ فينبئه صاحبه بأنها سعيدة ناعمة البال ، يفارقها زوجها أكثر الأحيان لأعماله وقد اتخذت لها عشيقاً جديداً ، فهى تلقاه وتستقبله لا تخشى فى ذلك رقيباً ولا حسيباً ، وهو « البارون درانيم » . ينصرف الرجل وقد ألقى فى قلب الفتى هـذا النبأ ، فوقع منه موقع الجذوة من الهشيم ، فإذا نار الغيرة قد تأججت ، وإذا الاضطراب قد ملك على الفتي أمره ، فنسى كل شىء ، ولم يذكر إلا شيئاً واحداً وهو السفر إلى بروكسل ، ليرى حبيبته الخائنة ، ولينتقم من عشيقها الجديد .

* * *

فإذا كان الفصل الثانى فنحن فى مدينة بروكسل فى منزل هذه الحسناء « كلير دارلون » ، وقد أقبل المساء وهى تستقبل هذه الليلة . فإذا امرأة صديقة لها قد أقبلت قبل ميعاد الزيارة تريد أن تلقاها وتلح فى ذلك . ويذهب الخادم لينبئها ويدخل أثناء ذلك « درانيم » العشيق الجديد . فيكون بينه وبين هذه

المرأة حديث تفهم منه أنهما متباغضان ، ثم تقبل صاحبة البيت وينصرف الفتى فتتحدث إلى صديقتها فتنبئها هذه بعودة صاحبها القديم وبأنه يريد أن يراها . أما « كلير » فلا تكاد تسمع ذلك حتى تضطرب ويملكها الغضب ، وتذكر ما لقيت فى ذلك الحب القديم من ألم ، وتعلن أنها لا تريد أن ترى هذا الذى هجرها هجراً غير جميل ، فلم يسمع لها ولم يودعها ولم يكتب لها أثناء غيبته ، وهى لا تريد أن تستأنف الألم الذى لقيته . أما صاحبتها فتتعطفها وتترضاها ولكن فى غير نفع . فإذا يئست منها عمدت إلى التليفون تريد أن تأمر الفتى بألا يجىء ، فتمسكها صاحبتها . وإذن فهى تألم ، ولكنها ما زالت تحب ونفسها تواقة إلى أن ترى هذا الشاب . وهما فى هذا التردد إذ يقبل الزائرون جماعات وفيهم أخو الشاب وأخته وهما يطلبان إليها سراً ألا تستقبل هذا الفتى فى بيتها ؛ لأنها إن استقبلته حببت إليه المقام ، وإن أبت استقباله يئس من كل شىء وعاد أدراجه . فيتم عزمها على ألا تستقبله مخافة الفضيحة ، وتهم بأن تكلف صاحبتها إبلاغه ذلك ، ولكن صاحبتها تتلكأ وتتشاغل بالزائرين ، تتحدث إلى هذا وإلى ذاك . وفى أثناء

ذلك يخلو إلى الفتاة عاشقها الجديد ، فيتحدث إليها فى حبه . ويطلب إليها الوفاء ويلح فى ذلك ، فنفهم أن حبهما على قوته لم ينته إلى نتيجته ولم يتجاوز الأمانى والآمال . . . يلح الفتى وتجيبه المرأة فى ازدراء وإباء ولكن الفتى مشفق بعد أن علم بعودة العاشق القديم ، فهو ينذرها ويخوفها نتيجة الأصرار على الإباء . وبينما هى مترددة فى أمر صاحبها القديم أتلقاه أم ترده إذ يقبل هذا الصاحب ، فلا تكاد تراه حتى تضطرب ، ولا تكاد تتحدث إليه وتستمع له حتى يزول ترددها ، فإذا هى عشيقته كما كانت ، وإذا هو عشيقها كما كان ، وإذا هو قد اكتسب من هذا الفوز قوة يلقى بها ما سينزل به من المحن وما يدبر له أخوه وأصحابه من كيد . وهى تنصح له أن يكتفى الليلة بهذا اللقاء وأن ينصرف ، ولكنه أبى ويتردد ، وإذا القوم قد أقبلوا وفيهم أخوه وأخته فرأياه ، ولم يبق بد من أن يبقى ويثبت لأعدائه وخصومه . وفى هؤلاء الناس خال له يحبه حباً جما ويعطف عليه عطفاً شديداً ، فتكون بين الشاب وهؤلاء الناس على اختلافهم ضروب من الحوار المؤلم المر لا حاجة بنا إلى تفصيله ، وإنما نذكر منها حوارا بينه وبين أخيه . يدعوه أخوه إلى أن يستخفى فيأبى ، ويشتد الخصام بينهما

فيقول له أخوه كلاماً فيه تعريض بصحة نسبه لأبيه . فلا يكاد الفتى يسمع هذا التعريض حتى يشتد اللجاج بينه و بين أخيه ، و يكاد الأمر ينتهى بينهما الى الشر لولا أن يدخل بينهما خالهما فيصرفهما عما كادا يتورطان فيه . وتنتهى الليلة انتهاء سيئاً ، تنتهى بخصومة عنيفة بين هذا الشاب وخصمه العاشق الجديد .

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فقد مضت على هذه الليلة أيام ، وما زال الفتى مقيماً فى بروكسل ، وقد استأنف حبه القديم ، وأخذت أسرته وخصومه ودائنوه يكيدون له يريدون أن يقفوه بين يدى القضاء . ونحن فى بيت هذه الصديقة التى توسطت بين الفتى و بين صاحبته . ذلك أن هـذين العاشقين قد اتخذا بيت صديقتهما هذه مأوى لحبهما فهما يلتقيان فيه . فترى « كلير » قد أقبلت لموعدها فانصرفت صاحبة البيت ، وأخذت هذه تنتظر عاشقها ، و إذا بالباب يطرق ثم يفتح ويدخل عاشقها الجديد :

معذرة ! لقد زرتك غير مرة فأبيت استقبالى ولا بد من أن أراك وأتحدث اليك وقد ترقبتك حتى إذا خرجت من البيت تبعتك الى هذا المكان فلا بد أن تستمعى لى .

فإذا استمعت له أعاد عليها إلحاحه القديم ! . . . فرفضت مزدرية ، ولكنه ينذرها فهو يملك فى يده سلاحاً قوياً . فإذا تبينت أمر هذا السلاح أظهر لها كتباً كتبتها إلى عاشقها الأول وفيها ما يثبت أنه سارق ، وأنه مبدد لما لا يملك ، ثم ينبئها بأن هذه الكتب ستدفع الى القاضى ثم تنشر ، وهى تكفى لسجن الفتى ولتلويث اسمها واضطرار زوجها إلى الطلاق . وهو يطلب اليها شيئين : الأول لا بد منه إذا كانت تضن بصاحبها على السجن وبنفسها على العار ، وهو أن تقطع الصلة بينها وبين هذا العاشق وأن تقنعه بمفارقة بروكسل . والثانى اختيارى تستطيع أن تطمئن اليه وأن ترفضه ، ذلك أنه سيحتفظ بهذه الرسائل ، فإذا كانت تريد أن تستردها لتأمن شرها فلا بد لها من أن ترضى له بما يريد . . . فإذا سمعت هذا تضرعت إليه واستعطفته ليرد إليها هذه الرسائل ولكنه يأبى إلا أن ترضى له . . . فتغضب وتطرده طرداً عنيفاً . أما هو فينصرف منذراً وقد أجلها إلى غد .

ثم يقبل الفتى عاشقها الأول ، فإذا هو مضطرب قد أخذ منه السكر ، فهو يهذى ويتكلف الفرح والابتهاج . تشك فى

أمره وتسأله فلا تتبين منه شيئاً . ولكنه يشهد اضطرابها . فإذا قصت عليه ما كان من أمر الرسائل أفاق من سكره وظهر عليه حزن شديد ؛ لأنه يشعر بأنه لن يهوى وحده وإنما ستهوى معه هذه المرأة البريئة إذا ظلت هذه الكتب في يد هذا الخصم .

وهو يفكر فى ذلك إذ يدق جرس التليفون ، فإذا سألت الخادم عرفت أن أخا الفتى يسأل عنه يريد أن يراه فيأمرها أن تنبئه بأنه ينتظره . وتخرج صاحبته « كلير » مضطربة ، أما هو فيأمر الخادم أن تدعو خصمه « درانيم » باسم صاحبته ليزورها الآن فى هذا البيت فتفعل . ويقبل أخوه فينصح له بالفرار ؛ لأن النائب العمومى أمضى أمر القبض عليه فيأبى ، ويكون بينهما جدال عنيف ينتهى بأن يظهر الفتى من أخيه على أنه ينكر نسبه إلى أبيه ، وهو لا يقول هذا عفواً وإنما يقوله لأنه سمعه من أبيه ، ولولا ثقته بأن نسبه غير صحيح وأنه ليس أخاه حقاً لما نازعه ولما كاد له ، ولكنه يعلم أنه مدسوس فى الأسرة ، وأنه قد أساء إلى هذه الأسرة ، فهو يريد أن يخلص شرف هذه الأسرة من فتى ليس منها فى شىء ، ثم ينصرف .

ويظل الفتى محزونا وقد شك فى أمره وأصبح يتساءل أهو أمير

حقاً ؟ أهو وارث لأبيه شرعاً ؟ وأخذ ينظر فى المرآة فيتبين ملامح تخالف ملامح الأسرة . ثم تدخل صاحبته فينئها بأنه دعا عاشقها الثانى وأنه مقبل الآن ، فعليها أن تتلقاه وسيستخفى هو لحظة حتى إذا جلس خصمه ظهر هو ؛ فعليها إذن أن تتركهما حيناً ، ويأتى « درانيم » فيستخفى الشاب . فإذا دخل « درانيم » تلقته المرأة مضطربة خافتة الصوت ، فيجلس إليها ويستأنف إلحاحه وانذاره ، ولكن الفتى يظهر من مخبئه ، وتتركهما المرأة وجهاً لوجه وقد عمد الفتى إلى الأبواب فأحكم إغلاقها . فإذا خلا الخصمان طلب الفتى إلى خصمه الرسائل ، فيتأبى فيخرج مسدسه ويقسم ليردن الرسائل أو ليقتلن ! يشك الخصم فى هذا النذير ، ولكن الفتى ينبئه بأنه سيقتل نفسه بعد قليل فهو لا يخشى القضاء ولا العقاب ولا ما سيقول الناس ، ويمهله دقيقة لرد الرسائل إليه فلا يكاد خصمه يمانع لأنه يرى المسدس قد صوب إليه ، فيدفع إليه الرسائل وينصرف . . .

أما هو فقد أخذ الرسائل ووضعها على مائدة ودعا صاحبته فيجيبه من وراء الباب المغلق وتدعوه إلى أن يفتح لها وتلح ،

ولكنه لا يفتح ولا يجيب إلا بكلمة الوداع . . . ثم ينصرف مسرعاً ! وتأتى صاحبته فإذا لم تجده خرجت جزعة .

* * *

فإذا كان الفصل الرابع فنحن فى الريف فى مكان موحش ، وقد قام فيه قصر فخم تحيط به غابة موحشة ، وفى هذا القصر يقيم خال الفتى ، وهو شيخ فيلسوف قد كره الناس وحضارتهم وأخلاقهم ، واحتقر الحياة الاجتماعية كلها لأنها تفسد على الفرد حريته وتجعله كالكلب المستأنس لا يمتاز من غيره الا بقلادة فى عنقه . هو اذن يحتقر الحياة والأحياء من الناس ، ويؤثر عشرة الحيوان . وهو كلف بالصيد ومعاشرة الحيوان ، يربى بعضه ويقتل بعضه كما يقول ، وله لذة هى المزاوجة بين الكلاب والذئاب . وقد أقبل إلى هذا القصر ذلك الرجل الذى رأيناه فى الفصل الأول يتحدث إلى الشاب فى مرسيليا يطلب إليه ألا يعود ، أقبل لأن صاحب القصر دعاه وقد علم ما كان من أمر ابن أخته ومن أنه مقبوض عليه إذا لم يؤد دينه ، فهو يريد أن يؤدى عنه هذا الدين وأن يصلح من أمره ، وقد دعا إليه أيضاً أخا الفتى وأخته ، وهو يريد أن يصلح بين هؤلاء

جميعاً ، وقد أبرق إلى النائب العمومى يعلن إليه أنه مؤد دين ابن أخته . وهو فى هـذا الحديث إذ يقبل الفتى مضطرباً ذاهلاً فيخلو إلى خاله يسأله أمره وماذا يعرف من نسبه . فيحاول الشيخ أن ينكر أو يفر ، ولـكن الفتى يلح فيجيبه الشيخ بأنه لا يعرف من هذا الأمر شيئاً إلا أن أخته تزوجت كارهة من زوجها فلم تحبه يوماً ، وعاشت معه سنين ثم فارقها زوجها أعواماً لمهمة سياسية فى الخارج وكانت فى الخامسة والعشرين من عمرها ، وكانت جميلة خلابة وكان المفتونون بها كثيرين ، ولـكن لم يذع أحد عنها قالة سوء . وهو يعلم أن أباه لم يكن يحبه ولا يميل إليه ، وأنه كان يشك فى نسبه . ثم ما يزال الفتى بخاله حتى يذكر له طائفة من الذين فتنوا بأمه ، فإذا ذكر منهم ضابطاً فرنسياً ألح فى ذكره وأشار إلى تشابه بينه وبين الفتى ، فقد كان هذا الضابط جسوراً مخاطراً مسرفاً فى حب الحركة كارهاً للنظام ، حتى أنه استقال من الجيش وذهب إلى افريقيا الشمالية يستكشف الصحراء ، فقتله هناك أهل البادية . لا يشك الفتى فى أنه ابن هذا الضابط . وإذن فقد تغير كل شىء فى نفسه ، فهو ليس خصما لأخيه

لأنه ليس أخاه ، ولأنه لا يستحق لقب أبيه ولا يستحق ميراثه . وهو يريد أن يقتل نفسه ليتخلص من هذا الشقاء . وإنه ليتحدث إلى خاله إذ تدخل « كلير » لأنها عند ما افتقدته فلم تجده جزعت كما رأينا وانصرفت تبحث عنه ، فأقبلت تلتمسه عند خاله فوجدته . فيتركهما الشيخ وينصرف إلى مكتبه ليدبر أمر هذا الدين وما بين الأخوين من الخلاف . ويخلو العاشقان فيكون بينهما حوار مؤثر حقاً ، يعلن إليها أنه مجرم ، فتجيبه بأنها تحبه ، ويعلن إليها أنه ليس لأبيه ، فتجيبه بأنها تحبه ، ويعلن إليها أنه فقد كل شيء : فقد الثروة وفقد الشرف وفقد اللقب وفقد حتى النسب الصحيح ، فتجيبه ولكنك لم تفقدنى فلم تفقد الحب ! !

ثم تعلن إليه أنها قد نظمت حياتها ، فقطعت صلتها الزوجية واعتزمت أن تعيش معه وأن ترافقه إلى حيث يريد . وهما فى هذا إذ يقبل خاله ومعه أخوه وأخته وزوجها والرجل الآخر الذين رأيناه أول هذا الفصل . فتنصرف المرأة ، ويعلن خال الفتى إليه أنه قد تم كل شيء . فأما دينه فقد أدى عنه . وأما لقبه فقد رد إليه واعترف بذلك أخوه . أما هو فلا يكاد

يسمع هذا حتى يأباه ويجيب مبتسماً : « هـذا ما دبرتم ، انتظروا فسأكتب لكم وصيتى » وينصرف . فإذا طالت غيبته على القوم افتقدوه فلم يجدوه فيأخذ الشيخَ جزعٌ شديد ويدعو ابن أخته بصوت عال تسمعه « كلير » فتقبل جزعة وقد اشتد اضطراب القوم ، فهم يدعون الخدم يسألونهم ويأمرونهم بالبحث ويقبل غلام معه كتابان يدفع أحدهما إلى الشيخ والآخر الى أخى الفتى . فيفض هذا كتابه ويقرؤه ، فاذا الفتى يعلن إلى أخيه أنه قاتل نفسه وقاذف بها فى هوة عميقة بعيدة عن القصر يسميها ، فلا يكاد القوم يسمعون هذا حتى يأخذهم الهلع .

أما المرأة فقد أغمى عليها . وأما الشيخ فما زال هادئاً ولكن تبدو عليه مظاهر اليأس . حتى إذا انصرف القوم جميعاً يريدون أدراج الفتى دفع الشيخ إلى المرأة ، وقد أفاقت ، كتابه مبتسماً وخرج فلحق بالقوم . أما المرأة فتنظر فى الكتاب ولكنها لا تكاد تمضى فى القراءة حتى يدخل عليها الفتى فتلقى بنفسها بين ذراعيه وتدعوه باسمه « جان » فيجيب : لا تذكرى هذا الإسم فإن « جان » قد مات وقد ألقى بنفسه فى تلك الهوة . أما هذا الذى أمامك فاسمه « لوسيان جيرو » وقد تركت على هذه الورقة

عنوانى فى باريس . فإذا كنت تريدين أن تشاطرينى ما بقى لى من هذه الحياة السيئة فألحقى بى وإلا فكونى سعيدة ، ولكن لا تقولى شيئاً . تجيبه سألحق بك غداً . . .

✲✲✲

فأنت ترى إلى هذه القصة وإلى خلوها من كل فكرة قيمة أو رأى ذى خطر وإلى امتلائها بالحركة والأحداث والمواقف العنيفة التى تخلع القلوب فرقاً وترقصها أملاً . وأنت ترى الى هذه القصة كيف استطاع الكاتب أن يصور الجزع حتى ملك على هؤلاء القوم وعلى الجمهور نفوسهم وأهواءهم فلم يشكوا فى أن الفتى قد قتل نفسه ، وهم فى هذا الجزع العنيف وإذا الفتى يظهر مبتسماً هادئاً قانعاً من الحياة بما قسم له ، وإذا شىء من الأمل الهادىء المتواضع يقوم مقام ذلك الأمل الضخم الذى لاحد له ، ومقام ذلك اليأس الذى كاد يأبى على كل شىء .

أعترف بأن هذه القصة مما يلهى الجمهور ويرضيه ولكنى أعترف أيضاً بأنها لم تلهنى ولم ترضنى .

يناير ١٩٢٤

الرجل المغلول

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « ادوار بورديه »

أما اليوم فسأحدثك عن قصة تمثيلية بالمعنى الصحيح ، بالمعنى الذى أعجب به وأرتاح اليه ؛ لأن فيها ما يرضى الخاصة والعامة معاً . فيها ما يسر الفيلسوف الباحث ، وفيها ما يبتهج له النظارة الذين يختلفون إلى ملاعب التمثيل ليقضوا فيها جزءاً من الوقت ، وليجدوا فيها شيئاً من هذه اللذة المقدسة التى يخلقها الفن فينال بها العقول والقلوب .

ليست هذه القصة درساً فى الفلسفة ، أو فصْلاً من فصول العلم لا يفهمه إلا الإخصائيون . وليست هذه القصة بناء شامخاً كثير الحنايا والتعاريج ، من هذه الأبنية التى يشيدها الخيال دون أن يسيطر عليه العقل أو تشرف عليه الفلسفة ، وإنما هى قصة ، للفلسفة فيها حظ وللخيال منها قسط . فهى كما قلت ترضى العقل لما فيها من فكرة وصدق تحليل ، وترضى القلب لما فيها من جهاد بين العواطف المختلفة المتناقضة . وهى

من هاتين الناحيتين مرضية للعامة والخاصة . ولقد تبحث عن الفكرة التى قامت عليها هذه القصة فلا تكاد تجدها ، أو لا تكاد تشعر بأنها فكرة جديدة أو غريبة . ومع ذلك فالقصة لذيذة ممتعة للعقل ، لا لأنها تشتمل على شىء جديد ، ولا لأنها تفصل رأياً من آراء العلماء أو نظرية من نظريات الفلسفة ، بل لأنها تتناول نفسين أو نفوساً ثلاثاً بشىء من التحليل الدقيق يظهر خفاياها ويعلن ما كمن فيها من عاطفة أو شعور . ثم هى إلى هذا التحليل قد وفقت إلى طائفة من المواقف الدقيقة الرقيقة التى تؤثر فى نفسك أقوى التأثير دون أن تصدمك صدمة قوية أو تهزك هزة عنيفة ، وإنما هى تحدث فى نفسك هذا التأثير قليلا قليلا ، وتترقى بك فى الألم شيئاً فشيئاً حتى تصل بك إلى أقصاه ؛ مثلك فى ذلك مثل الذى يصعِّد فى جبل شاهق دون أن يلقى فى تصعيده عناء ، لأن طريقه إلى القمة سهلة معبدة . فالكاتب لا يجذبك إلى ما يريد جذباً ، وإنما يماشيك إليه ويقودك فى لطف ورفق ، كأنه يسرقك أو يختلسك . ذلك إلى حلاوة فى اللفظ ، وسحر فى البيان ، وتجنب للتكلف ، واقتصاد فى الحركة . والغريب من أمر هذه القصة أنك تشهدها أو تقرؤها فلا تكاد تشعر بأنك تشهد قصة أو تقرؤها ، وإنما

يملكك شعور قوى هادىء لأنك تشهد فصلا من فصول الحياة أو تطّلع على صورة من صور الحياة . ومن هنا كان ما تشعر به من لذة أو ألم صادقاً ، لأنه لم يُتكلف ولم يُتعمد ، وإنما نشأ فى نفسك كما تنشأ فيها اللذات والآلام اليومية أمام هذه المظاهر الفطرية التى تبعث فى النفس اللذة والألم . ومن هنا لم يختلف النقاد فى أمر هذه القصة ، وإنما اجتمعت كلمتهم على الإعجاب بها والثناء على كاتبها وانتظار الخير الكثير منه . ولعل مصدر هذا الإتقان الذى أجمع النقاد عليه أن الكاتب هادىء محب للأناة ، لا يتعجل الفوز ، ولا يتهالك على التصفيق ، ولا يحرص على كثرة الإنتاج . هو بطىء فى إنتاجه يتصور القصة ، ثم لا يكتبها حتى تطول العشرة بينه وبين الصورة التى يتصورها ، فإذا أصبحت هذه الصورة كأنها جزء من نفسه أقبل على قلمه فرسم هذه الصورة فى هدوء وبعد عن التكلف . فإذا تم له من ذلك ما أراد ونالت قصته حقها من الفوز ، لم يطمعه ذلك ، ولم يدخل إلى نفسه الغرور ، ولم يبعثه على أن يستزيد من الفوز ، وإنما يبعثه على أن يتمهل ويستأنى ويتيح لنفسه الفرصة التى تمكنها من الراحة والتجدد ، فيمكث السنتين والسنين لا يكتب ولا يفكر فى الكتابة وإنما يستريح ويقرأ ويشاهد ويتنقل فى

مظاهر الحياة ، متفهماً لها محللا إياها ، حتى تعرض له صورة أخرى ، وإذا هو يسلك معها سبيله مع القصة الأولى . فهو من أقل الكتاب الممثلين إنتاجاً ، ولكنه من أغزرهم مادة ، وأحسنهم أثراً وهو ينال على ذلك من الفوز والمكافأة أكثر مما يناله غيره من المتعجلين .

***

« ميشيل فردييه » محام معروف ، عظيم الشهرة ، بعيد الصوت ، كثير العمل ، لا تكاد تسمع لحديثه حتى تشعر بأنه ذكى القلب ، رقيق العاطفة ، حاد المزاج ، قوى الحس . وهو متزوج من امرأة يحبها حباً لا حد له ، وتحبه هى كذلك حباً لا يعدله حب ، واسمها « هيلين » . لا تكاد تسمع لحديثها حتى تتبين فيها مثلا للمرأة التى تراها ، فإذا أنت مأخوذ بأكبارها وإجلالها ، لأنها جمعت إلى الجمال والفتنة نفساً عالية ، وقلبا ملؤه الحنان ، وأخلاقاً مستقيمة فطرت على الطهارة والوفاء . وهى كزوجها رقيقة العاطفة ولكنها قوية الحس . تراهما فى الفصل الأول يتحدثان عن سياحة يعتزمان أن يسيحاها فى أسبانيا .

أما هى فمبتهجة مغتبطة لأنها سترى ما لم تر ، ولأنها ستخلوا إلى زوجها أسابيع لا يشاركها فيه شريك ، وأما هو فسعيد ولكنه يتعجل العودة ؛ لأن عمله كثير ، ولأنه لا يستطيع أن يؤجل هذا العمل إلا قليلا . وتفهم من حديثهما أنهما قد تزوجا منذ ثلاث سنين ، وأنهما تحابا قبل أن يتزوجا ، وأنها أسلمت نفسها له قبل الزواج . أنكرته أسرته كلها ، وما زالت تنكره وتزدرى امرأته إلا أختا له هى « جنفييف » وهى أرملة لا ولد لها ، تحب أخاها وتكبر زوجه وتضمر لها مودة قوية . يسألها ماذا تصنع هذا اليوم فتنبئه بأنها تنتظر جماعة من الزائرين سيتناولون عندها الشاى . فإذا سألها عن مصدر هـذا أنبأته بأن أخته تفكر فى أن تعرّف فتاة إلى شاب ، وهى تريد أن يكون بينهما زواج . أما هذه الفتاة فاسمها « كلودين أرفو » جميلة ذكية مثرية ، ولكنها فقدت أمها ، وهى تعيش مع أبيها الذى لا يحفل بها ولا يلتفت إليها ، وإنما ينصرف عنها إلى لذاته وشهواته . فمن الخير أن تتغير حياتها ، وأن تجد فى الزواج ما ينقذها من شر هذه الوحدة التى تعيش فيها . وأما الشاب فهو « فيليب دارتيز » وهو صديق هذه الأسرة ، وهو جميل حسن الطلعة ، غنى ، اشتغل بالمحاماة فتفوّق فيها وكاد يبلغ

مكانة عالية لولا أن عرضت له امرأة نَصَفٌ ولـكنها غنية جداً ، فأحبها وأحبته وعاشا حينا ، فما هى إلا أن صرفته عن العمل ، فأصبح لا يعيش إلا لها ، وأصبح يضحى بملكاته ومكانته فى سبيل هذه المرأة ، ومن الخير أن يتركها إلى حياة الزوجية المنظمة التى تمكنه من إحيـــاء ملكاته واسترداد مكانته فى المحاماة . أما زوجها فلا يكاد يسمع هذا حتى يسخر منها ومن أخته ومن عنايتهما بتزويج الناس بعضهم من بعض . ثم تقبل أخته فينصرف . ويقبل الزائرون قليلاً قليلاً حتى يتم اجتماعهم إلا الشاب فإنه لا يحضر ، ومع ذلك فقد وعد بالحضور ، وصاحبة البيت تنتظره وقد أعلنت مقدمه إلى الزائرين .

وهنا قسم لذيذ من القصة ، فيه ضروب من الحوار مختلفة ، كل واحد منها على قصره يصور لك تصويراً صادقاً دقيقاً نفساً إنسانية أو شخصاً من أشخاص هذه الحياة الخاصة حياة الأغنياء والمترفين . فهناك فى ناحية من نواحى الغرفة رجل وامرأة يتحدثان ، يتحبب الرجل إلى المرأة ويغريها بالحب ولذاته . فتجيبه بأنها تفهم ذلك وتميل إليه فلا تنفر منه ، ولـكنها مع ذلك لا تورط نفسها فيه ؛ لأنها تعودت ألاّ تكتم زوجها سرًّا ، فهى

تقص عليه أمر يومها إذا اجتمعا إلى مائدة العشاء ، وهى تخشى إن اتخذت لها عاشقاً أن تقص أمره على زوجها لِما تعودت من ذلك . ولكنه يغريها ويهون عليها الأمر ، ويفتح لها أبواب الحيل ، وما يزال بها حتى يظهر أنه قد ملك عليها أمرها ، فيخرجان بعد أن يقسم لها أنها تستطيع أن تقص على زوجها كل ما سيحدثها به فى الطريق . وهذه المرأة نفسها مشهورة بالتورط فى طائفة من الأغلاط المنكرة كلما ظهرت فى جماعة . ولم تخطىء حظها من ذلك هذا اليوم . فبينما هم إلى الشاى يذكرون « فيليب » وانتظاره إذ ذكرت صلته بتلك المرأة التى يحبها وتحبه . فسمعت الفتاة ذلك وتكلفت صاحبة البيت مشقة لتصرف الحديث عن هذا الوجه .

وهناك فى ناحيه أخرى أبو الفتاة ، وهو رجل قد كاد يتقدم فى السن ، ولكنه شاب أو يتكلف الشباب ، مكب على لذته لا يعدل بها شيئاً آخر . وهو حريص على أن يزوج ابنته ليخلص منها ويفرغ للذاته . وحرصه هذا على تزويج ابنته ينسيه واجبه ، فهو لا يتحرى من أمر الشاب الذى يعرض عليه شيئاً وإنما يكل الأمر فى خفة إلى « هيلين » و « جنقييف » . فإذا أبطأ الشاب انصرف وترك ابنته بين هاتين الصديقتين .

وهناك الفتاة « كلودين » يظهر عليها أنها قد بلغت من السذاجة والبراءة خطأً عظيماً ، ولكنها ليست بالساذجة ولا الجاهلة ، فهى تعلم لم دعيت إلى هذا الشاى و إن أخفوا ذلك عليها . وهى تفطن لكل ما تسمع من حديث ، وهى تعلم من أمر هذا الشاب الذى يراد تقديمه إليها كل شىء ، وهى تميل إليه لأن خَلْقه جميل ، وتنفر منه لمكانه من تلك المرأة . ولكن انتظار هذا الشاب يطول ، فتنصرف « جنفييف » والفتاة ، وتبقى « هيلين » وحدها لحظة . ثم يدخل الخادم فينبئها بأن « فيليب » قد جاء حين كان عندها الزائرون ، فلما عرف مكانهم انصرف على أن يعود بعد قليل . وقد عاد ، فيدخل فتتلقاه « هيلين » ساخطة مغضبة لأنها دعته إلى الشاى وكانت تريد أن تقدم إليه ناساً . أما هو فيجيب بأنه أقبل ليراها لا يرى غيرها لأن رؤية غيرها تؤذيه ، ورؤيتها هى تسره ، وقد أقبل ليسرّ لا ليتأذى . ثم يكون بينهما حديث تظهر فيه قيمة القصة ، وتبدأ فيه المعضلة التى سيعالجها الكاتب فى الفصلين الآخرين يتحدثان ، فتذكر له قصة الزائرين وقصة الفتاة ، وأنها تريد أن تقدّمها إليه فيتخذها له زوجاً ، فيجيبها بأنه لا يريد أن يتزوج ،

فإذا ألحت عليه ، أجابها فى تبرم وسخط بأن ذلك لا يعنيها ، وليس من حقها أن تفكر فى أمره الآن أو تحرص على سعادته بعد أن ازدرت هذه السعادة وضحت بها منذ ثلاث سنين . وإذن فقد كان بينهما حب قبل زواج « هيلين » ، وقد ضحت هيلين بهذا الحب وتزوّجت . ولكن الحديث يستمر بينهما فيوضح لنا هذه القصة ، فنفهم أن « فيليب » عرف هيلين هذه فأحبها ولم تحبه ، ثم قدّم إليها صديقه « ميشيل » فأحبها أيضاً وأحبته أو قل مالت إليه وكانت بينهما صلات العاشقين ، فتألم « فيليب » لذلك ، ولكنه أخفى ألمه . ثم أصبحوا ذات يوم فإذا ميشيل قد سافر فجأة إلى أمريكا وانقطعت أخباره ورسائله حيناً ، فانتهز فيليب هذه الفرصة واستأنف ملاطفة « هيلين » والتحبب إليها ، وما زال يتبعها بحبه و إلحاحه حتى رضيت له . ومضت على ذلك أشهر ، ثم أقبل « ميشيل » من أمريكا ، فإذا هو لم يسافر إلا ليبحث عن الثروة وليضمن مستقبلاً سعيداً . فلما ظفر بذلك عاد فعرض على « هيلين » الزواج . وكانت تريد أن تنبئه بخيانتها إياه ، ولكنها رأته سعيداً مبتهجاً فأشفقت عليه من الألم ، ورأت أن المستقبل أمامها مبتسم سعيد ،

فأشفقت على نفسها من الحرمان ، وكتمت خيانتها وقبلت الزواج وكتبت إلى « فيليب » تقطع ما بينهما من الصلة ، وتعاهد فيليب وهيلين على أن يجتهدا فى نسيان هذه الصلة .

ومضت على ذلك أعوام ثلاثة . أما هى فنسيت كل شىء ؛ لأنها أحبت زوجها ، ولأن زوجها عرف كيف يضمن لها السعادة . وأما هو فلم ينس شيئاً لأنه ما زال يحبها ، وما زال يألم لهذه القطيعة . فإذا سألت عن هذا الحب كيف يستطيع « فيليب » أن يجمع بينه وبين معاشرته لتلك المرأة التى قدمنا الإشارة اليها قلنا لك إن هـذا هو سر القصة ، وستظهر عليه فى الفصل الثانى .

☆ ☆ ☆

فإذا كان هذا الفصل الثانى فقد عاد الزوجان من سياحتهما فى أسبانيا ، وقد أقبلت « جنفييف » تريد أن تلقى « هيلين » لتحييها بعد العودة ، فإذا رأتها وحيتهـا أنبئتها بأنها لم تيأس من الزواج بين « فيليب » و « كلودين » ، وأنها قد عملت لذلك وجدّت فيه فوفقت لشىء كثير . ذلك أنها ما زالت تحتال حتى قدمت الفتـاة إلى الفتى فى ملعب من الملاعب الرياضية ،

وكانت بين الفتاة والفتى مسابقات ومغالبات فى هـذه الألعاب الرياضية انتصرت فيها الفتاة غير مرة ، ثم نشأ بينهما شىء من الميل ظاهر ، ولكنه فى نفس الفتاة قوى يكاد يبلغ الحب الذى تنهلّ من أجله العبرات ، وهى تريد الآن أن تعـلم علم فيليب وما اعتزم فى أمر هذا الزواج ، وقد احتاطت لذلك فتحدثت صباح اليوم فى التليفون إلى « فيليب » باسم « هيلين » تنبئه بعودتها وتدعوه لزيارتها فوعد بهـذه الزيارة فى الساعة الثانية بعد الظهر ، وهو قادم من غير شك بعد قليل . أما « هيلين » فتنكر عليها سعيها هذا ، وتلومها لوماً شديداً . ولكن « فيليب » يقبل فتستخفى « جنفييف » وتتلقاه « هيلين » . فيكون بينهما حديث نفهم منه أنه معجب بالفتاة ميال إليها ، يود لو استطاع أن يقترن بهـا ، ولكنه لن يفعل . فإذا سألته عن سر هذا لج فى كتمانه ، وهى تتضرع إليه وتذكر له حب الفتاة وألمها ، فلا يحفل بشىء من ذلك ، ثم ينصرف . وتعود « جنفييف » فتنبئها « هيلين » بأن لا أمل فى الزواج . وهما تتحدثان إذ يدخل الخادم فينبئ بأن « سيمون » وهى عشيقة « فيليب » قد أقبلت تريد أن ترى « هيلين » . فتتشاءم المرأتان لهـذه الزيارة وتنصرف

(١٤)

« جنقييف » وتدخل « سيمون » . فيبدأ بينها وبين « هيلين » حديث ملؤه التورية والتعريض ، وملؤه الغمز واللمز ، ولكنه ينتهى إلى جزء هو عقدة القصة ومشكلتها الحقيقية . ذلك أن « سيمون » تصارح « هيلين » بأنها تريد أن تتزوج من « فيليب » وتطلب معونتها على ذلك . فإذا أظهرت « هيلين » شيئاً من التردد جاهرتها سيمون فى عنف وقسوة بأنها مدينة لها بهذه المعونة ، وأنها إذا لم تعنها فستلقى من ذلك شراً ليس فوقه شر لأن « سيمون » تعلم ما كان بينها و بين « فيليب » من الخيانة ، وأنها إنما علمت ذلك لأنها كانت تحب « فيليب » فانصرف عنها حين فتن « بهيلين » ، فما زالت تتبين أسباب هذا الانصراف حتى عرفتها . و إذن « فهلين » عدوتها قد أساءت إليها حين فتنت « فيليب » ، وما زال « فيليب » متأثراً بهذه الفتنة ، فيكفى أن تأمره «هيلين» بشىء ليفعله . و إذن فهى تطلب إلى هيلين أن ترغبه فى هذا الزواج ، فإن لم تفعل فستقص أمرها على ميشيل زوجها ، وستكون شقية مثلها . ثم تنصرف ، فإذا هيلين جزعة مضطربة يتنازعها أمران كلاهما شر ، فهى لا تريد أن تعلم زوجها بما كان من خيانتها إياه ، وهى لا تريد أن يقترن « فيليب » بهذه المرأة

التى يكرهها ويزدريها ، فتسرع إلى التليفون وتدعو « فيليب » لزيارتها . وهى فى انتظاره واجمة جزعة إذ يقبل زوجها ، فتجزع لرؤيته ، وكلما تلطف لها زادها ذلك ألماً وحسرة . فإذا سألها زوجها عن ذلك اعتذرت بتعب السفر ، وما يزال بها حتى تطمئن إليه قليلاً فيتحدثان ، ثم يتركها لعمله . ويأتى فيليب ، فتقص عليه من أمر « سيمون » ما قدّمنا . ويظهر لنا أن هذا هو الذى يحول بين الفتى وبين الزواج . ذلك أن « سيمون » أخذت كلما أحست ميلاً من « فيليب » إلى أن ينصرف عنها تنذره بأنها ستقص أمره على « ميشيل » فتقضى على سعادة « هيلين » . وإذن فهو يعيش مع هذه المرأة التى يكرهها ويزدريها لا لشىء إلا الحرص على أن تظل « هيلين » سعيدة ، وعلى أن يظل سرها مكتوماً . أما الآن وقد ظهر أنها لا تكتفى منه بالعشرة ، وإنما تريد منه الزواج ، فأمره مضطرب كأمر « هيلين » . وهما يتشاوران إذ يدخل « ميشيل » فيحيي صديقه القديم ويتحدث إليه بأن الناس يذكرون عشرته لهذه المرأة فينكرونها ويسخطون عليها ، ويلومون « فيليب » لوماً عنيفاً ، ويتهمونه بأنه إنما يعاشرها لثروتها ، وينصح له بأن يقطع هـذه الصلة . فيجيبه

« فيليب » بأنه لن يقطعها بل هو سيزيدها قوة ومتانة لأنه سيتخذ « سيمون » زوجاً له . ثم ينصرف ويترك هيلين فى حال من الوجوم غريبة . وينصرف ميشيل إلى عمله . أما هيلين فتظل واجمة حيناً ، ثم يظهر عليها أنها قد اعتزمت أمراً ذا خطر فتعمد إلى منضدة وتكتب كتاباً ، وتدعو خادمها فتأمرها أن تنصرف بهذا الكتاب إلى « فيليب » فتدفعه إليه وتعود . فإذا انصرفت الخادم نهضت هى فى ذهول ووجوم إلى مكتب زوجها فطرقت الباب ودعت « ميشيل » : أأستطيع أن أتحدث إليك ؟ فتسمع من وراء الباب صوتاً يجيبها : أن نعم ! فتستخفى وراء الباب ويسدل الستار .

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فنحن فى مكتب ميشيل والمسرح خال لحظة . ثم يقبل ميشيل مضطرباً ، فيدعو الخادم ويطلب إليه التليفون ، فإذا حمله إليه دعا الطبيب . ثم تدخل أخته جنقييف ، فتفهم من حديثهما أن هيلين مريضة ، وأنها أقبلت إليه تحدثه ، وكانت أمارات التعب والاضطراب ظاهرة على وجهها ، فسألته أن يجتهد فى منع هذا الزواج بين فيليب وصاحبته .

ثم أخذتها نوبة عصبية عنيفة ، فإذا هى ترتعد ارتعاداً قوياً ، وإذا دموعها تنهل ، وإذا زفراتها متصلة ، وإذا هى ترفع من وقت إلى آخر يدها إلى رأسها كأنها تحس ألماً فيه ، فحملها إلى مضجعها ، وتعهدها بشىء من العناية حتى هدأت قليلاً ، وهى الآن فى سنة من النوم . فإذا قص ذلك على أخته حزنت له وأخذت تهدئ من روع أخيها . ولكن أخاها مضطرب يفترض الفروض ، ويخشى على زوجه كل مكروه . ولكنه يسأل أخته فيم أقبلت ؟ فتقص عليه كل ما قدمت لك فى الفصل الماضى . فإذا علم أن فيليب قد زار زوجه مرتين وأن سيمون قد زارتها أيضاً دخله شىء من الخوف والتخون وعبثت بنفسه الشكوك ؛ لأن زوجته لم تحدثه بشىء من ذلك ، فأخذ يسائل عن هذه الزيارات ، وأخذ يفهم ما بال زوجه كانت مضطربة متعبة حين دخل عليها فى الفصل الثانى ، وأخذ يسائل عن مقدم سيمون ، وأخذت أخته تزيل من نفسه هذه الشكوك والأوهام . ولكنه كان قد دعا خادم زوجه فأخبر أنها غائبة . وقد عادت هذه الخادم فأقبلت ، فيسألها أين كانت ، فتنبئه أن سيدتها كلفتها أن تحمل كتاباً إلى فيليب فحملته وسلمته إياه ، فلا يزيده هذا النبأ إلا شكاً أو قل

إلا يقيناً بأن امرأته تحب هـذا الرجل . وما أسرع ما يتمثل تفسيراً لحال امرأته ، فهى تحب فيليب وتكره هذا الزواج ، وقد اجتهدت فى أن تصرفه عنه ، وهى تجتهد فى ذلك إذ دخل هو عليهما فانقطع الحديث ، فلما انصرف فيليب كتبت إليه تعزم عليه ألا يتم هذا الزواج . وقد اشتد يقينه وقوى حتى كاد يجن جنونه . ولكن أختـه تسأله : ولم تجتهد زوجك فى أن تمنع هذا الزواج ؟ وماذا عسى أن يغير هذا الزواج من حبهما إن كان بينهما حب ؟ فهى كانت تعلم أنه كان يعيش مع هـذه المرأة عيشة الزوج ، أفتظن أنها تعلم ذلك وتطمئن إليه ثم تجتهد فى أن تمنع إقراره رسمياً ! ألست تعلم أنها كانت تجتهد معى في تزويج فيليب من هذه الفتاة كلودين ؟ وإذن فكيف تستطيع أن تفسر ذلك وأن تفترض أن بينهما حباً . . . فيظهر لميشيل أنه مسرف متعجل فى افتراضه ، ولكنه يظل مضطرباً لأنه لا يفهم أمر هذا الكتاب . فتهدئه أخته وتطلب إليه أن ينتظر حتى إذا أبلّت هيلين من مرضها سألها عن هذا الكتاب فأجابته بما يرضيه ويريحه . وتعلن إليه أنها ذاهبة تتعجل الطبيب . فإذا خرجت تبعها ، وظل المسرح خالياً حيناً ، وإذا هيلين قد أقبلت وهى

شاحبة ممتقعة عليها آثار التعب والعلة . فإذا دخلت ولم تر زوجها أقبلت إلى التليفون تريد أن تتحدث . ولكن زوجها يدخل فتنصرف عن التليفون ولما يتمكن من أن يراها . ثم يسألها كيف هى وما بالها خرجت من غرفتها ؟ فتنبئه بأنها بخير وأنها تسترد قوتها بعض الشىء . ولكن صاحبنا مضطرب ، وهو أشد اضطراباً من أن يصبر على زوجه ويجنبها الأسئلة المؤلمة ، فيسألها عن زيارة فيليب ، وعن زيارة سيمون ، وعن هذا الكتاب الذى بعثت به إلى فيليب . وهو كلما ألقى عليها سؤالاً لم يرمنها إلا اضطراباً وارتباكاً ، ولم يحس منها إلا تورطاً فى الكذب والتلفيق ، ولم يشهد منها إلا ضعفاً وإسراعاً إلى استئناف النوبة العصبية التى شهدتها منذ حين ، فلا يبقى فى نفسه مكان للشك فى أنها خانته ، وفى أنها تحب فيليب ، فيصرفها إلى غرفتها وهى ضعيفة لا تقاوم إلا قليلاً فتنصرف وتتركه ذاهلا قد بهت .

وتدخل أخته فتنبئه بأن الطبيب غائب عن باريس . فيجيبها : لسنا فى حاجة إلى الطبيب ، فليست مريضة ، وقد ظهر لى كل شىء . ثم يطلب إلى أخته أن تلحق بهيلين فى غرفتها ، وأن تلازمها وتحول بينها وبين مفارقة هذه الغرفة حيناً ، وأن تمنعها

من اللحاق به لأنه ينتظر رجلا ويريد أن يخلو إليه ، فتطيع أخته مشفقة . أما هو فقد عمد إلى التليفون ودعا فيليب ، فوعده أن يقدم حالًا ، ويأمر الخادم ألا يدخل عليـه أحداً غير فيليب . فإذا أقبل فيليب أجلسه وعمد إلى أبواب المـكتب فأحكم إغلاقها ، ثم جلس وقال لصاحبه : لقد عرفت كل شيء ؛ فقد أنبأتنى هيلين بما كان بينكما . وهو إنمـا قال ذلك ليمتحن صاحبه ويبتليه . ولـكن صاحبه يجيبه فى هدوء . أعلم ذلك ! وكيف تعلمه ؟ فقد كتبت إلىَّ تنبئنى به ! تنبئك بمـاذا ؟ تنبئنى بأنها ستقص عليك كل شيء . . . ثم يجتهد فيليب فى أن يفسر له هذا الأمر فيذكره بتقديمه إياه إلى هيلين وبأنه كان يحبها ، فلم يحفل ميشيل بهذا الحب ولم يلتفت إليه أو لم يشعر به ، وما زال يتملق هيلين ويتلطف لهـا حتى كان منها مكان العاشق . فهو إذن قد خان فيليب أو اعتدى عليه ، ثم سافر فجأة دون أن ينبئ بسفره ، وكان فيليب لا يفكر إلا فى شيء واحد وهو أن ينتقم من هذا الاعتداء ، وكان يحب هيلين فأخـذ يتتبعها ويلح عليها وينتهز ضعفها ووحدتها حتى ظفر منها بما أراد ، ثم كانت عودة ميشيل من أمريكا وعرضه الزواج على هيلين فـكتبت هيلين الى فيليب

تقطع ما بينهما من صلة وكان هذا كل شيء . أما ميشيل فقد استمع لهذا الحديث والغضب مالك عليه أمره ، وهو لا يكاد يصدق أن الأمر قد انتهى بالعاشقين إلى هذا الحد ، وإنما هو موقن أنهما قد مضيا فى الخيانة بعد الزواج ، ولكنه يحس من صاحبه الصدق فلا يفعل هذا الإحساس فى نفسه شيئاً ، وإنما هو متأثر بالغضب والإهانة وقد اعتزم أن يطرد زوجه وأن يقطع ما بينهما من صلة ، وهو يعلن إلى صاحبه أنه يستطيع أن يسافر معها إلى حيث أراد . ثم يسأله :

« ولكنك تكره هذا السفر فسيحول بينك وبين الاقتران بهذه المرأة الغنية » .

يجيبه صاحبه : لا تكلف نفسك عناء ، فلم يبق من سبب لهذا الزواج .

« وكيف ذلك » ؟

لأنى كنت مقدماً على هذا الزواج وأنا كاره له . كنت أضحى بنفسى فى سبيلك وفى سبيل هيلين ، وفى سبيل سعادتكما كانت هذه المرأة قد عرفت كل شيء ، وأمسكتنى ثلاث سنين ، كلما حاولت فراقها أنذرتنى بأنها ستقص عليك ما تعلم فأبقى ،

ثم خطر لها الزواج فأنذرتنى وأنذرت هيلين نفس النذير فأشفقت عليها وعليك وقبلت الزواج . أما الآن وقد علمت كل شىء ، فليس ما يدعو إلى هذا الزواج . ثم أريد أن أقول لك قبل أن أنصرف أنك ستعفو عن زوجك ، وأن هذا العفو هو أجدر الأشياء بك . ولقد أعلم أنك تألم كثيراً ، ولكنى أعلم أن ألمك هذا سيزول لأنها تحبك . أما أنا فألم كثيراً منذ سنين ، ولن يزول هـذا الألم لأنها لا تحبنى . وهو فى هذا الحديث إذ تقبل جنفييف تدعو أخاها . فينصرف فيليب وتنبىء جنفييف أخاها أن هيلين مضطربة قد عاودتها النوبة ، فهى تدعوه صائحة باكية مرتعدة باسطة ذراعيها كالطفل . ولكنه يأبى أن يذهب إليها ويصرف أخته ويجلس وقد وضع رأسه بين يديه مفكراً . ويلبث كذلك حيناً ، وإذا هيلين قد أقبلت فتدعوه ، فإذا رفع إليها رأسه أخذت تحدثه بصوت متهدج وهى تدافع عبراتها : لقد سألتنى فأخفيت عليك ، وأنا الآن أريد أن أنبئك بالحق ، فلست أجد من ذلك بدا . لا تكلفى نفسك ذلك فقد علمت كل شىء . دعوته فسألته فأنبأنى ثم انصرف . وإذا هى جاثية بين يديه تستغفره وتسأله العفو !

وهنا موقف أقل ما يوصف به أنه آية من آيات الدقة الفنية فى وصف العاطفة الرقيقة المؤثرة . انظر إلى هذه المرأة تقدر خطيئتها وتشعر بهول هذه الخطيئة ، ولكنها تحب زوجها حباً لاحد له ، وهى لا تستطيع أن تعيش بدونه ، وهى لا تستطيع أن تطمع فى عفوه لأنها تعلم أن هـذا العفو عسير ، فهى تعتذر وتترضى وتتضرع ولا تطلب إلى زوجها إلا أن ينتظر ، وأن يكون شجاعاً على احتمال الألم . وانظر إلى هذا الرجل يحب زوجه حباً لا حد له ، ويثق بها ثقته بنفسه ، وقد كان يؤمن الإيمان كله بأنها فوق ما يتورط فيه النساء من الضعف ، وفوق ما يتعرض له النساء من الشك . فما هى إلا لحظة حتى انهدم هذا البناء الفخم ، وأصبحت امرأته أمامه امرأة كغيرها من عامة النساء ، وهو على هذه الخيبة يحب امرأته وهو يحاول أن يخفى هذا الحب ، ولكنه لا يجد سبيلاً إلى ذلك . وهو يلتمس وسيلة يستأنف بها الإيمان بزوجه ، وهو يكلف نفسه المشقة فى تلمس هذه الوسيلة ، فكلما فتحت له امرأته باباً من أبواب الأمل نهض شبح الشك الفظيع فأغلق هذا الباب إغلاقاً عنيفاً . وكيف يستطيع أن يؤمن بامرأته وقد خانته وكذبت عليه واستطاعت أن تخفى هـذه الخيانة وهذا الكذب

ثلاث سنين دون أن يحس من ذلك شيئاً أو يتوهمه ! كيف يستطيع أن يؤمن لها ؟ أليست قادرة على أن تستأنف الكذب والخيانة وإخفاءهما ؟ كلا ! لا أستطيع ! إنك تحبين هذا الرجل ، وإلا فما بالك قد كرهت هذا الزواج واجتهدت فى منعه حتى أظهرت ما خفى من أمرك أمامى ووصمت نفسك أمامى هذه الوصمة المخزية المنكرة ؟ أليست هذه تضحية ؟ أفكان يحملك على هذه التضحية شىء إلا الحب ؟

— ولكنك رجل تفهم معنى الشرف ومعنى الواجب خيراً مما أفهمه . وما أشك فى أنى لم أقدم هـذه التضحية متأثرة بالشرف والواجب . رأيت هذا الرجل وقد ضحى بنفسه فى سبيلى ثلاث سنين ، وهو يريد أن يضحى بما بقى له فى سبيلى أيضاً ، فكرهت ذلك وأبيته . وآية حبى لك أنى وجدت نفسى أمام أمر شاق هو منع هذا الزواج فلم أستعن إلا بك . أفترانى كنت أستعين بك لولا أن لى بك ثقة عظيمة ، وإذا جرس التليفون يدق . فتعمد إليـه هيلين وتنبئ زوجها أن أخته تريد أن تتحدث إليه ، فيأبى ، فتجيب عنـه ، ونفهم من الحديث أن جنفييف تسأل عن المريضة وعن أمر الزوجين ، وهى قلقة وتريد

أن تطمئن ، فتبذل لها هيلين ما يبعث فى نفسها الطمأنينة . ثم تسمع هيلين تقول نعم أعدك بأنى سأفعل ذلك ، ثم تنصرف عن التليفون مترددة ، فتقبل على زوجها : « ميشيل إن جنڤييف تكلفنى أن أقبلك » ! ولا ترى من زوجها انصرافاً عنها فتطوّقه بذراعيها . . .

فبراير سنة ١٩٢٤

منا فنا

للكاتب البلجيكى « موريس ماترلانك »

مثلت منذ عشرين سنة ففتن بها الناس ، وكان النقاد يجمعون على إكبارها ، وغلا بعضهم فى ذلك فذهب إلى أنها آية من آيات الفن ، ولم يتردد « إميل فاجيه » فى أن يثنى عليها أجمل الثناء . ثم تناساها الناس فى فرنسا ، ولكنها طافت أقطار أوربا وأمريكا ثم عادت فى السنة الماضية إلى فرنسا فمثلت فى بيت « موليير » . ولم يتردد أحد من النقاد المعاصرين فى باريس فى أن يثنى عليها ويحمد « لبيت موليير » اتخاذه إياها بين قصصه التمثيلية . ذلك أنها خليقة بهذا الثناء ، بل نستطيع أن نقول إنها خليفة بالإعجاب الذى لا حد له ؛ ففيها كل ما تمتاز به القصة التمثيلية المتقنة ، فيها الفكرة التى تغذو العقل ، وفيها العاطفة التى تغذو الشعور ، وفيها الحركة التى تلذ الحس . ثم هى فوق هذا كله جميلة لأنها تمثل فصلا

من فصول التاريخ . وليس من شك فى أنها ليست من الدقة التاريخية بحيث ترضى المؤرخ الحريص على الصدق والإصابة . ولست أقصد إلى هذا النحو حين أذكر أنها تمثل التاريخ ، وإنما أريد أنها لا تمثل الحياة العصرية التى نحن فيها ولا تمثل عصراً قريباً من العصر الذى نعيش فيه وإنما تمثل شيئاً بعد العهد به فاشتد الميل إليه لا لشىء إلا أنه قديم ، بل لشىء آخر غير أنه قديم . هو أن هذا العصر الذى تقع فيه القصة كثيراً ما تشتد الرغبة فى درسه وتعرف أخباره وآثاره ، لأنه عصر النهضة الأوربية يوم كانت هذه النهضة حديثة العهد لا يتاح العلم بها والتنبؤ بمستقبلها إلا للأقلين عدداً . ثم تقع هذه القصة فى إيطاليا مهد النهضة . فليس عجيباً أن نجد شيئاً من اللذة حين نرى هؤلاء الإيطاليين الذين يتفاوتون فى رقى العقل تفاوتاً شديداً ، فمنهم من مسته النهضة فقرأ آثار الفلاسفة من اليونان وتأثر بما قرأ حتى أصبح فيلسوفاً يزدرى ما حوله ويكره الحياة التى يحياها ، ويتخذ للحياة مثلا آخر غير المثل الذى يتخذه الناس ، وأكثرهم لا يزال محتفظاً بما ورث من نظم الحياة فى القرون الوسطى ، فهو يجهل الفلسفة أو يزدريها ،

وهو يكره هذه المثل العليا التى يسعى إليها الفلاسفة ويحرصون عليها . ثم نجد نفس هذه الحيـاة ، حياة القرون الوسطى ، ممثلة أمامنا بما فيها من عادات وأخلاق ونظم ننكرها فتقع من أنفسنا موقع العجب . كل ذلك يحبب إلينا هذه القصة . ولـكن موضوعها نفسه خلاب مستهو للألباب ، لأنه قديم وجديد معاً ، ولأنه من هذه الموضوعات التى قد تختلف الأزمنة دون أن تنالها الشيخوخة أو ينقص حظها من الشباب ، فهى حية أبداً ، قوية أبداً ، مؤثرة أبداً فى نفوس الناس . ولقد قرأ الناس فى تاريخ الرومان وفى تاريخ بنى إسرائيل شيئاً يشبه هذا الموضوع شبهاً قوياً ، فكان مؤثراً فى نفوس شعرائهم وكتابهم وأهل الفن منهم ، وتناولوه بالشعر والـكتابة والتصوير فلم يزده هذا إلا قوة وشباباً وقدرة على التأثير فى النفوس .

الموضوع فى نفسه يسير : رجل قوى جبار ، ينتهك حرمة الآداب والأخلاق والديانات ، ويستغل قوته وجبروته ليرضى لذة منكرة أو شهوة مرذولة ، فيغتصب امرأة من الحق لها أن ترعى حرمتها . وقد روت أساطير الرومان شيئاً من هذا كان من شأنه أن ثل عرش الملوك فى روما وأقام مكانه الحكم

الجمهورى . وروى تاريخ بنى اسرائيل شيئاً من هذا كان من شأنه أن أنقذ مدينة اليهود المقدسة من الفناء والدمار ؛ لأن فاتحاً أغار عليها فحصرها وألح عليها فى الحصار حتى لم يبق لها بد من التسليم ، ولكن امرأة جميلة كان الشعب بها مفتوناً ولها محباً ، وكانت آية فى الجمال والروعة ، ذهبت إلى هـذا الفاتح ، فما زالت به تلاطفه وتداعبه حتى فتنته وأغوته ثم قتلته ، فارتد الجيش عن المدينة خاسراً . وقد أعجبت الشعوب بمثل هذه الأساطير ، وتناقلت أخبار هؤلاء النساء على أنها تمثل البطولة . فأنت ترى أن الموضوع ليس فى نفسه شيئاً جديداً ، وأن الكاتب لم يخترعه اختراعاً . وسواء أصحت قصته من الوجهة التاريخية أم لم تصح ، فليس من شك فى أنه أحسن استثماره وتناوله على وجه أرضى العقل وأرضى الشعور وأرضى جمهور النظارة . ولقد مثلت سنة ١٩٢٣ قصة هذه المرأة الأسرائيلية التى قدمت الإشارة إليها ، وكان واضع القصة « برنستين » الكاتب الفرنسى المشهور ، فلم تنل ما كان ينتظره الكاتب من الفوز ؛ لأنه لم يوفق فيها لمثل ما وفق له « ماترلانك » من الجمال والصدق والإتقان . ولقد يكون من النافع أن نوازن بين

هاتين القصتين لولا أننا لم نلخص لك قصة « برنستين » : فلنتكلف اليوم بتلخيص القصة التى نحن بإزائها . ولعلنا نعود إلى قصة « برنستين » فى يوم آخر .

* * *

نحن فى أواخر القرن الخامس عشر فى إيطاليا ، والحرب قائمة بين مدينتين عظيمتين ، إحداهما مدينة « فلورنسا » والأخرى مدينة « بيز » . وقد اشتدت هذه الحرب حتى بلغت أقصى ما كان يمكن أن تبلغ من القسوة والعنف ، وأتيح النصر « لفلورنسا » ، فهى تحاصر مدينة « بيز » وتضيق عليها الحصار حتى استنفدت ما كان فيها من قوة ومؤونة وذخيرة وصبر . فالمدينة مشرفة على التسليم ، وهى ترسل الوفود تلو الوفود إلى القائد المنتصر تريد أن تفاوضه فى شروط التسليم فلا تعود هذه الوفود . وقد ضاق الشعب بالأمر ، وسئم الجند هذا الموقف . فالجند ينذر بالفرار ، والشعب يستعد للثورة ، وقائد الجيش المحصور واسمه « جويدو » يدبر أمره مع اثنين من ضباطه . ينبئه الضابطان بما قدمنا من فشل الجيش و إفلاس المدينة واستعداد الأمر للفساد ، و بأن جيشاً من مدينة « فنيس »

كان مقبلا لنجدة المدينة ، ولكن جيشاً من « فلورنسا » لقيه فهزمه ، وكان الشعب والجيش المحصوران ينتظران الخير من هذه النجدة ، وهما يجهلان ما أصابهما . فينبئهما القائد بأنه قد بذل كل ما كان يستطيع ليتفق مع المنتصر على الإذعان والتسليم ، ولكن هذا المنتصر لم يجبه ولم يرد عليه ، فهو فى حيرة من أمره ، وقد انتهت به هذه الحيرة إلى أن أرسل أباه يفاوض هذا القائد ، وهو ينتظر أباه من حين إلى حين ، ويخشى أن يكون قد أصابه ما أصاب الوفود التى سبقته . على أنه سيء الظن بمدينة « فلورنسا » ، لا ينتظر منها إلا الشر كله . وهو يرى الخير لجنده ومواطنيه فى أن يعرفوا الحقيقة كلها ويموتوا كراماً . وهم يتحدثون فى ذلك إذ يقبل الشيخ أبو القائد ، واسمه « ماركو » ، فيسرع إليه ابنه وصاحباه يسألونه عن المفاوضة ونتائجها ويسأله ابنه ماذا لقى من القائد المنتصر « برتز فالى » ، فيجيبه بأنه لم يلق منه إلا خيراً وإجلالاً . ذلك لأن هذا القائد المنتصر الذى يختلف الناس فى أمره ليس فظاً ولا متوحشاً ، وإنما هو رجل رقيق الحاشية مهذّب متعلم ، قد قرأ كثيراً ، وكان مما قرأ كتب

هذا الشيخ ، فهو إذن قد لقيه فى إجلال و إكبار ، كما يلقى التلميذ أستاذه . ثم يتحدث الشيخ إلى ابنه وصاحبيه بأنه لقى فلاناً عند القائد وأنه كان سعيداً بهذا اللقاء ؛ لأن فلاناً هذا من الذين استكشفوا فلسفة أفلاطون واعتنقوها وأذاعوها ، فكأن أفلاطون قد بعث بعثاً جديداً . ويمضى الشيخ فى حديثه عن أفلاطون وفلسفته ، وفى حديثه عما يستكشف الباحثون من آثار الأولين فيحدثهم عن تمثال من تماثيل الآلهة وجد فى غابة من الغابات ، وكأنه قد نسى أنه أرسل ليفاوض فى التسليم ، وأن من ورائه شعباً يموت جوعاً ، وجيشاً ينذر بالفرار والثورة . فيذكره ابنه بهذا كله ، فيذكر ويجيب : نعم ! لقد نسيت أنكم فى حرب ، على أنى أحمل إليكم السلامة والعافية . ثم يسألونه عما يحمل ، فتحس أنه يتكلف تأخير الجواب ، ويقدم بين يديه كثيراً من النصح والموعظة والتزهيد فى لذات الحياة والترغيب فى التضحية . ثم يضيق ابنه بهذه الفلسفة فيلح عليه فيظهر الشيخ أنه سيجيب ، ويمضى فى فلسفته مبيناً أن سعادة الفرد ليست شيئاً بالقياس إلى حياة رجل واحد فكيف بحياة شعب بأسره . وكلما مضى فى هذا الحديث لم يزد الأمر إلا

غموضاً على السامعين . فيلح ابنه وقد كاد يفقد الصبر ، فيجيبه أبوه بأنه يحمل السلامة والعافية للناس جميعاً ، ولكنه يحمل الشقاء لأحب الناس إليه وأكرمهم عليه ، وهو قد قبل ووعد بتنفيذ ما شرط المنتصر ، فإن لم يوفق لهذا التنفيذ ، فقد وعد بأن يعود إلى هذا المنتصر ليلقى عنده ما أعد له من العذاب ، وهو بار بوعده ، فيلح ابنه فى تبيين الأمر ، فينبئه به وإذا هو منكر فظيع . ذلك أن القائد قد يئس من الحياة فهو متهم فى فلورنسا بالخيانة وهو مقتول إن عاد إليها ، وهو لا يريد أن يعود ، ولكنه يريد أن ينتقم ، فهو يريد أن يبعث إلى المدينة المحصورة بكل ما تحتاج إليه من قوة ومؤونة وذخيرة ، لتصبح بين اليوم والغد قادرة على أن تستأنف الحرب وتنتصر فيها ، وهو لا يشترط لذلك إلا شرطاً واحداً . ولكن الشيخ قبل أن ينبئهم بهذا الشرط ينبئهم بأن مدينة « فلورنسا » المنتصرة قد أزمعت أن تمحو هذه المدينة المحصورة محواً لا تقوم بعده . فإذا تعجلوه فى ذكر ما يشترط المنتصر أنبأهم بأن المنتصر يطلب أن ترسل إليه « منا فنا » زوج ابنه « جويدو » عارية لا يسترها إلا معطفها ، فتمضى هذه الليلة . فإن قبل

أهل المدينة هذا الشرط وأرسلوا إليه هذه المرأة ، فهو مرسل إليهم كل ما وعد به من مؤونة وذخيرة فى الليلة نفسها ، وإن أبوا فالحرب وتدمير المدينة . لا يكاد القائد الشاب يسمع هذا الشرط حتى يثور ثائره ويبلغ الغيظ منه أقصاه ، وإذا هو مقتنع بأن أباه يرى رأيه ، وإذا هو يهنىء أباه بهذه الشجاعة التى سيصطنعها حين يعود إلى القائد فيلقى عنده الموت ، وإذا هو يزمع أن يذهب إلى الأسوار مع جيشه فيثبت لهجمة هذا الطاغية حتى يموت كريماً ويموت أصحابه كراماً . ولكن أباه ينبئه فى هدوء وفلسفة أنه قبل الشرط ، وأنه ينصح بقبوله وإن كان يراه عسيراً أليماً ، لأن فيه حياة شعب وجيش . وليس من الحق لفرد مهما يكن أن يؤثر سعادته على حياة آلاف من الناس . هنا حوار بين الأب وابنه مهما أقل فلن أستطيع أن أصف لك رقته وصدقه وجماله . هناك الشيخ يحب ابنه ويعطف عليه ويرثى له ويرى أنه شقى مظلوم ، ولكنه يحب الشعب ويعطف عليه ويرثى له من الجوع اليوم ، ومن الموت والتشريد غداً ، وهو يقدر الحياة الإنسانية والحرية الإنسانية ، ويرى أن سعاة ابنه مهما تكن ليست شيئاً أو لا

ينبغى أن تكون شيئاً بالقياس إلى حياة فرد فضلا عن شعب بأسره . وهناك الشاب قوياً شريفاً محتفظاً بشرفه مؤثراً أباه على كل شيء ، محباً لزوجه شديد الغيرة عليها ، فهو لا يسمع لأبيه إلا ساخطاً عليه ، وهو لا يحفل بالشعب ولا بحياته ولا بآلامه ، وهو لا يرى أن من حق الجماعة على الفرد أن تكلفه مثل هذه التضحية التى لا يستطيع أن يحتملها الإنسان . فقد ضحى بقوته ودمه ، وهو مستعد لأن يضحى بحياته دفاعاً عن مدينته ، ولكنه لا يستطيع أن يضحى ولا يريد أن يضحى وليس لأحد أن يطلب إليه أن يضحى بشرفه وحبه وسعادته دفاعاً عن هذه المدينة . فيجيبه أبوه بأن هذا كله قد يكون حقاً فى نظر الشباب ، ولكنه إذا فكر وروّى استيقن أن التضحية بالحياة على ما فيها من جمال ليست شيئاً بالقياس إلى التضحية بالشرف التى تطلب إليه الآن . على أن شيئاً من العقل والروية يهون عليه احتمال هذه التضحية . فالشر واقع من غير شك وستصبح امرأته فى يد المنتصر غداً إن لم تذهب إليه اليوم . ولكن الفرق أنها إن ذهبت إليه اليوم أحيت آلافاً من النفوس ، وإن لم تذهب أضاعت شرفها وشرف

زوجها ، وأهلكت المدينة بأسرها . أما الفتى فقد جن جنونه حتى اعتقد أن أباه مجنون وأن الشيخوخة والإشفاق من الموت هما اللذان انتهيا به إلى هذه الضعة ، وقد اعتزم ألا يسمع لأبيه وهو يشفق إن ترك أباه حراً أن يتحدث أباه بشيء من هذا إلى الناس فيغريهم به . أليس الناس حريصين على الحياة ! . فهو يأمر إذن صاحبه بأن يتخذ أباه سجيناً ، ولكن أباه يجيبه بأن ليس فى ذلك خير ولا نفع ، لأن الناس يعلمون من ذلك أنه تحدث إلى مجلس الحكم بما يشترط المنتصر قبل أن يتحدث به إلى ابنه القائد ، وإذن فليس الأمر سراً . فإذا سأله عن رأى مجلس الحكم فى هذا الشرط أجابه بأن مجلس الحكم لم يرد أن يقبل أو يرفض دون أن يسأل فى ذلك « منا فنا » نفسها . يزداد سخط الفتى حين يعلم أن شيئاً من ذلك قد يلقى على مسامع امرأته ، فهو مشفق على حيائها وعفتها وشرفها ، ثم هو مع ذلك واثق بجوابها قابل له مطمئن إليه . فينبئه أبوه بأنه سعيد بهذا الرضا . ذلك أن « منا فنا » قد قبلت ما اشترط المنتصر وأزمعت أن تذهب إليه الليلة . وهم فى ذلك إذ تقبل « منا فنا » شاحبة ممتقعة فيتلقاها زوجها متلهفاً

يسألها و يعلن أنها رافضة ، ولـكنها تجيبه فى هدوء : « سأذهب » ! ومهما يلح ومهما يضرع ومهما يغضب ومهما ينذر فهو لا يجد منها إلا جواباً واحداً : « سأذهب » !

***

فإذا كان الفصل الثانى فنحن فى خيمة القائد المنتصر « برنزفال » وهو بين اليأس والأمل ، ينتظر الساعة الموقوتة لا يدرى أتقبل إليه المرأة التى ينتظرها أم يقبـل إليه الشيخ . وقد دخل عليه كاتبـه يحمل إليه رسالة من ممثل حكومة « فلورنسا » فى الجيش ، وفى هذه الرسالة أمر بمهاجمة المدينة غداً و إنذار بالقبض عليه إذا لم ينفذ هذا الأمر . فيسخر القائد من هذا الكتاب ، فيظهر سخطه على ممثل الحكومة فى الجيش وعلى مدينة « فلورنسا » . ونفهم منه أن هذا الممثل كان قد كاد للقائد فى « فلورنسا » وأن القائد عليم بهذا الكيد ، ولكنه لا يريد أن يموت دون أن ينتقم ودون أن يقضى ألذ ساعة من ساعات حياته وأسعد وقت من أوقاته بلقاء هذه المرأة . ثم يدخل عليه ممثل حكومة « فلورنسا » فترى شخصاً قد بلغ الكاتب أقصى ما يمكن أن يبلغ من الاتقان فى تصويره ، هو ماهر فى

المكر والدهاء ، هو النفاق ممثلاً . يتحدث إلى القائد ، فإذا حديثه حلو خلاب ، وإذا هو كأنه أحرص الناس عليه وأشدهم رغبة فى استبقاء مودته ورفع شأنه . ولكنك تشعر بأنه لا يقول هـذا كله إلا كذباً ورياء . ويشتد الحوار بين الرجلين فإذا النفاق قد أزيل ، وإذا هما يتصارحان ، وإذا القائد ينبىء صاحبه بأنه على بصيرة بكل شىء ، وأنه منتقم منه ومن « فلورنسا » وأن مدينة « بيز » ستصبح غداً قوية منيعة عزيزة الجانب ، وهو يتحدث بذلك إلى صاحبه ، وإذا هذا الرجل الضعيف الذى لا يمثـل إلا الخداع والمـكر قد نهض إليه بخنجره يريد أن يقتله ، ولـكن الضربة أخطأت صدر القائد وأصابت وجهه ، ثم يعفو القائد عن هذا الرجل ويأمر به ، فيؤخذ سجيناً دون أن يصيبه أذى . وتقبل « منافنا » فإذا دخلت تلقاها القائد فى شىء من الاضطراب . أما هى فهادئة ثابتة مطمئنة لا تتكلم إلا قليلا . تجيب « نعم » أو « لا » حين تسأل . وهى تعلم ما ينتظرها . وهى مزمعة أن تكون عند ما يريد القائد . أليست قد أقبلت لهذا !

أراضية أنت به ؟ نعم !

ألا تأسفين له ؟

أكنت تريدني على ألاّ آسف !

أتريدين أن ترى ما سأرسله إلى المدينة من مؤونة وذخيرة ؟

نعم !

فيأخذ بيدها ويخرج أمام الخيمة ويشهدان معاً انطلاق العربات تحمل ما يرسل به إلى المدينة ثم يعودان وقد أدى ما عليه ، فيجب أن تؤدى هى ما عليها . يقودها فى لين ورفق إلى سرير غليظ جاف فتجلس ، وإذا هو قد جثا بين يديها وإذا هو يدعوها باسمها الذى لايعرفه إلا زوجها وأهلها ، وإذا هو يتحدث إليها فى صوت عذب ، وإذا حديثه رفيق برىء من كل غلظة أو جفاء ، وإذا هو ليس المنتصر الذى يريد أن يلهو وإنما هو محب يعبد حبيبته .

— من أنت ؟ أتعرفنى ؟ ثم يستمر بينهما حديث آية فى الرقة والطهارة والعفة . ذلك أنهما كانا صديقين ، كانت هى تعيش مع أمها فى مدينة « فينيز » فى قصر نخم عيشة الأغنياء ، وكان هو يعيش مع أبيه الصائغ عيشة التجار . فأقبل أبوه ذات يوم إلى القصر يحمل إلى أمها عقداً ورافق أباه وانتظره فى الحديقة ، فرأى

عند فسقية طفلة فى الثامنة من عمرها تنتحب ، لأن خاتمها سقط فى الماء ، فألقى بنفسه فى الماء يلتقط الخاتم ، وكاد يفقد الحياة ، وكان فى الثانية عشرة من عمره ، ولكنه استطاع أن يلتقط الخاتم وأن يضعه فى إصبع الطفلة ، فقبلته وكانت بينهما مودة اتصلت حينا .

— إذن ! فأنت « جانلو » ؟

— نعم !

— وكيف عبثت بك صروف الحياة ؟ وكيف انقطعت بك الغيبة عنى ؟

— سافرت مع أبى إلى أفريقيا فضللنا الطريق فى الصحراء ثم وقعت أسيراً فى يد العرب ثم فى يد الاسبانيين ، ثم عدت إلى إيطاليا فالتمستك فى « فينيز » فعرفت أن أمك فقدت ثروتها وماتت فقيرة ، وأنك تزوجت من رجل غنى عظيم الجاه فى مدينة « بيز » وكنت أحبك حباً لا أستطيع أن أصفه .

— وكيف لم تسع فى أن تلحق بى ؟

— كنتِ سعيدة ، وكنت شقياً . فآثرت لك السعادة ، ولنفسى الشقاء . ولقد طفت حول هذه المدينة ووقفت على أبوابها واجتهدت فى أن أراك فلم أوفق لذلك . ثم حاربت وانتصرت وأجّرت نفسى

للمدن ، وأجرت نفسى لمدينة فلورنسا ، فانتصرت لها فى حرب أو حربين ، وإذا أنا قائدها أمام هذه المدينة ، وإذا أنا أستطيع أن أراك !

هذه هى القصة .

هنا حوار لذيذ بينهما فى قيمة هذا الحب الذى أضمره لها الشاب . ترى هى أن هذا الشاب لم يف للحب بحقه ، فقد كان يجب عليه أن يسعى إليها ويلح فى السعى حتى يصل إليها ويرى أنه قد وفى للحب بحقه لأنه إنما أحبها لنفسها لا لنفسه .

— وإذن فأنت تضحى بشرفك وماضيك ووطنك لترانى ؟ يجب أن أعترف بأن هذه التضحية عظيمة جداً .

— يجب أن أنبئك بأنى لم أضح بشىء ، فليس لى وطن . ولو أن لى وطناً لما ضحيت به فى سبيل الحب ، وإنما أنا أجير ، وقد استيقنت إنى مقتول فى فلورنسا ، فأنت ترين أنى لم أخسر شيئاً بهذه الخيانة ، ولم أشتر هذه السعادة التى أذوقها الآن بثمن قليل أو كثير .

فإذا اعترف لها بهذا فى هذه الصراحة وهذا الصدق كان قد وصل من قلبها إلى كل شىء ، فإذا هى تحبه ، وإذا هى كانت

تحبه ، و إذا هى كانت تتكلف إخفاء هذا الحب ، ولكنها وفية لزوجها تحبه أيضا وتعطف عليه . وهو يحبها ولكنه يحبها حباً شريفاً نقياً ، فهو لا يريدها على سوء ، وهو يتعفف حتى عن تقبيل يدها ، وهى تترك له يدها لا تضن عليه بشىء لأنها تعلم أنه لا يطمع منها فى شىء . و إذا هما يستكشفان معاً هذا الحب العظيم الذى لا يعدله شىء فى الحياة عظمة وطهارة وقوة . و إنهما لفى هذه النجوى الطاهرة الحلوة التى تتجاوز بهما حدود الإنسانية إذ يذكران من ينتظرها فى المدينة ، وهو شقى بهذا الانتظار ، فتهم بالعودة لأن الفجر قد أقبل . ولكن كاتب القائد يدخل مضطرباً ينبىء بأن ممثلاً آخر لحكومة « فلورنسا » قد أقبل وقد انتصر على جيش « فنيز » . وهذا الممثل يتهم القائد بالخيانة ، ويريد القبض عليه ، فيجب أن يفر القائد وأن ينجو بنفسه . وهو يتحدث بهذا و إذا جلبة تسمع خارج الخيمة على بعـد كأن الجيش يثور بقائده ، أما القائد فهادىء مطمئن لأنه ينتظر الموت دون أن يكرهه أو يخافه بعد هذه الليلة السعيدة التى قضاها مع من يحب . ولكنها جزعة مشفقة تريد أن تنجى صاحبها .

— تعال معى إلى المدينة . فأنت فى ذمتى ، ولن يكون زوجى

أقل شرفاً وكرامة منـك ، فسأقص عليه كل شيء وسيعرف لك مكانك منى . . .

يتردد القائد قليلاً ثم يقبل ويخرجان أمام الخيمة وينظران فى الأفق ، فإذا مدينة « بيز » مضيئة ، وإذا آيات الابتهاج والغبطة ظاهرة تملأ الأفق ، وإذا هما مسحوران بهذه الزينـة مبتهجان لما بعثا فى هذه المدينة من حياة .

واذا الحب والابتهاج قد بلغا من هذه المرأة أقصاهما فضعفت لشدة ما قاومت ولشدة ما كظمت من عواطفها ، فهى تضطرب الآن ، وهى محتاجة إلى أن تعتمد على صاحبها لتمشى .

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فنحن فى مدينة « بيز » فى قصر « جويدو » والصبح قد أخذ يشرق « وجويدو » يتحدث إلى أبيه وإلى صاحبيه فهو مثقل بما احتمل من هم وما لقى من ضيم ، وهو يذكر أن قد تم البيع والشراء ، فأكلت المدينـة وشربت وفرحت وابتهجت وأخذت بحظها من السعادة ، وأخذ هو بحظه من الشقاء ، وقد تمت إرادة المدينة فيجب أن تتم إرادته . أما أبوه فيرثى له ويعطف عليه ، وينصح له بالاناة والروية ،

ويعترف بأن مصابه عظيم ، ولكنه يعترف بأن الأمر لو استؤنف لما تردد فى أن يسلك السبيل التى سلكها من قبل . ويشتد الحوار بينهما ، فإذا القائد مغضب يريد أن ينتقم لنفسه ، وإذا هو ساخط على أبيه يحتقره ويبغضه ولا يريد أن يراه . ولكن أصواتاً تسمع خارج القصر ولا تلبث أن تدنو ، فإذا ضجيج وعجيج ، وإذا صياح وهتاف . فإذا تبين القوم ذلك عرفوا أن « منافنا » قد أقبلت وأن الشعب يحييها ويحتفل بها ناثراً عليها الأزهار باذلاً ما يستطيع لإجلالها وإكبارها ، حتى إذا دخلت القصر ودخلت معها الجماعات المحتشدة ظهرت فرحة مبتهجة وتلقاها الشيخ فضمها إليه وقادها يريد أن يضمها إلى ابنه قبل أن ينصرف لأن ابنه كان قد طرده . ولكن القائد لا يكاد يرى زوجه مقبلة إليه حتى يدفعها دفعاً عنيفاً ، وحتى يصيح بهذه الجماعات المحتشدة يطردها ويزجرها .

— ماذا تريدون ؟ لقد أكلتم وشربتم وتستطيعون أن تأكلوا وتشربوا فانصرفوا إلى ما تريدون . إن فى عينى دموعاً لستم أهلاً لأن تروها ! .

يدفعهم فى عنف ويغرى بهم الحرس فينصرفون إلا شخصاً واحداً

هو « برنزفال » يدفعه وينذره ويهجم عليه يريد أن يؤذيه ، فإذا امرأته قد قامت من دونه تحميه :

— دعه :

ثم ما تزال به حتى تنبئه بأن هذا هو « برنزفال » . فإذا سمع اسمه تغير فى نفسه كل شىء ، فابتهج ابتهاجاً لا حد له ، وأقبل إلى النـاس يدعوهم ويستعيدهم ليسمعوا النبأ العظيم . ذلك أنه استيقن أن امرأته قد أسلمت نفسها لهذا القائد الوحشى ولكنها ما زالت به تخادعه حتى قادته إلى المدينة لينتقم لها زوجها منه . وزوجها سعيد ، فهو لم يكن يريد إلا أن يقتل هذا الرجل ، وهو كان يعتقد أنه سـيلقى فى ذلك عنـاء ، وسيتكلفه حينا طويلاً ، فكيف به وقد أصبح عدوه بين يديه ! .

يعلن هذا إلى الجماهير ويقبل على امرأته يريد أن يضمها ويقبلها شاكراً مغتبطاً ، ولكنها تدفعه وما تزال به وبالناس حتى تسمعهم صوتها عالياً : ألا أن هذا الرجل لم يمسنى . لقد قضيت الليل عنده وحيدة عارية لا يسترنى إلا معطفى ، ثم خرجت من عنده وكأنى خرجت من عند أخى . ولقد دعوته إلى المدينة على أنه جار لاجئ . فله ذمتى وله ذمتكم جميعاً .

أما زوجها فلا يكاد يسمع هـذا حتى يسقط فى يده ، وكأنه قد فقد رشده وصوابه ، فهو لا يصدق ما يسمع . وكيف يصدق ما يسمع ! وهل مثل هذا الحديث يلائم طباع الناس ! وكيف يستطيع أن يؤمن بأن هذا القائد قد أمسك عنده هذه المرأة الجميلة فخلا إليها وهى وحيدة عارية ثم لم يمسها ولم ينلها بأذى ! . . . ومن الذى يستطيع أن يصدق ذلك ! ؟ وفى الحق أن أحداً من هذه الجماهير لا يصدق ذلك ولا يؤمن له إلا الشيخ ، فإنه يخرج من الصفوف ويعلن أن المرأة صادقة ، فلا يلبث ابنه أن يتهمه بأنه يشارك هذين المجرمين فى جريمتهما . . . .

إذن فقد عجز عقل الزوج وعجزت معه عقول هذه الجماهير عن تصديق هذه القصة فهم لا يستطيعون أن يؤمنوا بأن الإنسان يستطيع أن يصل من الطهارة والعفة والسمو إلى هذا الحد ، وإذا هذا الزوج يلاطف زوجه ويصطنع ما يملك من حيلة ليحملها على الاعتراف بالإثم ، وإذا شىء من الجنون قد أصابه فهو لا يستطيع أن يطمئن ولا أن يهدأ إلا إذا سمع من امرأته أن هذا الرجل قد نالها بما يكره . . . وتيأس من تصديق زوجها وتيأس من تصديق الجمهور وهى واثقة بأن صاحبها مقتول إذا لم تكذب ولم

تعترف بأنه قد نالهـا بالأذى . فما أسرع ما تتغير ، وما أسرع ما تعترف كاذبة وهى تعلم أنها كاذبة بأن الرجل قد اقترف الإثم وأنها قد خدعته ولاطفته حتى قادته إلى المدينة لينتقم لها منه . ولكنها هى تريد أن تنتقم ، هى تريد أن تعذب هـذا الرجل وأن تقيس تعذيبها إياه بما منحته من لذة هناك حيث خلا إليها . هى تطلب وتلح فى الطلب إلا يناله أحد بالأذى وأن يوضع فى غرفة من غرف السجن ، وأن يكون إليها وحدها مفتاح هذه الغرفة لتفتن فى تعذيبه ! فمـا أسرع ما يطمئن زوجها وتطمئن معه الجماهير إلى هذا الحديث ، وإذا هم جميعاً مقتنعون بأنهـا الآن صادقة وهى تكذب ، وبأنها كانت كاذبة حين كانت تصطنع الصـــدق .

خدعوا جميعاً إلا الشيخ فقد فطن لكل شىء ، وأقبل إلى المرأة وقد أخذ ينالها شىء من الإغماء ، أقبل إليها يشجعها همساً ويحثها على أن تمضى فى الكذب ، فالكذب وحده وسـيلة النجاة لهذا الرجل الوفى الشريف . أما هى فماضية فى الكذب ولكن حبها لصاحبها قد تجاوز كل حد ، وأصبح لا يعدله إلا شىء واحد هو احتقار هؤلاء الناس الذين لا تستطيع عقولهم ولا نفوسهم أن تؤمن للحق إلا إذا صاغته على مثالها .

فانظر إلى هذه القصة و إلى فصولها الثلاثة . فأما الفصل الأول منها فآية فى تمثيل البطولة والتضحية والأثرة ، وهو يمثل هذا كله فى صدق ودقة لا حد لهما .

وأما الفصل الثانى فآية فى تمثيل البطولة النقية الطاهرة التى لا يكاد يعرفها الإنسان أو يلقاها إلا فى الكتب والأقاصيص .

وأما الفصل الثالث فهبط بك من هذه السماء الصافية النقية التى صعد بك الكاتب فيها فى الفصل الثانى إلى هذه الأرض التى يسكنها الناس ويعيشون فيها متأثرين بأخلاقهم ورذائلهم ونقائصهم الاجتماعية ، متأثرين فيها بالضعف الإنسانى الذى يحول بينهم و بين أن يروا الحق إلا إذا مسخ هذا الحق مسخاً وأصابه الفساد حتى لاءم نفوسهم .

نعم ! ينحط بك هذا الفصل من ذلك الملأ الأعلى الذى خلق لتعيش فيه الملائكة ، والذى هو جو كله صدق وصراحة وطهارة وبرّ إلى هذه الأرض التى لا يمكن أن تستقيم أمورها إلا بالكذب والرياء .

فبراير سنة ١٩٢٤

الطبعة الثانية سنة ١٩٤٢

طه حسين

لحظات

٢

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

العذراء المفتونة

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « هنرى بتايل »

أما اليوم فأريد أن أحدثك عن فن عجيب من فنون التمثيل . أريد أن أحدثك عن الكاتب الفرنسى « هنرى بتايل » . ولست فى حاجة إلى أن أقدمه إليك ، فأنت تعرفه من غير شك . ومن ذا الذى لا يعرف هذا الكاتب الذى فتن به الباريسيون خاصة والفرنسيون عامة ، والذى تأثر بهذه الفتنة ففتن بفنه وبالغ فى إتقانه والحرص على الإجادة فيه حتى قتله النقد فى يوم من الأيام ! . نعم ! قتله النقد ، واعترف النقد على نفسه بهذه الجريمة إن صح أن تسمى جريمة . فقد كان « هنرى بتايل » عليل القلب ، وقدم إلى التمثيل قصة لم تعجب النقاد ، فأنكروها وبالغوا فى إنكارها ، وكان وقع هذا الانكار شديداً فى نفس الكاتب ، فمات فجأة وهو يصحح تجارب هذه القصة التى قضت عليه . فالنقد إذن هو قاتله ، ومع ذلك

فلم يزد النقد على أن أدى واجبه للفن ، فأعلن رأيه متأثراً بطباع النقاد وأمزجتهم ؛ فكان حاداً حيناً ، وليناً رفيقاً حيناً آخر . أليست حياة « هنرى بتايل » وموته وأثر النقد فى هذه الحياة وفى هذا الموت من الموضوعات التى تصلح لإنشاء قصة تمثيلية مؤثرة ! .

لست أريد أن أقدم إليك هذا الكاتب الذى تعرفه ، وإنما أريد أن أقدم إليك فنه ، وأعتقد أن فنه فى حاجة إلى شىء من التفسير . على أنك تستطيع أن تلم بهذا الفن إلماماً حسناً إذا قرأت قصة واحدة من قصص هذا الكاتب . وأحسب أن أول ما يمتاز به « هنرى بتايل » أنه لا يقصد فى قصصه إلى فكرة ولا إلى نظرية ، أو هو لا يتخذ الفكرة أو النظرية مقصده الأساسى ، وإنما يقصد إلى الجمهور . يقصد إلى الجمهور دون غيره ، ويعمل فى الجمهور لا فى غيره . فموضوع القصص التى كتبها هذا الكاتب ليس فى حقيقة الأمر شيئاً إلا النظارة . ولكن يجب أن نتفق ، فلن تجد فى قصة من قصصه شيئاً يتحدث عن النظارة أو يشير إليهم ، وإنما تجد موضوعات مختلفة قصد إليها الكاتب فأتقن درسها وتحليلها وعرضها ،

ولكنه بنفس هـــذا الاتقان إنما تناول جمهوره من القراء أو النظارة فعبث بهم عبثاً لا حد له .

أريد أن أصف ما فى نفسى فأجد شيئاً من الصعوبة فى هذا الوصف ؛ لأن الفكرة التى أريد أن أتحدث بها إليك دقيقة جداً . أريد أن أقول إن الكاتب لا يفكر فى أن يدخل فى نفس النظارة أو القراء علماً جديداً أو يحدث فيها شعوراً جديداً ، وإنما يريد أن يتناول شعور القراء والنظارة وعواطفهم فيعبث بها ، ولكن فى نظام يلائم بينها حيناً ويخالف بينها حيناً ، وما يزال يجمع بعضها إلى بعض ، ويفرق بعضها من بعض ، حتى يصل إلى ما يريد ؛ وهو الانتهاء بنفس القارىء أو الشاهد إلى أقصى ما يمكن أن تنتهى إليـــه من التأثر والانفعال ، إن صح هذا التعبير . فالكاتب فى حقيقة الأمر لا يكتب ، وإنما يتخذ التمثيل سبيلاً يصل بها إلى نفوس النظارة وعواطفهم فيجمعها بين يديه ، فإذا اجتمعت له أخذ يتصرف فيها كما يتصرف عالم الكيمياء فى طائفة من المواد والعناصر اجتمعت له ، فهو يلائم بينها ويضيف بعضها إلى بعض ، ليصل بهذه الملاءمة والاضافة إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه من الفرقعة

العنيفة . وهذه هى لذته . لذته أن يثير عواطف الجمهور حتى يكاد يفنيها . لذته أن يعبث بهذه العواطف فيؤلف من مختلفها نظما تتباين بتباين ضروب العبث التى يعمد إليها ، كما يعبث الطفل بطائفة من الحصى جمعها بين يديه ، فهو يتخذ منها صوراً مختلفة متباينة . ولكنه ليس طفلاً ، وليس يقصد إلى العبث من حيث هو عبث ، وإنما هو فنى ، وهو يريد أن يثير فى نفس الجمهور أقوى العواطف وأشدها عنفاً . فليس التمثيل عنده شيئاً يغذو العقل ، وليس التمثيل عنده شيئاً يغذو الشعور ، أو هو لا يجعل غرضه الأساسى من التمثيل عنده فن يجب أن يؤثر فى النفس ، وأن يؤثر فيها قبل كل شىء . وسواء عليه متى وصل إلى هذا التأثير العنيف أأضاف إليه فكرة جديدة أم لم يضف ، أأضاف إليه شعوراً جديداً أم لم يضف ، وهو فى أكثر الأحيان خصب لا تخلو قصته من نفع . ولكن هذا النفع كما قلت ليس بالشىء الذى وضعت القصة من أجله . وإذا كان هذا هو فن الكاتب فهل نستطيع أن نقول إن هذا الفن حسن ؟ وهل نستطيع أن نقول إن هذا الفن خليق بالبقاء ؟ وهل من الحق ألا يقصد من التمثيل إلا إلى التأثير فى النفس وإثارة العواطف دون أن يفكر

الكاتب فى أن هذا التأثير خصب أو عقيم ؟ ثم أليس فى هذا النحو من فهم التمثيل شيء من الانحطاط المعنوى والإسراف فى الميل إلى المادة ؟ تريد أن تؤثر رغبة فى التأثير وأن تتأثر رغبة فى التأثر لا ترمى إلى غرض آخر غير التأثير ؟ فأى فرق بينك وبين من يطلب اللذة رغبة فى اللذة ؛ فهو يأكل لأن الأكل لذيذ لا لأنه يغذو ، وهو يشرب لأن الشرب لذيذ لا لأنه ينقع الغلة ويروى الظمأ ؟ أليس فى هذا النحو من تصور الفن والحياة شيء من ازدراء بالعقل والإعراض عنه ، بل من ازدراء الخير والزهد فيه ! ؟ أليس التمثيل على هـذا النحو سلسلة من التجارب خليقة بالعالم يدرس علم النفس ويريد أن يضع قواعده لا الفنى الذى يريد أن يظهر الناس على صورة من صور الجمال أو يهديهم إلى سبيل من سبل الخير ! ؟ أعترف بأن « هنرى بتايل » عالم نفسى ماهر ، يستطيع أن يحلل العاطفة فيصل من تحليله إلى أدق ما يمكن أن يصل إليه المحلل ، ثم يستطيع أن يلائم بين العواطف المختلفة فيصل من هـذه الملاءمة إلى تأليف أمزجة غريبة لم يعتدها الناس . ولكن عالم الكيمياء نفسه حين يحلل وحين يلائم لا يقصد إلى التحليل وحده ولا يقصد إلى الملاءمة وحدها ، وإنما يقصد إلى

شيء آخر هو فوق التحليل وفوق الملاءمة ، يقصد إلى العلم و إلى انتفاع الإنسانية بهذا العلم . قدّر هذا الانتفاع كما تشاء . قل إنه الانتفاع المادى إن كنت من العمليين ، وقل إنه الانتفاع العقلى إن كنت من النظريين ، ولكن هناك انتفاعاً إنسانياً تنتهى إليه مباحث العلماء الذين يحللون و يركبون . فما هذه المنفعة التى ينتهى إليها تمثيل هنرى بتايل ، وتحليله للعواطف وملاءمته بين المختلف منها ؟ ما هذه المنفعة الخُلقية أو الفلسفية أو الاجتماعية ؟ لو أنه ظفر بإيجاد منفعة قيمة لفنه هذا لكان فنه أجمل فنون التمثيل الحديث ، ولكنه لم يوفق فى أكثر الأحيان لهذه المنفعة التى يمكن أن تنتظر من فن كفن التمثيل يتجه قبل كل شيء إلى الجمهور لا إلى علماء النفس .

وأريد أن تكون القصة التى أحدثك عنها اليوم دليلاً صادقاً على ما قدمت .

* * *

نحن فى باريس ، فى قصر نخم ، لرجل من أشراف فرنسا ، بعيد الصوت ، رفيع المكانة ، عظيم الثروة ، حريص على مكانته وصوته وما ورث عن طبقة الأشراف من العادات وشدة

المحافظة ، هو الدوق دى شارنس ، وبين يدينا كاتبه الخاص يرتب أوراقاً على منضدة ، فيدخل عليه قسيس صديق للأسرة شديد الاتصال بها ، وعلى هذا القسيس آثار الإشفاق والاضطراب . يسأل عن صحة الدوق والدوقة والأسرة كلها فلا يجيبه الكاتب إلا بالخير . يسأل هل حدث حدث ؟ فيجيبه الكاتب : لا ! ويدخل الدوق فيصرف كاتبه ويخلو إلى قسيسه فينبئه بأنه دعاه لأمر جلل ، وأنه إن لم يكن قد أصاب الأسرة أو أحد أعضائها موت مادى فقد أصابها موت معنوى ، هو شر من كل موت . ولا يطيل فينبئه بأن رجلا صديقاً للأسرة كثير التردد عليها قد أغوى ابنته ، فهو لذلك جزع ، وليست امرأته أقل منه جزعاً . هو جزع لأمر فى نفسه ، جزع لأنه لم يكن ينتظر هذا من ابنته التى لم تتجاوز الثامنة عشرة والتى كان يراها مثل الطهر والنقاء . جزع لأنه لن يستطيع أن يضم ابنته إليه وقد أصابها ما أصابها من الدنس . جزع لأنه لا يكاد يتعمق الأمر حتى تثور عواطفه وتملكه تلك العادات التى ورثها والتى كلها حرص على الشرف واحتفاظ به . ثم جزع لأن المجرم صديق من أصدقائه المخلصين . وهو يحاول أن يكتم اسم هذا

الصديق ، ولكن الغيظ يملكه فإذا هو قد صرح بهذا الاسم ، فإذا هذا الاسم هو « مرسل أرمورى » ذلك المحامى المعروف الذى وصل إلى نقابة المحامين و بلغ من المجد منزلة دونها كل منزلة ، والذى عرف بالشرف والمروءة وجميل الخلق . ثم يقص عليه الأمر ، فإذا الصلات بين هذا الرجل و بين الأسرة ليست بعيدة العهد . ولكن هذا الرجل لم يكد يتعرف إلى الدوق حتى مالت إليه الدوقة فلاطفته و بشت له ودعته إليها كثيراً ، ثم التقت الأسرتان فى المصيف فاشتدت بينهما الصلات ، ثم عادت إلى باريس فاستكشف الأب رسائل غرام بين ابنته « ديان » و بين هذا المحامى . وهذه الرسائل لا تدع سبيلاً للشك فى أنهما آثمان ، ولكن الفتاة قد آثرت الصمت واعتصمت به ، فهى لا تجيب عن شىء . وهذا الأمر سر مكتوم يعرفه الزوجان وحدهما وقد أفضيا به إلى القسيس ليستعينا برأيه ومشورته . وتدخل الدوقة فإذا امرأة شديدة الحزن ، ولكنها رقيقة العقل مفتونة بالحياة وزينتها ولذاتها ، طاهرة ولكنها لم تشعر بطهارتها ولا تظن أن الطهارة تحتاج إلى شىء من الجهد ، أو أن فى لذات الحياة البريئة ما يعرض الفتيات والنساء للخطر .

فهى المسئولة عن إثم ابنتها ، لأنها أساءت تربيتها ، وقوّت فى نفسها الميل إلى الزينة والاستعداد للفتنة . وهى تعترف بذلك وتأسف له . وهما يستشيران القسيس فيما يصنعان فيشير عليهما بالمضى فى التكتم حتى لا يظهر الناس على شىء ، وبالاجتهاد فى إصلاح ما فسد من نفس الفتاة وخُلقها . وإنما السبيل إلى ذلك أن تكون السيرة معها شديدة قاسية ، فتحرم أسباب الزينة واللذة ، وتضطر إلى دير من هذه الأديرة القاسية الخشنة تخضع فيه للمراقبة الدينية ، حتى تبلغ الرشد ، ويلح فى ذلك ويبالغ حتى ينصح بأن يقص شعر الفتاة . أما الأم فتجزع لذلك ولكنها مضطرة إليه . وأما الأب فقد قبله فرحاً مبتهجاً وكلف القسيس أن يتخذ لذلك أسبابه . فيخرج القسيس ليسأل فى دار الأسقف عن أشد الأديرة ملاءمة لهذا الأمر . فإذا خرج دعيت الفتاة ، فيحاول أبوها أن يتبين منها جلية الأمر . فانظر إليه منذراً مخيفاً ، وانظر إلى زوجه رقيقة لينة ، والفتاة صامتة لا يخفيها النذير ولا تستلينها الرقة . ولكن الأب يتجاوز النذير إلى شىء من العنف . وقد ضاق بالفتاة صمتها فبدأت تقص أمرها ، وبدأت تقصه فى خفة وازدراء كأنها لا تشعر بما أتت من إثم ، وكأنها

لا ترى فى ذلك عاراً ولا عيباً . وكلما مضت فى ذلك ازداد أبوها سخطاً وعنفاً . ولكن أخاها يدخل ، وهو فتى فى المدرسة الحربية ، قوى شديد النشاط ، مبتهج ، مبتسم للحياة ، مؤمن بمذاهب المحافظين ، مخلص للملك ، وهو يفاخر بأخته ويظهرها فى كل مكان ، وهو سعيد لأن رفاقه معجبون بها يلاطفونها ويطمع كل منهم فى أن يتخذها زوجاً له . فإذا دخل تحول الحديث وأخبر بأن أخته مريضة ، فأظهر شيئاً من الشدة ثم اطمأن إلى الخبر فمازح أخته وأبويه . وهم كذلك إذ ينبىء الخادم بأن سيدة أقبلت للزيارة ، فينصرف الفتيان ، وإذا هذه السيدة هى زوج المحامى الآثم دعيت ليقص عليها الأمر . فلا تكاد تدخل حتى يتلقاها الزوج مقطباً محزوناً ، ثم لا تكاد تتحدث حتى يخبرها الخبر فى غير لين ولا رفق ، وإذا هذه المرأة قد صعقها الأمر فهى بين نازلتين عظيمتين : إحداهما أن زوجها قد خانها وهى تحبه وتهيم به . والأخرى أن زوجها قد أغوى هذه الفتاة ابنة صديقتها فأساء إلى أحب الناس إليها ، فهى لا تدرى كيف تعتذر ، وهى لا تدرى كيف تصلح ما أفسد زوجها . ولكن الدوق لا يطلب إليها إلا شيئاً واحداً وهو أن يستخفى

هذا الزوج من وجهه وألاّ يظهر الناس من إثمه على شيء ، وأن تنقطع بينه و بين الفتاة كل صلة . فإذا خرجت المرأة أعيدت الفتاة ، فما زال بها أبوها حتى عرف منها كل شيء ، ثم يتركها لأمها ، فتنبئها بما اعتزم من إرسالها إلى الدير . ترفض الفتاة ساخرة . فإذا ألحت أمها أظهرت الفتاة شيئاً من الرفض ثم من العصيان . ويدخل أبوها فينهرها نهراً شديداً ، ثم يرق لها ، و إذا هو يضرع إليها فى أن تذهب إلى الدير لتحتفظ للأسرة بكرامتها ولتصلح ما أفسد من أخلاقها ، فتظهر الفتاة الطاعة وتجيب فى رفق وقد أصلحت من أمرها ونظمت شعرها :
« سأذهب إلى الدير ! »

* * *

فإذا كان الفصل الثانى فنحن فى مكتب المحامى بباريس ، وأمامنا هـذا المحامى والفتاة وخادمها . ولا نكاد نسمع إلى حديثهما حتى نفهم أنهما قد تكاتبا واتفقا على الفرار ، وأن الفتاة خيّلت إلى أبويها أنها ذاهبة إلى الدير فأعدا لها كل شيء ، وخرجت ذلك اليوم تزور القسيس وضربت لأمها موعداً عند القسيس ، ولكنها أقبلت إلى صاحبها الذى أعد كل شيء

للفرار بعد حين ، وقد تم رأيهما على هذا الفرار ، فبعد دقائق ستأتى السيارة فتقلهما إلى حيث يركبان السفينة إلى انجلترا وقد أخفيا أمرهما وكتماه فلم يظهرا عليه إلا هذه الخادم .

ولكنهما يشفقان من هذه الخادم ، لأنها تحب سائق سيارة ، وهما يشفقان أن تكون هذه الخادم كارهة للرحيل ، وأن تكون قد أنبأت صاحبها به ، فتنكر الخادم ذلك وتقسم ، ويصدقها العاشقان ويأمرانها أن تذهب ، فتأخذ القطار حتى تصل إلى محطة كذا فتنتظرهما هناك ، فتنصرف ويخلوان .

ولست ألخص لك ما يدور بينهما من حديث كله حب وفتنة إلا شيئاً واحداً له خطره ، وهو أن المحامى ينصح للفتاة أن تفكر وتروى ، لأنه جاوز الأربعين وهى فى الثامنة عشرة ، وهو يخشى أن يكون حبها شيئاً من نزق الشباب وغرور الأطفال . وكلما ألح عليها فى ذلك لقيته بالسخط مرة وبالسخرية مرة أخرى حتى يؤمن بأن عزيمتها صادقة ، وأنها مستعدة لاحتمال ما ستلقى من الخطوب . ثم يسمع حركة السيارة ، فيدنو من النافذة وينظر ، فإذا هو يرى امرأته ، فهو جزع مضطرب ، وهى أشد منه جزعاً واضطرابا . تنصحه ألا يلقى امرأته فيأبى

ألا أن يلقاها ، فتستحلفه ألا يضعف ولا يلين فيحلف ، ثم يخفيها فى غرفة ويلقى امرأته . أما امرأته فتزعم له أنها مرت بالمكتب عفواً فصعدت لتراه ، وتطلب إليه أن يذهب ليدفع أجر السيارة ويبحث عن شىء نسيته فيها ، فإذا ذهب أسرعت إلى غرف المكتب تفتشها ، ثم عادت ومعها مفتاح ، ويعود زوجها فتنبئه بأنها تعلم كل شىء وأنه كان يريد السفر مع الفتاة وأنها أقبلت لتمنع هذا السفر . فإذا أنكر أظهرت له كتاباً تسلمته ينبئها بالأمر . فإذا أنكر أنبأته بأن الفتاة فى هذا المكتب . فإذا أنكر أظهرت له المفتاح وأنبأته بأنها رأت الفتاة وأغلقت الباب من دونها ، فيعترف بأن الفتاة عنده ، ولكنها أقبلت لتراه قبل أن تذهب إلى الدير . أما هى فلا تصدقه بل تضرع إليه فى ألا يفعل . وهما كذلك إذ تنظر من النافذة فترى أخا الفتاة مقبلا . تنبىء زوجها ، فيشتد جزعه ، ويطلب إليها المفتاح ليخلى سبيل الفتاة وليصرفها إلى بيتها متى أقبلت السيارة التى تنتظرها . ولكنها تأبى وتلح فى الإباء ، وتعد بأنها ستلقى الفتى لقاء حسناً وستخفى عليه كل شىء . ثم تضطر زوجها إلى الدخول فى غرفة ، وتستقبل

الفتى . فإذا سأل عن زوجها أنبأته بأنه هنا يتحدث إلى بعض الناس فى أمر له . ثم تسأله عن سبب زيارته فيظهر لها كتاباً كالذى فى يدها منكراً ذلك مستبعده . أما هى فتظهر الغضب لأن الفتى شك فى زوجها إلى هذا الحد . ويرى الفتى من اطمئنانها وهدوئها ما يقنعه بأنه كان مخطئاً وبأن الكتاب ليس إلا دسيسة فيعتذر ويكثر من الاعتذار . وتذهب « فانى » إلى زوجها فتدعوه ، فيظهر هادئاً مطمئناً ويتحدثون فلا يظهر الفتى من أمره شيئاً ، لأنه كان اتفق على ذلك مع « فانى » . ثم يزعم أنه أقبل يدعوهما إلى الصيد فيقبلان الدعوة . ويسترق المحامى لحظة فيلح على زوجه فى أن تدفع إليه المفتاح ليرسل الفتاة إلى بيتها ، فتدفعه إليه ، ويأخذه هادئاً ويتركهما لحظة على أن يعود . وهما يتحدثان وهى تريد أن تشغله عن النافذة حتى لا يرى أخته تخرج من المكتب وتصعد فى السيارة ، وما تزال به حتى تسمع حركة السيارة وانصرافها ثم تنتظر لعل زوجها يعود فلا يعود ، ثم تدعوه فلا يجيب . وإذا هى مضطربة ذاهلة تدنو من الاغماء شيئاً فشيئا . فيسرع الشاب إلى البواب فيدعوه . فإذا أقبل سألته « فانى » متحفظة عن السيارة : هل انصرفت

وهل صعد فيها زوجها ومعه امرأة ؟ فإذا أجابها نعم صرفته ثم صاحت جزعة . فيسألها الشاب فتنبئه بكل شيء . ولست أصف لك غضب الشاب ووعيده ، ولكنهما يتفقان على الانتقام .

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فنحن فى فندق من فنادق لندرا ، وأمامنا المحامى يتحدث إلى كاتبه ، ونفهم من حديثهما أن أسرة الفتاة قد تبعته ، وأن أخاها أرسل إليه شاهدين وطلب إليه المبارزة فرفض ، وأن الأسرة طلبت إليه موعداً للقاء فضرب لها موعداً هذا الفندق وهـذه الساعة . وهو لا يدرى من سيلقاه ، وهو لا يدرى ماذا ستكون نتيجة هذا اللقاء ، وهو يخشى الغدر ؛ ولذلك أحتاط فكتب كتابين أحدهما إلى « ديان » والآخر إلى وكيل أعماله فى باريس وهو يكلف كاتبه أن يحمل هذين الكتابين ويدفعهما إلى من كتبا إليهما . ويدخل القسيس فينصرف الكاتب . ويكون بين القسيس والمحامى حوار قيم لذيذ كنت أود لو استطعت أن أترجمه لك ، فقد يكون خير ما فى هذه القصة من حيث منفعتها العقلية ، ولكن الوقت والمكان أضيق من ذلك . يطلب القسيس إلى المحامى

باسم الشرف والمروءة وباسم ما تلقى الأسرة من الألم أن يرد الفتاة إلى أهلها ، فيأبى باسم الشرف والمروءة وباسم الألم أيضاً . ذلك أن الشرف شيء يختلف الناس فى تصوره : فللقسيس فيه رأى ، وللمحامى فيه رأى آخر ، فإذا كان القسيس يرى أن الشرف فى أن ترد الفتاة إلى أهلها حتى لا تسوء سمعة هذه الأسرة ولا يفسد مستقبل الفتاة والأسرة بريئة والفتاة جاهلة ، فإن المحامى يرى أن الشرف إنما هو فى أن يأبى تسليم الفتاة . أليست هذه الفتاة تحبه ! ! أليست قد وهبت نفسها له ! ! أليست قد لجأت إليه ! ! أليس قد حماها ووعدها بالوفاء ! ! أليس تسليمها نكثاً للعهد وخفراً للذمة وحرماناً للفتاة سعادة قد أطمعها فيها ! ! وإذا كانت الأسرة تألم فألمها سخيف ؛ لأن مصدره العادة والحرص على القديم . ولو أن هذه الأسرة حرة حقاً مستنيرة حقاً لما أنكرت من سيرة الفتاة شيئاً ، ولما قطعت الصلة بينها وبينها ، ولأقرت هــذا الحب فلم تضطر الفتاة إلى الفرار .

أما ألم الفتاة إذا ردت إلى أهلها فألم قوىّ صادق لا يعتمد على عادة باطلة أو قديم سخيف ، وإنما هو ألم السعيد

حرم سعادته ، والمشغوف حيل بينه وبين من يهوى . ويعجز القسيس من إقناع المحامى فينصرف قائلا : لقد حرمت التوفيق ، فلعل غيرى أحسن منى حظاً . ويخرج ، فتدخل من نفس الباب الذى خرج منه زوج المحامى . فانظر إلى الزوجين وجهاً لوجه . وانظر إلى ما يحدث فى هذا الموقف من تغير العواطف وتبدلهـا . أقبلت شجاعة قوية العزم ، وكانت تعتقد أنها ستكون عنيفة ، وأنها ستحسن الدفاع عن حقها وعن شرفها ، فأخذت كلما دنت من لندرا تفقد شيئاً من شجاعتها وقوتها ، حتى إذا رأت زوجها كانت قد وصلت من الضعف إلى حيث تتشجع فتكظم عواطفها وتغالب عبراتها وتبحث عن القوة المادية فلا تجدها ، وعن اللفظ فلا تـكاد تظفر به . أما هو فقد فجأه لقاؤها ؛ لأنه لم يكن ينتظر هذا اللقاء ، ولأنه يكبر امرأته إكباراً شديداً ويعطف عليها عطفاً شديداً ، ويرى أنه قد ظلمها ظلماً منكراً . فإذا التقيا على هذا النحو كان فى موقفهما جمال بشع . على أنها تحتفظ بكبريائها فلا تبكى ولا تستعطف ولا تطلب إلى زوجها أن يرحمها أو يرد إليها . أليست تعلم أنه لم يحبها إلا أسبوعاً ولم يشتهها إلا شهراً ، وأنه قد

عاش معها أعواماً طوالاً لا يميل إليها إلاّ متكلفاً . أما هى فقد أحبته منذ عرفته ، وما زالت تحبه رغم هذه الآثام وهذه المخزيات . وهو يدافع عن نفسه فلا تسمع له ولا تصدقه ، ولـكنه صادق ، فقد لا يكون حبه إياها قوياً ولـكنه أحبها ، وقد قوت المحن هذا الحب فأصبح الآن عظيماً . وهو كلما تكلم ظهر صدقه ، وكلما ظهر صدقه أثر فى نفس امرأته ، وإذا تحوّلٌ فى العاطفة . أما هو فشديد الهيام بزوجه ، يدنو منها يريد أن يضمها إليه . فأما هى فليست أقل منه هياماً ، ولـكنها أشد منه شجاعة وأعظم منه شعوراً بالـكرامة ، فهى تغالب عواطفها وتقف زوجها عند حده ، وتسأله عن شىء واحد تريد أن تعرفه ، تسأله عن هذ الحب الذى كلفه هذه الأهوال : أقوى حقاً أم هو لا يعدو الفتنة ؟ فاذا هو متردد يفكر ولا يجد جواباً صريحاً . ولـكن هذا التردد نفسه يكفيها فتقتنع بأنه لا يهزل فى هذا الحب وبأنه لم يتكلف ما تكلف مفتوناً أو عابساً ، فترضى وتطمئن إلى المنازلة .

وانظر إلى التغير الجديد فى عواطفها . أنظر إليها راضية مطمئنة تضرع إلى زوجها في شىء واحد وهو أن يعدها بأن

يكون إليها هى مرجعه إذا نابته نائبة أو دهمه خطب أو انقطعت الصلة بينه و بين صاحبته . تلح فى هذا الوعد لأنه سيكون الأمل الذى سيحبب إليها الحياة . يعدها ، و إذا شىء من الذهول لا حد له قد ملكهما جميعاً ، هى هائمة بزوجها تضحى بنفسها فى سبيله ، وهو يعجب بهذا الحب وهذه التضحية إعجاباً لا يزيده إلا هياماً ، ولكنها تصرفه وتلح فى ذلك لأن أبا الفتاة وأخاها ينتظران ويوشكان أن يأتيا . ينصرف ويدخلان ، فإذا كل شىء قد تغير ، وإذا هى تدافع عن زوجها ولا تتهم بالإثم إلا الفتاة ، وتسرف فى هذا الدفاع حتى تغضب الرجلين ، ويكون بينهما و بينها خصام عنيف ينطق فيه الفتى بألفاظ الوعيد .

* * *

فإذا كان الفصل الرابع فنحن مع العاشقين فى فندق آخر من فنادق لندرا ، وقد انتصف الليل وهما يتحدثان ، وقد أخذ منهما القلق . ولكنهما يكتمانه . هى مشفقة على صاحبها من أخيها ، وهو مشفق على صاحبته من أسرتها ، وهما يتكلفان الفرح فلا يصلان إليه ، وهى تلح عليه فى ألا يخرج

من غرفته فيضحك ويظهر الإباء ، ولكن الباب يطرق فيملؤها ذلك خوفاً ، فإذا ذهب صاحبها إلى الباب دفع إليه الخادم كتاباً فيقرؤه ، وإذا امرأته تطلب إليه موعداً ، وإذا هى تتعجل ذلك وتلح فيه . يأبى استقبال امرأته فى غرفة صاحبته فتلح عليه هذه فى استقبالها لأن الأمر جلل قد أصبح فوق هذه الاعتبارات كلها . فإذا استقبل امرأته وقد استخفت صاحبته فى غرفة النوم أنبأته زوجه بما كان بينها وبين أسرة الفتاة من خصام ، وبأنها أشفقت على حياته فراقبت الفتى حتى علمت أنه استأجر غرفة فى هذا الفندق فاستأجرت هى أيضاً غرفة فيه ، وأقبلت تنبئه بمكان الخطر ، وتسأله أن يلزم غرفته ولا يخرج ، فيأبى ، وتلح فيعدها . فإذا خرجت لم تكد تجاوز باب الغرفة حتى عادت مضطربة ، لأنها رأت الفتى واقفاً يترقب . وهى تحدث زوجها بذلك إذ تسمع دنو الفتى فتكره زوجها على أن يستخفى فى غرفة نومه وتطفىء النور . ويقبل متلطفاً ؛ فإذا دخل الغرفة عمدت هى إلى النور فأضاءته ووقفت من الفتى موقف الخصم تردعه وتزجره وتسأله عما أضمر من جريمة . فيجيبها : أقبلت أطلب أختى ، ويردعها هو أيضاً !

أليست تحمى عشق هذين الآثمين ! ! ثم يرفع الفتى صوته يعير خصمه الجبن والاحتماء بالنساء . فإذا أطال فى ذلك ظهر المحامى ومعه صاحبته ، فكان بين هؤلاء النفر موقف من هذه المواقف التى لا يحسنها إلا هذا الكاتب . يشتد الخصام بين الرجلين حتى يبلغ أقصاه ، يخرج الفتى مسدسه و يوجهه إلى صدر صاحبه ، و إذا المرأتان قد أقبلتا تحميانه وتتلقيان من دونه الموت . يكف الفتى يده دهشاً ، و إذا الزوج قد وقفت من زوجها موقف من يحميه و يتقى عنه . فانظر إلى هذه الفتاة العاشقة وقد رأت من خصمها هذه التضحية وهـــذا الحب فصاحت : إن غيرتى منك لشديدة ! إن حبك إياه لأعظم من حبى ، إن ألمك لعظيم وأنا مصدر هذا الألم .

ثم انظر إلى هؤلاء النفر وقد ثارت عواطفهم حتى كادوا ينسون العالم الذى هم فيه . أما الفتى فغيرانٌ ، يريد أن يسترد أخته وأن يقترف الإثم إذا لم يوفق . وأما المحامى فهائم بالفتاة معجب بزوجه إعجاباً ليس دون الحب . وأما الزوج فعاشقة تريد أن تسفك دمها لتحمى من تحب . وأما الفتاة فكلفة بصاحبها ولـكنها معجبة بهـذه المرأة ، ترى أنها قد ظلمتها ظلماً

فاحشاً ، فتسأل صاحبها سؤالاً تزعم أنه سيحل كل شيء : أينا تحب حقاً ؟ لا يتردد المحامى فى الجواب بل يقول فى صراحة وهيام : إنه يحب الفتاة و يؤثرها على امرأته . و بينما الفتاة تسمع هذا الجواب فيتألق وجهها بشراً وسروراً إذا المرأة تسمعه فتئن أنيناً مؤلماً ، ولكنها لا تغير من موقفها شيئاً . ثم انظر إلى الفتاة وقد أخذها ذهول يشبه الجنون ، فهى تدعوهم جميعاً فى لهجة الهائمة إلى أن ينظروا فى الغرفة كأن فيها شيئا عجباً ، فإذا أقبلوا جميعاً ينظرون فلم يروا شيئاً قال المحامى إنها مجنونة . فتجيبه : سترى أنى عاقلة ، و يسمعون طلق المسدس ، فإذا هى صريعة قد قتلت نفسها !!! . . .

فبراير سنة ١٩٢٤

الأم المفتونة

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « هنرى بتايل »

ليس هذا عنوان القصة ، بل ليس هو عنواناً دقيقاً لخلاصة القصة . ولكنه مع ذلك يعطى منها صورة ما . أما العنوان الصحيح فهو « الأم كوليبرى » . وهذا اللفظ اسم طائر صغير جداً يعيش فى خط الاستواء ، له بهجة وجمال يخلبان الأبصار ، وفيه قوة ونزق وخفة يضرب بها المثل . وواضح أن هذا اللفظ لم يطلق على بطلة القصة عبثاً ، وإنما أطلق عليها الشبه بينها و بين هذا الطائر . فهى امرأة قد ناهزت الأربعين ولكنها ما زالت محتفظة بشباب الفتاة التى لم تكد تتجاوز العشرين ، فهى رشيقه ، حلوة ، صغيرة القد ، خفيفة الحركة ، كثيرتها ، منطلقة اللسان ، عذبة اللفظ ، حرة فيه ، لا تكاد تصمت ، ولا تكاد تتكلم إلا بأبعد الكلام عن سنها ومقامها ومنزلتها من ولديها . فلها ولدان : أحدهما فى الثانية والعشرين ، والثانى

فى السادسة أو السابعة عشرة . ولكن الناس إذا رأوا هذه المرأة مع أحد ابنيها لم يفكروا فى أنها أم ترافق ابنها ، وإنما فكر بعضهم فى أنها أخت ترافق أخاها ، وتحدث أصحاب الظنون السيئة فى أنها فتاة لعوب ترافق عاشقها . وفى الحق أن كل شىء فى هذه المرأة يعطى منها صورة غريبة لا تمثل المرأة الجادة ولا الأم التى تشعر بأمومتها وتعرف لهذه الأمومة ما لها من حق أو كرامة ، وإنما هى فتاة نزقة لعوب ، لا تفهم الحياة إلا على أنها فصل من فصول اللهو وضرب من ضروب المجون . وهى تريد أن تلهو ما استطاعت إلى اللهو سبيلا ، وأن تأخذ من المجون والدعابة بأعظم حظ يمكن أن تأخذ به امرأة. وقد أحس ابناها شبابها هذا الغريب وخفتها المدهشة ؛ فلم يسمحا لأنفسهما أن يدعواها كما يدعو الابن أمه ، وإنما اتخذا لها اسماً يختصر شبابها وجمالها ولطف قدها وخفة حركتها ، فسمياها « الأم كوليبرى » . وهى تحب هذا الاسم وتفتن به ، وتساير ابنيها لا كما تساير الأم أبناءها بل كما يساير الصديق صديقه ، فهى تعبث معهما وتمزح ، وهى تشرب معهما وتدخن ، وهى تصغى لأحاديثهما وأسرار لهوهما وعبثهما ، ولا تتردد فى أن تضاحكهما . وربما نصحت لهما وأعانتهما

على أسباب اللهو والمجون . وهما يحبانها حباً لاحد له ، حبًّا مصدره الأمومة والبنوة ، من جهة ، ثم الشباب ومايستتبعه من الافتتان فى العبث والمجون من جهة أخرى .

وهذه الأسرة غنية نستطيع أن نقول إنها فاحشة الثروة . أما زعيمها البارون « دى ريسبرج » فرجل من أشراف بلجيكا عظيم الثروة ، أراد أن يختلط دمه بدم الفرنسيين أو يعيش فى فرنسا ويكون من ذوى المكانة والأثر فى حياتها العامة ، فتزوج من هذه الفتاة « إيرين » . وكانت يتيمة ، وكانت فى السابعة عشرة من عمرها ، ورزق منها غلامين أحدهما « ريشار » فى الثانية والعشرين ، قد تم درسه وأخذ يعمل مع أبيه ويشاركه فى حياته المالية ، وهو يريد أن يتزوج وقد خطبت له فتاة . وأما الآخر فهو « پول » فى السابعة عشرة من عمره ، وهو تلميذ يستعد لامتحان الشهادة الثانوية . وقد انصرف الأب إلى ثروته يدبرها ويثمرها ، وإلى حياته المالية يعكف عليها حتى أنسته كل شىء . أنسته زوجته فلم يلتفت اليها ولم يحفل بها ، وربما طلب لذته فى ساعات

قصار بعيداً عن داره . وهو مع ذلك يحب امرأته وأبنيه ويريد لهم حياة سعيدة لا يشوبها شر ولا سوء ، فهو يبيح لهم من أسباب النعيم شيئاً كثيراً . وقد أسكنهم قصراً فخماً ، وأطلق أيديهم في المال يأخذون منه حاجتهم وفوق حاجتهم ؛ لأنه يريد أن يستمتعوا بهذه الثروة الضخمة حقاً . ولكن امرأته على ضخامة ثروتها واجتماع أسباب النعيم لها لم تكن سعيدة ؛ لأن شيئاً آخر كان ينقصها هو الحب . الحب الذى يخفق له القلب ويفتح أمام النفس أبواب الأمل ، وينهض بصاحبه إلى حياة ليست كالحياة ، وإنما هى شىء كالحلم الذى لا يقظة منه . لم يتح لها هذا الحب لأن زوجها منصرف عنها بأعماله المادية ، ولأنه لايستطيع أن يتصور الحب على هذا النحو ، ولكنها مع ذلك لم تشعر بهذا النقص فى أول عهدها بالحياة الزوجية لأنها شغلت بابنيها وتربيتهما ، فكانت أماً قبل أن تكون امرأة . وأما الآن وقد بلغ هذان الغلامان أشدهما وأخذا يستقلان بالحياة ، فأخذ أحدهما يهيىء له عشاً لا يلبث أن يطير اليه ، وأخذ الآخر يستعد للشهادة الثانوية حتى إذا نالها ترك البيت وذهب الى إحدى المدارس العليا فاستعد لحياة المستقبل . نقول

أما الآن فقد عادت هذه المرأة الى نفسها وفكرت فى أمرها ونظرت فإذا هى قوية فتية ، وإذا قلبها جديد وجسمها جميل ، وإذا عواطفها حادة وحسها فى حاجة إلى التنبيه ، فأصابها شىء من القلق لم تتبينه أول الأمر ، ولكنها لم تلبث أن عرفت كنهه وأسبابه وتعرضت لنتائجه .

* * *

فاذا كان الفصل الأول ، فنحن فى قصر هذه الأسرة ، فى أجمل أحياء باريس . وقد دعت هذه الأسرة إلى العشاء نفراً من أصدقائها فيهم شباب قد انتحوا ناحيـة يشربون ويدخنون ويتحدثون بأخبار لهوهم وعبثهم . وفيهم نساء منهم سيدات تقدمن فى السن واحتفظن بالعادات والآداب القديمة ، فهن لا يتحدثن إلا فى الجد . وفيهن سيدات أخر من الجيل الحديث يكرهن الجد وينفرن منه ويطمعن فى اللهو ويصبون اليه . وبين أولئك وهؤلاء هذه الفتاة « مادلين » التى خطبت « لريشار » قد أقبلت هذه الليلة ومعها أمها تريد أن تتحدث إلى خطيبها ليتعارفا ويبلو كل منهما صاحبه قبل الزواج . وبينما الشـبان يتحدثون فيذكرون اللهو والمجون ويقص كل منهم

أخباره على أصحابه إذا السيدات قد خلون فى غرفة أخرى ، ولكنهن لا يمزحن ولا يضحكن لمكان أولئك السيدات المحافظات . وما هى إلا أن نرى الأم « كوليبرى » قد أقبلت مندفعة إلى الشبان فى نشاط وخفة تشكو سأمها وضيق ذرعها بصاحبتها ، وتلوم هذا الشباب على اعتزاله وانصرافه إلى أحاديثه الخاصة ، وتلح على هؤلاء الفتيان فى أن يذهبوا إلى السيدات ليدخلوا على اجتماعهن الفاتر شيئاً من حدة الشباب ونشاطه ، ثم هى تتكلم فى غير انقطاع ، وتتحرك فى غير هدوء باسمة لهذا الشاب ، مداعبة لهذا الشاب ، وترى الشواب فتستسقيهم فيسقونها ، وترى البيانو فتعمد إليه وتجرى أصابعها عليه فإذا إيقاع حسن ، وإذا الشبان قد فتنوا بها ، فهم يتحدثون بجمالها وخفتها ، منهم من يجهر لها بذلك فتبتهج ، ومنهم من يسر ذلك ويذكر لصاحبه أنه يشتهيها ولكنه يائس منها ! أليست أم صديقيه ! .. ثم هى امرأة على نزقها وخفتها شريفة معروفة بالعفة لم تذكر عنها سيئة قط . وهو يأسف لذلك أشد الأسف . ثم تنظر المرأة إلى الشبان يدخنون ، فتريد أن تدخن ، وهى لا تريد ذلك عفواً وإنما تريد أن تغيظ السيدات

المحافظات لعلهن يتعجلن فى الانصراف وتوفق لما تريد ، فلا تكاد تظهر للسيدات وفى يدها لفافة التبغ حتى يظهرن كره ذلك وإنكاره ، ثم يتعللن ويهممن بالانصراف ، ولا يبقى إلا السيدات المحدثات ومعهن الخطيبة وأمها قد بقيت كارهة لترافق ابنتها . ومعهن امرأة شيخة ولكنها تتفلسف فتزدرى الجديد ، وربما ابتسمت له وعطفت عليه وهى تحتفظ بالقديم لنفسها ، وهم يعرفون منها ذلك فلا يحفلون بها ولا يحتاطون أمامها . وفيها شىء من الصمم فهم يستطيعون أن يتبادلوا من الحديث ما يريدون لأنهم قد أمنوا أن تسمعهم . وهم لا يضنون على أنفسهم بالمزاح والإسراف فيه فيتبادلون أخف الألفاظ وأشدها إيغالاً فى العبث .

كلهم فرح ، وكلهم مبتهج إلا الفتاة الخطيبة ، فهى تريد أن تتحدث إلى خطيبها وهى تحتال فى أن تنتحى به ناحية ، وإلا أم الفتاة فهى تكره هذا الابتهاج وتمقت هذا المجون ، ولا تخفى مقتها على الأم فتلومها وتعاتبها . ولكن الأم لا تجيبها إلا ساخرة مزدرية ، فهى تهزأ بالزواج وقوانينه ، وهى تسخر من النظم الاجتماعية ، وهى لا تذكر إلا الحرية وإلا اللذة . وهم كذلك إذ يحمل إلى هذه الأم كتاب تنظر فيه ثم تخلو إلى ابنها ،

فإذا هذا الكتاب من عشيقة الفتى تنذره بأنها ستفضح أمره إذا تزوج . فيغضب الفتى لذلك وينصرف مع أصحابه ليفكروا فى الأمر ، وليردوا هذه المرأة إلى رشدها ؛ ولكنهم لا يكادون ينصرفون حتى يقبل صديق لهم اسمه « جورج دى شمبرى » فإذا ظهر أحسسنا من السيدات ميلا إليه وإعجاباً به ، ورأينا الأم تعنى به عناية خاصة ، فتتلطف له وتتحدث إليه فى دعابة ورفق . وينصرف الشبان ويبقى هذا الفتى . فما هى ألا أن تنصرف الخطّيبة وأمها ولا يبقى إلا تلك الشيخة التى أشرنا إليها وسيدة أخرى شابة ليست أقل نزقاً وخفة من صاحبة البيت ، على أنها لا تمكث طويلاً لأن صاحبة البيت طلبت إليها أن تنصرف فلا يبقى إلا الفتى والشيخة الصماء وصاحبة البيت هذه . ولذيذ جداً منظر هؤلاء الثلاثة ، فأظنك قد فهمت أن بين هذا الغلام وبين هذه المرأة صاحبة البيت صلات حب ، وهما يتحرقان شوقاً إلى العزلة ، ولكن الشيخة لا تبرح مكانها ، فهما يخدعانها ويتغازلان ، وهى تشعر مرة وتنخدع أخرى ولكنها لا تبرح مكانها ، وكأنها تجد شيئاً من اللذة فيما تشهد ، لأنه يذكرها شبابها . وقد كره العاشقان .

مقامهما فما يزالان بها حتى تشعر بأن الساعة متأخرة فتنصرف ، ويخلو العاشقان . وإذا الفتى فى الحادية والعشرين من عمره ، كان رفيقاً لابن صاحبة البيت فى المدرسة . وكان يختلف إلى صديقه . وكانت صاحبة البيت كثيراً ما تخرجهما من المدرسة للنزهة كما تفعل الأم مع ابنها ، ولكن الفتى جميل خلاب ، وفيه خفة وسذاجة ، فلا تلبث الأم أن تفتتن به ، وقد كثر اختلافه إلى البيت فارتفعت الكلفة بينها و بينه شيئاً فشيئاً ثم تجاوز الأمر بينهما حد الصلات المألوفة بين مثليهما ، فإذا هما عاشقان . . . وهما بهذا العشق سعيدان ، ولكن سعادتهما مختلفة . أما الفتى فسعيد على نحوِ ما يسعد الشبان ، لا يفكر فى غد ولا يحسب للمستقبل حساباً ، وإنما هو مندفع فى لذته وسعادته إلى غير حد ، وهو مغتبط بهذا الحب ، يشعر بشىء من الكبرياء ظفر بهذه المرأة التى كانت تستطيع أن تجد عنه منصرفاً لو أرادت إلى كثير من الرجال الذين يتبعونها و يتملقونها . وأما هى فسعيدة ولكن مع شىء كثير من الحزن والخوف والأسف أيضاً . هى سعيدة لأنها تحب الفتى . ولأنها قد وجدت ما يزيل ذلك القلق الذى أشرنا إليه ، ولأنها تشعر بأنها كالزهرة قد

تفتحت للضوء والندى ، فكلها حياة ، وكلها حسن ، وكلها عاطفة . ولكنها تعلم أن هذا الحب غريب منكر . أليس منكراً أن تحب المرأة صبياً هو رفيق ابنها فى المدرسة ؟ ثم ماذا يضمر المستقبل لهذا الحب وعن أى نكبة سيتكشف لهما الغد ؟ هى سعيدة ولكنها محزونة مشفقة . على أن هذا الحزن والإشفاق يزيدان فى حرصها من السعادة ويحملانها على أن تتزيد منها ما استطاعت وعلى أن ترى لحظتها سنة لأنها لا تعرف بم سيلقاها الغد . وهما يتغازلان فنراها مرة طفلة متهالكة على الحب واللذة . تعبد هذا الفتى عبادة لا حد لها ، وتراها حيناً محزونة واجمة . ثم يطول بهما هذا الموقف وقد بلغ الحب من الفتى أقصاه . فهو يريد أن يضمها إليه ، وبلغ الحب منها أقصاه أيضاً ولكنها مشفقة أن يدخل أحد ابنيها . أليس أحدهما يستطيع أن يعود من حين إلى حين !! ؟ أليس الآخر فى غرفته يدرس وقد يخطر له أن يأتى ليتحدث إلى أمه حيناً !! ؟ هى إذن تحتاط ، ولكن الشاب لا يطيق صبراً فترسله إلى غرفة ابنها الصغير ليتثبت من أنه منصرف إلى درسه ، فإذا خرج الفتى عمدت إلى كتاب وجلست تنظر فيه ، وهى كذلك إذ يعود الفتى فيعجبه منظرها

تقرأ فى الكتاب ، فيريد أن يقبلها على غرة ، وإذا هو يمشى على أطراف قدميه حتى لا تشعر به فإذا قاربها ولم يبق بينه وبينها إلا أن يميل إلى عنقها فيلثمه ظهر ابنها « ريشار » على باب الغرفة وقد رأى هذا كله فرفع صوته سائلاً عن أخيه فيلتفت الفتى مذعوراً ويتكلف المزح فيقول لقد كنت أريد أن أخيف أمك ! ! أما « ريشار » فقد فطن إلى الأمر ، ولكنه لا يظهر شيئاً وإنما يعيد السؤال عن أخيه ، ويتكلف « جورج » المزاح فلا يزيده تكلفه إلا اضطراباً ، ثم يكون بينه وبين صديقه حديث يظهر فيه الجفاء . أما الأم فلم تشعر أو لم تكد تشعر بتفصيل هذا المنظر لأنها كانت منصرفة إلى كتابها ، فتسأل ابنها عما حصل فيجيبها متكلفاً . . . . . ثم ينبئها أنه منصرف فتقول سيصحبك « جورج » . ينصرف الفتيان ، وتعود هى إلى كتابها فتنظر فيه . ولكن ابنها قد تكلف نسيان قلنسوته فيعود إلى الغرفة ، فإذا رأى أمه عاكفة على الكتاب تردد قليلاً ثم مشى على أطراف قدميه مشية صاحبه منذ حين وما زال كذلك حتى يدنوا من أمه وهى لا تحسه ولا تشعر به . فإذا بلغها تردد حينا ثم جاهد نفسه وإذا هو قد وضع

شفتيه على عنق أمه يقبلها قبلة العاشق . فإذا هذه المرأة تضطرب كلها . وإذا كتابها قد سقط من يدها ، وإذا هى تستلقى بين ذراعى مقبلها تناديه فى رفق نداء العاشقين ! . . . ثم تنظر فإذا ابنها وإذا هما ممتقعان ، أحدهما قد ملكه الغضب ، والأخرى قد ملكها الخزى . ولكن الفتى يملك نفسه فيقول لأمه : « عمى مساء يا أماه ! . . . » ثم يعمد إلى قلنسوته فيأخذها وينصرف .

☆ ☆ ☆

فإذا كان الفصل الثانى فقد أقبل الصيف ، وانتقلت هذه الأسرة من باريس إلى ساحل البحر واتخذت هناك بيتاً فخماً لم يتم استقرارها فيه . أما الأب فمنصرف فى أيام راحته إلى الصيد ، وأما أصغر الغلامين فعاكف على الدرس يريد ألا يسقط فى امتحان أكتوبر ، ونرى هذا الغلام جالساً إلى مكتبه يدرس ، وإذا أخوه قد أقبل وعليه آثار الاكتئاب كأن شيئاً ذا بال يشغله ، فيتحدث إلى أخيه حديث الجاد ، ويسمع له أخوه دهشاً حينا ثم يطمئن . ذلك أن أكبر الأخوين ينبىء أخاه بأن جورج قد أساء إلى شرف الأسرة إساءة منكرة ، وأنه لا يستطيع أن ينبئه بهذه الأساءة لأنه ما زال بعد صغيراً ولكنه محتاج

إلى معونتـه لأنه مضطر إلى أن يبارز جورج وإلى أن يخفى أسباب هذه المبارزة على أبويه وعلى كل إنسان ، ويريد أن ينتحل أسباباً سخيفة لهذه المبارزة . أما الغلام فكأنه قد فهم كل شىء ولكنه لا يظهر شيئاً ، وإنما يرى أخوه عليه آثار الثقة والاطمئنان والطاعة وقد ظهر على وجه الغلام تأثر شديد ، فهو ينظر فى كتابه ليخفى هذا التأثر ، وإذا جورج قد أقبل حسن اللباس جميل الزى يتكلف الزينة ، وإذا هو منطلق اللسان يتحدث إلى صديقيه فى مجون ودعابة ، فيقص عليهما أخبـار المدينة والمصطافين ، ولا يلقاه الاخوان إلا فى فتور وجفوة ، فيحس ذلك ولكنه يتكلف المزاح . وإذا « ايرين » قد أقبلت مندفعة كعادتها فى نشاط وخفة غريبين ، فلا تلتفت إلى ابنيها وإنما تتحدث إلى الفتى مبتهجة منطلقة اللسان : « لقد أحسست أنك أقبلت فأسرعت لأراك » ثم تمضى فى هذا الحديث فتذكر أنها كانت تعمل فى إعداد لون من الحلوى قد اخترعته هى ، وأنها قد وفقت وأنها تدعو الفتى ليذوقه هذا المساء ، وأنها تريد أن تخرج للنزهة فتدعو ابنها فيعتذر ، ويعرض جورج نفسه فتقبل مبتهجة ثم تنظر إليه وإلى لباسه فتنقده وتلاحظ ملاحظات دقيقة يتأثر منها الفتيان ، ثم تنظر إلى

قفازيه فتأخذهما وتريده على ألا يلبسهما . يأبى الفتى ، وتلح ، فيزداد إباؤه ، فتظهر أنها ستلقيهما فى الطين حتى لا يستطيع أن يلبسهما فيضرع إليها الفتى أن تردهما إليـه ، فتأبى وتنصرف ، فيتبعها الفتى و إذا هى تدور حول الغرفة ، تعـدو والفتى يتبعها من ورائهـا عدواً كما يفعل الشابان ، وأبناها ينظران إلى ذلك وقد ملـكهما الخزى والغضب . ولـكن العاشقين لا يحفلان بشىء من ذلك . و إذا الأم قد خرجت عدواً من الغرفة وتبعها الفتى فغابا حيناً ، وأقبلت الأم تعدو كأن جريها لم ينقطع ، فتجلس متعبة ويجلس الفتى إلى جانبها و يختلسان غفلة الفتيين فيضربان موعد اللقاء بعد قليل فى مكان غير بعيد . . . ثم ينصرف جورج و ينصرف أصغر الفتيين . وإذا الأم تلوم ابنها لأنه يتحدث إلى صديقه فى جفاء وغلظة لا يليقان ، ولأن الأدب وحسن اللقاء يكلفانه شيئاً غير هذا ، وهى تتحدث إلى ابنها بلهجة الأمر كما تتحدث الأم إلى طفل تريد أن تزجره . وهى تأمر ابنها أن يغير هذه السيرة ، فسيتعشى الفتى فى البيت هذا المساء ويجب أن تتلقاه لقاء حسناء ، ثم « لا أريد أن أسمع منـك شيئاً » ، وتهم بالانصراف . وقد جاهد الفتى نفسه . ولـكنه عجز عن أن يملـكها ،

فيدعو أمه ، فإذا التفتت إليه مغضبة طلب إليها فى رفق ألا تذهب إلى الميعاد . . . هنا موقف مؤثر جداً ! فانظر إلى هذه الأم كانت تزجر ابنها وتردعه فإذا ابنها يعلم كل شيء ، وإذا هى بين يديه مختلطة مضطربة لا تدرى كيف تقول ، وإذا الفتى يرفه على أمه ويرفق بها وكأنه يستعطفها ويترضاها : « لا أريد أن ألومك وليس لى أن ألومك ، وكنت أريد ألا أتحدث إليك فى ذلك ، ولكننى لم أستطع ، فأنا أضرع إليك ألا تذهبى إلى هذا الميعاد » . وإذا الأم تعتذر إلى ابنها وتستعفيه وتذكر شبابها الضائع ، وهذه القوة الجديدة التى أحستها منذ حين . أما الفتى فيصرفها عن هذا الحديث ويخطىء فيذكر لها أنه سينتقم لشرف أبيه . فتثور الأم وقد نسيت أمومتها وخزيها وزلتها ، وأخذت لا تذكر إلا شيئاً واحداً وهو أن عشيقها معرض للخطر ، وهى تريد أن تحميه ، فهى تسلك إلى ذلك كل سبيل ، تسخط حيناً فتنذر ، ثم تستخزى حيناً آخر فتستعطف . وقد انهلت دموعها . وأقبل زوجها وهى فى هذه الحال . . . فيسأل : فيخفيان عليه الأمر ، فيلوم ابنه ويزجره لأنه قد أغضب أمه وساءها . ثم تنصرف ، ويخلو الابن إلى أبيه .

ويحاول الأب أن يعرف شيئاً فلا يظفر بشىء ، فيحدث ابنه بأن لقى جورج فى الطريق وأنه يحب هذا الفتى ويعجب به ويريد أن يستعين به فى عمله ويلحقه بمكتبه . لا يكاد الفتى يسمع هذا حتى يثور ويظهر الخلاف لأبيه ، ويظهر الأب أنه مغضب ، وما يزال بابنه حتى يعترف له بأن بينه وبين جورج خصومة لا بد من أن يصفى حسابها . . . وهما كذلك إذ تعود الأم وقد لبست قلنسوتها تريد أن تخرج ، ثم يبدو لها فتعدل عن الخروج ، ثم يظهر الأب أنه خارج ليلقى جورج لأنه يحب هذا الفتى وينهض فيأخذ غدارة صيده فتنهض إمراته تريد أن ترافقه والرجل يلاحظ اضطراب إمرأته وتناقض حركاتها فيجلس ويلوم إبنه لأنه اضطر أمه إلى هذا الإضطراب . ثم يلح فى السؤال عما بينهما ، فيبالغان فى التكتم ، وإذا الرجل قد عرف كل شىء ؛ لأنه كان قد تخيله منذ حين فشك ثم قامت له البينة الآن ، وإذا هو قد بلغ أقصى غضبه ، وإذا هو يريد أن ينتقم من هذا الغلام ! فانظر إلى امرأته وإلى ما بينها وبين زوجها من الحوار ، تريد أن تحمى هذا الشاب فهو برىء وهى وحدها الآثمة . . . أليست أما ! ! أليس هذا الشاب طفلاً حدثاً ؟ لم يغوها وإنما أغوته ، وليس لأحد أن يعتدى عليه وقد فقدت

الآن كل عاطفة وكل عقل وأصبحت غريزة خالصة كأنثى الحيوان تدافع عن صغيرها وقد وقفت إلى الباب تريد أن تمنع زوجها وابنها من أن يتجاوزاه . . . ويشتد بينهما الحوار والخصومة فإذا هى تنكر النظم الاجتماعية وتسخر من الزواج والأسرة والأمومة ولا تؤمن إلا بشىء واحد هو الحب ، وإذا الشرف كما يتصوره الرجال ليس إلا أثراً من آثار الوحشية ومظهراً من مظاهر الأثرة وقسوة الرجل ، وإذا الرجال حين يذكرون العدل والشرف إنما يذكرون منافعهم وأثرتهم وقسوة قلوبهم . ثم تريدون أن تعدلوا ، فاقتلونى أنا لأنى أنا الآثمة إن كان هنالك إثم ! . . . : أما زوجها فيسلك معها سبلا مختلفة من الرفق والغلظة ، فإذا رأى منها هـذا العناد أعلن إليها أنها تستطيع أن تأمن على عاشقها ، ولـكن على أن تلحق به ، وعلى أن تخرج من هذا البيت فلا تعود إليه . . . وإذا هى تقبل فرحة مبتهجة ، ولـكنه فرح كله ذهول ، هو أشبه بالجنون وقد خرجت تعدو ويحاول ابنها أن يتبعها فيمسكه أبوه . . .

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فنحن فى ضاحية من ضواحى

الجزائر ، وقد مضى حين على ما كان فى الفصل الثانى ، واستقر العاشقان فى هذه البلاد ، لأن الغلام يؤدى فيها خدمته العسكرية وقد تبعته صاحبته ، فاتخذت فى هـــذه الضاحية المشرفة على البحر بيتاً جميلا تحيط به حديقة بديعة خصبة ، وهى تعيش فى هذا البيت عيشة لذة وبهجة ، قد تركت الاحتشام وأخذت من التبذل بحظ عظيم ، فهى لا تكاد تستر جسمها ، ولا تكاد تحتاط فى حركاتها ولا فى كلامها ، أليست ثائرة على الهيئة الاجتماعية وأخلاقها ونظمها وعواطفها ! ! أليست قد ضحت بزوجها وابنيها ومنزلتها فى سبيل هذا الحب ! ! ؟ وإذن فما الاحتشام وما تكلف الاحتفـاظ بالأخلاق ! ! ؟ كلها حب وكلها لذة . ولـكنها محزونة ! . . . فقد بلغت الأربعين وأخـــذت تحس انصراف الشباب ، وصاحبها فى الثـانية والعشرين لم يستكمل حظه من الشباب بعدُ . هى إلى الفناء وهو إلى الوجود . هى إلى الذبول وهو إلى النضرة . والأمر ليس واقفاً عند هذا الحد وإنما يجاورها قوم من الأمريكيين فيهم فتاة جميلة خلابة ماهرة ، وقد كان الحديث بينها وبين الشاب ثم استحـال الحديث إلى شيء من العاطفة يخفيانه ولـكنها تعلمه . فهى تحس الغيرة

وآلامها . وترى أن خصمها أقوى منها ، له الشباب ولها الشيخوخة ، ولكنها مع ذلك تجاهد ، وهى فى هذه الليلة تنتظر صاحبها وقد تهيأت لاستقباله وهيأت كل شىء ، ولكن صاحبها تأخر فهى تتمشى محزونة متكلفة الابتهاج ، ويقبل صاحبها . تلقاه مبتهجة محبة صادقة فى الحب وفى الابتهاج ، ويلقاها هو مبتهجاً محباً ولكن التكلف ظاهر عليه . فإذا جلس إلى المائدة أقبل الخادم يحمل إليه كتاباً بعثت به إليه الجارة ، فيظهر اشمئزازاً متكلفاً ، ويذكر أن هذا الكتاب قصة حدثته عنها الفتاة وأعارته إياها ليقرأها . أما صاحبته فتظهر أنها لا تحفل بذلك وتبالغ فى التلطف للفتى ومداعبته . ثم تدخل عليهما إمرأة شيخة شاعت عنها الأحاديث المتناقضة . فذكر الناس أنها أميرة لهت فى شبابها إلى غير حد ، حتى إذا بلغت سن الشيخوخة وقد لقيت كثيراً من الآلام أقبلت إلى الجزائر ومعها ثروة ضخمة فانصرفت إلى الخير واتخذت معملا للبسط تعلم فيه الفقيرات من أهل هذه البلاد ، وقد أقبلت ومعها صبيتان عربيتان ونماذج من أعمال تلميذاتها ، فيتحدثون وينتهز الفتى وجود هذه المرأة فينسل إلى جيرانه . فإذا خلت المرأتان تحدثتا

فى الحب ففهمنا أن هذه المرأة التى تركت كل شىء لتتبع عاشقها ليست مخدوعة ، وأنها تعلم كل شىء ، وتحس حب صاحبها لهذه الفتاة الأمريكية ، وأنها لا تريد أن تجاهد ولا أن تثقل على صاحبها ، وإنما تريد أن تترك له الذكرى جميلة نضرة لأنها تحبه حقاً .

وقد استعدت لذلك فكتبت كتاب الوداع ، وهى راضية مبتهجة حتى لا يشتمل هذا الكتاب على شىء مؤلم وهى تنتظر أن يدق الجرس وتشعر بوجوب الانصراف لتنصرف ذات يوم فى غير ضجيج ولا عجيج . وتحاول الشيخة أن تسليها وتطمئنها فلا توفق . ثم تعمد العاشقة إلى الكتاب الذى بعثته الفتاة فتنظر فيه فإذا صحف معلمة وإذا فى هذه الصحف جمل ذات معنى تذكر حب الفتيات ونقاءه وطهارته ، وإذا بين صحف الكتاب صورة فوتوغرافية للفتاة . ثم يأتى الفتى ومعه الفتاة ، فتلقاها « ايرين » مبتهجة مبتسمة ، وتتحدث اليهما حديثاً عذباً ، وتنصرف مع صاحبتها الشيخة الى النافذة كأنها تريها جمال الطبيعة وما سيحدث حين يخسف القمر بعد ساعات ، ولكنها تتحدث اليها فى أمر هذين الشابين وفى حبهما . . . « أتعلمين ماذا

يصنعان الآن ؟ إنى لا أراهما ولكنى أعلم ما يصنعان ، انهما يتصافحان ويضغط كل منهما على يد صاحبه ويجتهد كل منهما فى أن يقرأ فى عينى صاحبه ، وسألتفت الآن اليهما فى هدوء وبطء حتى يتمكنا من أن يفترقا » وهى صادقة فيما تقول ؛ فقد كان الفتيان يتصافحان ويتبادلان نظرات الحب ويتحدثان فى رفق حديث الحب . ثم تنصرف الفتاة ، فإذا رافقها الفتى قليلاً أنبأته بأنها ستلعب له شيئاً من الموسيقى ، ثم يعود الفتى وتنصرف الشيخة ، ويظهر الفتى أنه متعب ، فتشير عليه صاحبته بأن ينام فيفعل ، وتدنو منه تداعبه وتهزه كما تهز الأم طفلها وقد وضعت شفتيها على جبينه ، وما تزال كذلك حتى يغرق الفتى فى النوم . . . وإذا هى تسمع الموسيقى من بعيد ، إنها لتلعب له ولكنه منصرف عنها إلى النوم ، وكذلك الشباب . . . . ثم تتركه وتعمد إلى كتاب الوداع الذى أعدته فتقرؤه فاذا هى تتمنى فيه لهذا الفتى سعادة كلها صفو لا يشوبه شقاء ، تقرأ باكية وما زال صوت الموسيقى يصل إلى الغرفة فيمتزج بصوتها الباكى وغطيط النائم . . .

✲ ✲ ✲

فاذا كان الفصل الرابع فنحن فى باريس عند ابنها « ريشار » وقد تزوج من خطيبته ولكن بعد مشقة ؛ لأن قصة أمه كادت تلغى هذا الزواج ، وقد رزق من هذا الزواج طفلاً وهو يتحدث الى زوجه والى صديق له ، وهو يذكر أباه وأنه محزون ، وأن حزنه قد أذى صحته ، ثم ينصرف « ريشار » إلى كتاب يكتبه . وتتحدث زوجه إلى الصديق فيذكر أن الأم المفتونة وما يصل من أحاديثها إلى باريس وما يتحدث الناس به من مجونها وتبذلها ، وأنها تظهر فى حديقتها عارية أو كالعارية ، وأنها تسرف فى تبذير ما لها لتمتع صاحبها بكل لذات الحياة ثم تذكر الزوج أنها مطمئنة فقد اشترطت على زوجها أن تنقطع بينه وبين أمه كل صلة وقبل زوجها هذا الشرط . وهم كذلك إذ يدخل الخادم فيدفع إلى ريشار بطاقة ، ينظر فيها ثم يضطرب لها . . . « وأين هذه السيدة ؟ » — هى خارج الغرفة . « لتنتظر قليلا ! . . . » ويريد أن يتحدث إلى زوجه فإذا هى قد فهمت وإذا هى تجيبه فى عنف بأنه يعلم ما اتفق عليه ، وأنها لا تسمح بأن تدخل

هذه المرأة بيتها وأن له أن يراها لينبئها بذلك . ثم تنصرف مع الصديق ويأذن ريشار بادخال السيدة فإذا هى أمه محزونة تدافع عبراتها ، لا تكاد تثبت على قدميها ، ولا تكاد تنطق بتحية ابنها . . . وإبنها متأثر ، ولكنه يتجلد ويتكلف القوة ، فيحيي أمه تحية فاترة ، وتجلس فيسألها ما خطبها ؟ .

— لقد مررت بباريس فأردت أن أراك . . . ثم يسألها

— ومتى تعودين إلى الجزائر ؟

— لن أعود !

— وكيف ؟

— لقد انقطع كل شىء بينى وبين جورج ! . . .

— وماذا تريدين إذن أن تفعلى ؟

— لا أدرى ! أريد أن أتم حياتى وقد مررت بباريس فأردت أن أراك . . . وتسأله غن أخيه فيذكر أنه فى مدرسة الهندسة وأنها تستطيع أن تراه . ثم تسأله عن ابنه وتشكر له أن كتب إليها ينبئها بمولد هذا الطفل . فيخبرها أن ابنه بخير ، وأنه خرج مع مرضعه للنزهة ولكن المرضع تدخل فتسأل عن شىء وتعلم الأم أن ريشار يريد أن يخفى عليها ابنه ، فترى ذلك

حقاً ولكنه لا يزيدها إلا حزنا ولوعة . ويسألها كيف تريد أن تعيش : وأين تريد أن تقضى الشتاء ؟ فيظهر له أنها أنفقت كل ما كان عندها من المال ، ولم يبق لها إلا شيء ضئيل يستطيع أن يكفل لها حياة خاملة متواضعة .

— وأين أنا إذن ؟

فتجيبه بأنها لم تأت مستجدية وأنها قد نبذت أسرتها وهى أكبر من أن تضرع إلى هذه الأسرة . ولكن الحديث لا يكاد يستمر حتى تشعر أن هذه المرأة لا تستطيع أن تعيش وحدها وأنها قد لجأت إلى ابنها تسأله أن يعلمها كيف تعيش فلقد همت بالموت ولكنها عجزت عنه ، وهى لم تتعود هذه الحياة الخشنة حياة البائسات ، وهى لا تريد شيئاً ما وإنما تريد أن تتم أيامها ، فأرونى كيف أتم هذه الأيام ! ماذا تريدون أن أصنع ؟ يجب أن تروا لكم فىّ رأياً . اسكنونى حيث تريدون أبيحو لى أن أراكم وأن أرى هذا الطفل خُلسة إنى لأعلم أن اسمى يخجلكم وأن محضرى يخزيكم ، ولكن ماذا تريدون أن أصنع يجب أن تحتملونى حتى أموت . وقد بلغ بها التأثر أقصاه وفقد ابنها كل قوة فهو يضمها إليه ، ويقبلها ، وهى محزونة ولكنها

سعيدة بين ذراعى ابنها ، ثم يضطرها ابنها إلى غرفة ويدعو زوجه فيقص عليها الأمر فتلقاه فى عنف وغلظة ولكنها تتكلف هذا العنف وهذه الغلظة ، وإذا مخبرها خير من مظهرها ، وإذا هى رفيقة رحيمة فما أسرع ما تعمد إلى الغرفة فتفتحها وتدعو المرأة — ولكن فى غير رفق — إلى أن تأتى فترى طفل ابنها ... تأتى الأم متعثرة تكتم زفراتها فتتبع امرأة ابنها ذليلة مخفوضة الرأس . أما ريشار ففرح لأنه رأى من زوجه هذا الرفق وهذا العطف ، فيريد أن يتحدث إلى أبيه ليصلح بينهما ، ويعمد إلى التليفون ، ولكن أباه يدخل ...

— هى هنا !

— من هى ؟

— أمى !

لا يظهر الشيخ عجباً ، وإنما يظهر ألماً شديداً ، ويستعطفه ابنه فإذا الرجل قريب جداً من العفو وإذا هو يريد أن يعفو ولكنه يسأل ابنه :

— أذكر اسمى لها ؟

— نعم !

— أأظهرت شيئاً من الاستعداد للصلح ؟

— لا :

— إذن فليست تحبنى ، ولئن عرضت عليها العفو لترفضنه ، ثم العفو ؟ إنى لا أستطيعه ، إن عقلى ليدعونى إليه ، وإنى لا أراه حقاً وخيراً ، لكنى لا أستطيعه لأن شعورى يأباه وتربيتى لا تعين عليه وما ورثت من دين وعادة يحول بينى و بينه ...

وهنا حديث أقل ما يوصف به أنه وصف صادق لحياتنا العقلية فى هذا العصر . فعقولنا ترى أشياء يرفضها شعورنا وتنكرها عواطفنا ؛ ذلك لأن الجديد قد كسب العقول ، أما القديم فما زال مستأثراً بالعواطف والشعور . فنحن نرى أن هذه المرأة خليقة بالعطف والعفو وأن زلتها لها عذرها ، وأنها ليست أمراً لا يحتمل المغفرة ، ولكن عواطفنا الدينية والاجتماعية وشعورنا بالشرف والغيرة ، كل ذلك يحول بيننا و بين أن تكون حياتنا العملية ملائمة لحياتنا العقلية . و إذن فالشيخ يوصى ابنه خيراً بأمه ، ويعد بأنه سيقوم بحاجاتها جميعاً ، وسيجتهد فى أن يجعل الحياة عليها هينة لينة ، ولكنه لا يستطيع ولا يريد أن يراها ثم ينصرف ؛ وقد انحنى ظهره وظهرت عليه آثار التعب والعناء .

أما ابنه فيفتح باباً ، فاذا هو يرى المرأتين تتحدثان فى شىء من الصفو والمودة و بينهما الطفل قد جمع بين قلبيهما ، فيدعوهما سعيداً ، وتهم أمه أن تنصرف وقد قنعت بهذا العطف ، ولكنها تطمع فى أن تشعر بأن امرأة ابنها قد صفحت عنها ، وهى لا تريد أن تقول لها ذلك و إنما تطمع فى أن تقبلها فتعتنق المرأتان وقد امتزجت دموعهما ، و إذا الجرس يدق فيريد ريشار أن يخفيهما ليستقبل الطارق ، و يتقدم إلى غرفة وتتبعه امرأته وتبقى أمه كأنها تصلح من أمرها ، و إذا الخادم تدخل فتنبىء بأن فلاناً بالباب . تجيبها الأم وقد نسيت موقفها وخيل إليها أنها فى بيتها :

— ليدخل !

فإذا رأت تردد الخادم ذكرت موقفها ثم جاهدت نفسها وقالت :

— نعم ليدخل فأنا الجدة . . .

فبراير سنة ١٩٢٤

« المتجـــردة »

قصة تمثيلية للـكاتب الفرنسى « هنرى بتايل »

هى عندى آية من آيات الـكاتب ، ومن خير ما أخرج للناس فى التمثيل ، فيها كثير جداً من الحق ، وفيها كثير جداً من الدقة ، وفيها كثير جداً مما يملأ القلوب رحمة ويبعث فى النفس عاطفة الإشفاق الشديد ، ومع ذلك فأنا أتردد التردد كله حين أريد أن أحكم عليها من الوجهة الخلقية . ولعل الخير هو ألا أحكم عليها من هذه الوجهة ، وأن أترك القارىء يرى فيها رأيه . ذلك أن الـكاتب التمثيلى ليس مكلفاً فى كل وقت أن يتخذ الأخلاق الـكريمة غاية لما يكتب وغرضاً لما يضع من قصص تمثيلية . فقد يقصد الـكاتب إلى إظهار صورة من صور الحياة واضحة جلية ، وقد لا يتعدى قصده هذا الحد . قد يكون مصوراً فنياً لا أكثر ولا أقل ، وهو فى هذه الحالة قد يلائم

الأخلاق الكريمة وقد لا يلائمها ؛ لأن موضوع القصة أو الصورة التى أراد أن يظهر الناس عليها تلائم هذه الأخلاق أو تخالفها . على أنى أرانى غير بعيد من القصد فى هذا الحكم ؛ فان الكاتب التمثيلى أو القصصى الذى لا يقصد إلا إلى التصوير وحده ، ولكن إلى التصوير الصادق الصحيح . من خير الدعاة إلى الأخلاق الكريمة والحاثين على الفضائل التى اتفق الناس على إيثارها . فليس وحده مرشداً إلى الخير ذلك الذى يدعوك إليه ويدلك عليه صراحة دون رمز ولا إيماء ، وإنما يرشدك إلى الخير ذلك الذى يظهر لك الحياة أو صورة من صور الحياة على حقيقتها واضحة جلية ، بشعة أو جذابة ، تاركاً لعقلك أن يحكم حرًّا مختاراً دون أن يقدم إليك هو ما ينبغى أن تحكم به . وإذا كان هذا حقاً فليس يعنينى أن يكون الكاتب قد تعمد فى هذه القصة خلقاً من الأخلاق أو فضيلة من الفضائل فدعا الناس إليها . وإنما الذى يعنينى أن تكون هذه الصورة التى قصد إلى تصويرها صادقة واضحة ، وأن تكون من الصدق والوضوح بحيث تمثل للناس خلالاً يشعرون بالخير فى النفور منها ولست أشك فى أنه قد وفق إلى هذا كل التوفيق . ثم يعنينى

شيء آخر ، هو أن تكون للقصة قيمة علمية ، أو — بعبارة أوضح — قيمة تعليمية ، أو بعبارة أشد وضوحاً وجلاء — يعنيني ألا تشهد القصة أو تقرأها حتى تخرج منها بشيء جديد صحيح لم تكن تعلمه قبل أن تقرأ القصة أو تشهدها . وقد وفق الكاتب لهذا أيضاً . ثم يعنيني أن تكون الى هاتين الخصلتين مستثيرة للعاطفة باعثة لضروب التأثر الشديد ، تحمل من يقرأها أو يشهدها على أن يشعر شعوراً قوياً بالرحمة والإشفاق حيناً ، وبالسخط والغضب حيناً آخر . وقد وفق الكاتب إلى هذا أيضاً فكانت هذه القصة غريبة بين قصصه الكثيرة . فلعلك تذكر أنى كنت أقول لك عن هذا الكاتب إنه يعنى قبل كل شيء بإثارة العواطف واستحداث الجهاد العنيف بينها ، وإنه يتخذ التمثيل وسيلة إلى العبث بحس الجمهور وعواطفه ، وليس يعنيه إلا أن يرى هذا الجمهور متأثراً شديد الإضطراب . هو كذلك فى أكثر قصصه ، ولكنه فى هذه القصة يضيف الى هذه الخصلة هذه الخصال التى أشرت إليها آنفاً ؛ فهو يستثير العواطف القوية ، وهو يصور فيصدق فى التصوير ، وهو يعلم القارىء شيئاً لم يكن يعلمه ، وهو يظهر وجوهاً من

الخير والشر ينتفع الناس بظهورهم عليها . ثم إنى لم أذكر إلى الآن خصلة أخرى من خصال هذه القصة ، هى الخصلة اللفظية ، فلست أعرف للكاتب قصة بلغ فيها من جودة اللفظ ورقة الأسلوب ، وخفة الروح ، وسهولة الحوار ، وقصره ما بلغه فى هذه القصة . بل لقد بلغ من ذلك حداً أعتقد معه أن من العسير جداً إن لم يكن من المستحيل أن تترجم بعض فصول هذه القصة إلى لغة أجنبية ؛ لأن خصائص اللغة الفرنسية والعقل الفرنسى بلغت فيها من القوة والشدة حداً تستحيل معه الترجمة .

أراد الكاتب أن يصور لنا ضرباً من ضروب الحياة بين طائفة من طوائف الفرنسيين هى طائفة المصورين . وأنا زعيم لك بأنك لا تكاد تفرغ من قراءة هذه القصة حتى تلم إلماماً صالحاً بشىء غير قليل من أخلاق هذه الطبقة من الفنيين ، وألوان حياتهم ، وما ألفوا فيما بينهم من اصطلاح ، وما يشعر به كل منهم بالقياس إلى نفسه وإلى أصحابه . ولا تكاد تقرأ هذه القصة حتى تسأل نفسك أليس من الحق أنه إذا امتازت الطوائف وتكونت لها شخصية ظاهرة فلا بد من أن تكون لها

أخلاقها وخصالها ونظمها الخاصة التى تميز بينها و بين غيرها من الطوائف من جهة وتميز بينهـا و بين مجموع الأمة من جهة أخرى و بعبارة واضحة أليس هناك ضربان مختلفان من الأخلاق أحدهما الأخلاق العامة التى هى أخلاق الشعب جملة ، والأخرى الأخلاق الخاصة التى هى أخلاق الجماعات المختلفـــــة المتمايزة فللمصورين أخلاقهم ، وللعمال أخلاقهم ، وللمعلمين أخلاقهم وهلم جرا ؟ وإذن فالأخلاق لم تهبط من السماء ولم يبتكرها العقل ابتكاراً . ليست أثراً من آثار الدين ، وليست نتيجة من نتائج الفلسفة ، وإنما هى مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية . ولـكنى أحس أنى قد تعمقت وذهبت بك فى الفلسفة الى أمد بعيد . فلنعد الى القصة فهى أخف من ذلك روحاً وألذ عشرة .

* * *

نحن فى باريس ، فى قصر من قصور الفن الفرنسى ، يجتمع فيه المصورون وأصحاب التماثيل ومن إليهم من أصحاب هذه الفنون . وفى هـذا اليوم قدم المصورون آثارهم الفنية ، وهم يستبقون ليظفروا بالجوائز أو بالوسام الذى يمنح لأيهم تفوق فى

التصوير وقدم ما أعجب جمهور الممتحنين . ونحن نرى جماعات المصورين شباناً وشيوخاً وكهولاً ، ونرى بينهم طائفة من النقاد ، ونرى قليلا من عامة الناس قد أقبلوا يشتركون فى هذه الحفلة ، ونرى بنوع خاص قليـــلا من الفتيات اللاتى يعملن نماذج للمصورين ، أقبلن يشهدن حظوظ هؤلاء المصورين من هــذه المسابقة . وبين هذه الجماعات كلها أحاديث كثيرة مختلفة ليس إلى ترجمتها من سبيل ، ولـكنها كلها صور مصغرة من أخلاق هــذه الطائفة من الفنيين . ولست تستطيع أن تمضى فى هذا الفصل الأول دقائق دون أن تضحك وتغرق فى الضحك ؛ لأن لهؤلاء المصورين فى جدهم وهزلهم لغــة وأساليب وطرقاً من التصور مضحكة لذيذة حقاً . ولـكن الذى يعنينا من كل هذه الجماعات ومن حركاتها العنيفة المتصلة رجل واحد قد انتحى ناحية فى المقصف ومعه فتاة وصديق له ، وهو يريد أن يتجنب الحركة ويعتزل الضوضاء ، وهو قلق مضطرب شديد القلق والاضطراب ، وليست صاحبته أقل منه اضطراباً . هذا الرجل هو المصور « برنييه » وهــذه الفتاة هى نموذجه « لولو » أو « لولوت » أو « لويز » . أما الرجل فمتوسط العمر أدنى إلى

الشباب منه إلى الكهولة ، جميل الطلعة ، حسن الطبع ، يظهر أن له فى التصوير مقدرة ممتازة ، وهو قد قدم فى هذه المسابقة صورة امرأة متجردة ، صورها تصويراً خلفياً ، وهو يود لو ظفر بالوسام ولكنه شاب ، فهو لا يطمع فى الوسام وإنما يطمع فى أن يظفر من أصوات المحكمين بعدد لا بأس به . وينازعه مصور آخر شيخ ، ولكن هذا الشيخ بغيض إلى جمهور المصورين . وأما هذه الفتاة « لولوت » فقد قلت أنها نموذج المصور « برنييه » وهى فتاة جميلة جداً ، فقيرة جداً ، أو قل إنها معدمة بائسة كأضرابها من النماذج ، قد اشتغلت نموذجاً لطائفة من المصورين ولكنها اشتغلت عند اثنين يعنياننا بنوع خاص : أحدهما المصور « روشار » اشتغلت عنده سنتين وكان بينها وبينه حب فكانت له خليلة ، ثم انصرفت عنه إلى « برنييه » هذا ، فأقامت عنده ، وشاركته فى حياته ، وكانت فى الوقت نفسه خليلته ونموذجه فى التصوير وليست هذه الصورة التى يقدمها اليوم إلا صورة هذه الفتاة ، وهى تحب المصور حباً شديداً ، وقد تكلفت ضروباً من العناء لتسهل عليه الحياة ، وهى الآن ترجو أن يكون له من الفوز ما يكافىء شيئاً من هذا

العناء الذى تكلفته . فقد جاعت وجاع صاحبها ، وضيقت على نفسها وعلى صاحبها فى كل شىء إيثاراً للاقتصاد . ومع ذلك فهما مدينان للبان بمقدار ضخم من المال . فلو فاز صاحبها اليوم لاستطاع أن يبيع صورته فيؤديا دينهما ويرفها على نفسهما . والمصورون يصوتون ويصوتون ، وكلما فرغوا من تصويت ظهر أن الحظ مسعد « لبرنييه » فأمله يشتد ولكن خوفه يشتد أيضاً ، والناس من حوله يشجعونه ويؤيدونه ويمازحونه ويمازحون صاحبته ، وما يزالون كذلك حتى يبلغوا التصويت الأخير ، فإذا الفوز لصاحبنا « برنييه » ، وإذا هو قد نال الوسام بكثرة قليلة جداً ، ولكنه نال الوسام وأصبح مظهراً من مظاهر المجد الفرنسى فى التصوير ، وتغيرت حياته كلها فانقطعت الصلة بينه وبين الفقر ، واتصلت بينه وبين الثروة ، وسيقصد إليه منذ اليوم أشراف الناس وأغنياؤهم يشترون آثاره بالأثمان الضخمة ، وقد بدأ ذلك فأقبل إليه تاجر من تجار الصور فساومه صورته هذه ، وانتهت بهما المساومة إلى ٦٠٠٠٠ فرنك . وبينما هما يتساومان كانت « لولوت » دهشة ذاهلة لا تكاد تصدق ما تسمع . ستون ألف فرنك

بعد هذا البؤس الشديد . فسيؤدى إذن دين اللبان ، وسيعيشان عيشة ناعمة ، وستشترى قلنسوة طالما رغبت فيها وعجزت عنها .

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد ؛ فإن الحكومة الفرنسية نفسها تريد أن تشترى هذه الصورة وأن تعرضها فى متحف « لوكسمبرج » فليس لابتهاج الفتاة حد ، فلا ينبغى أن تنسى أن الصورة تمثلها ، فقد أصبحت إذن شيئاً رسمياً سيعرض فى متحف من متاحف الدولة ، حتى إن أحد أصحابها يمازحها فيقول : يجب أن تسعدى فسيعرض ظهرك فى متحف « لوكسمبرج » . فإذا مضى عليه شىء من الدهر انتقل إلى متحف « اللوفر » . يجب أن تسعدى ، فقد أصبحت أثراً من هذه الآثار الفنية الخالدة . وما كانت « لولوت » تحلم بأن الدهر قد ادخر لظهرها مثل هذا الحظ . . . ولكن هناك ما هو أجل من هذا خطرا ؛ فقد احتال المصور الفائز فى أن يخلص من أصحابه ومهنئيه ليخلو لحظة إلى صديقته ونموذجه « لولوت » ، فهما يتقارضان أحاديث الحب ويذكران بؤسهما و يقصان من أخباره شيئاً كثيراً مؤلماً : فتذكر هى أنها اضطرت ذات يوم مع أمها إلى التماس الصدقة فى الشـــوارع . ويذكر هو أنه كثيراً ما قضى الأيام جائعاً

لا يتبلغ إلا بكثرة من الخبز . وقد تقاسما هذا البؤس وأقبلت الثروة ، فيجب أن يتقاسماها وهو لا يريد أن يعيشا خليلين ، وإنما يريد أن يعيشا زوجين . فإذا سمعت هذا بلغ بها الابتهاج حداً يشبه الذهول ، ثم تطلب فى سذاجة ورفق أن يكون هذا الزواج فى الكنيسة ، لأنها تحب أن يبارك القسيس زواجهما . وينصرف العاشقان وليس لسعادتهما ولا لأملهما فى الحياة حد .

✲ ✲ ✲

فاذا كان الفصل الثانى فقد مضى على هذا كله حين من الدهر ، فاقترن العاشقان ، وأقبلت الثروة على « برنييه » إقبالاً شديداً ، فأصبح مصور الملوك والأمراء ، وغير نظام حياته كلها ، واتخذ لنفسه بيتاً فخماً يشبه القصر وأثثه بفاخر الرياش وبديع الزينة ، واتخذ عادة أغنياء الناس وأشرافهم ، فاعتزم أن يستقبل الزائرين مساء السبت من كل أسبوع ، وأن يحيى فى هذا المساء حفلات الرقص والموسيقى . وهو اليوم يبتدىء أول حفلة من هذا النوع . وبينما تغير هو تغيراً شديداً فقد ظلت امرأته على ما كانت عليه من سذاجة وجهل واستمساك بحياتها الأولى ، فهى مغتبطة بحياتها الجديدة ، ولكنها ليست مطمئنة فيها وهى

تجهل التقاليد جهلا شديداً يؤلم زوجها و يخجله فى كثير من الأحيان. وأصحاب زوجها وأصدقاؤه يرون ذلك و يشفقون على صديقهم ويلومونه بأنه تزوج هـذه المرأة الفقيرة التى خرجت من الطبقات المنحطة ومنهم من يغلو فى ذلك فينصح له بأن يخلص من هـذه المرأة و يتخذ له زوجاً غنية تلائم حياته الجديدة . . . وهو لا يستطيع أن يفكر فى هذا لأنه يحب هذه المرأة ، و يريد أن يفى بالعهد ، ويذكر أنها كانت شريكة بؤسه ، فيريد أن تكون شريكة سعادته . ولـكنه مع ذلك ضيق الذرع بها ، فهو ينافق و يتكلف الحب حين لا يشعر فى حقيقة الأمر إلا بالإشفاق أو شىء كالإشفاق هو لا يحتفظ لها بذلك الحب القـديم . وآية ذلك أنه بدأ يخونها ، و بدأ يخونها مع امرأة ألمانية إسرائيلية ضخمة الثروة باهرة الجمال ، أقبلت إلى فرنسا فاشترت لها زوجا من الاستقراطية الفرنسية المفلسة ، اشترت لها زوجاً له لقب الأمير ، فاتخذت لقبه ، وهو شيخ فان ، هو لا يضايقها و إنما يترك لها الحرية كلها ! لا يعنيه إلا أن يعيش عيشة تلائم مقامه ولقبه . وقد طلبت هذه الأميرة إلى صاحبنا المصور أن يصورها . وجلست للتصوير مرة ومرة ،

فكانت الرغبة ، ثم كان الحب ثم كانت الخيانة . وهو يخفى هذا الحب على زوجه ، ولكنه تسلم فى هذه الليلة حين كان يستقبل أصحابه وزائريه كتاباً من الأميرة تنبئه بزيارتها ، فهو قلق وجل ويقبل صديق له فينبئه بأن سعيه فى وزارة المعارف ليس بعيداً من الفوز ذلك أن صاحبنا المصور أصبح يستحى أن يظهر الناس فى متحف من متاحف باريس على امرأة عارية ، فهو يريد أن تنقل هذه الصورة من باريس إلى متحف من متاحف الأقاليم النائية . والوزارة تمانع فى هذا . وهو يتحدث الى صديقه إذ تقبل « لولوت » وقد سمعت كل شىء فيسوؤها رأى زوجها ويؤلمها ، لأنها سعيدة بأن تعرض فى متحف من متاحف باريس ، وهى ترى هذه الصورة فى هذا المتحف رمزاً لسعادتهما ، وهى تكره أن يغير شىء فى هذا الرمز . ويشتغل القوم بلهوهم وإذا الأميرة قد أقبلت وخلت الى المصور ، فهما يتحدثان فى الحب وألوانه ، ويذكران مواعيدهما وآمالها ويكادان يتجاوزان الحديث الى غير الحديث . . . ولكن « لولوت » قد أقبلت وكأنها سمعت من الحديث شيئاً . فلا تكاد تقبل حتى يلقاها العاشقان لقاء حسناً ولكنه متكلف . أما هى فتلفت زوجها

إلى أنه قد أهمل زائريه . فاذا انصرف الرجل وخلت المرأتان كان بينهما موقف مؤثر . ذلك أن « لولوت » تتحدث الى الأميرة فى صراحة مخالفة لما ألف الناس من ذوق وتقاليد ، تزعم لها أنها تحب زوجها حباً شديداً ، وأن زوجها يحبها أيضاً ، وأن من الإثم أن تعمد امرأة مهما تكن الى هذا الحب فتسيء إليه . أما الأميرة فتسمع هذا الكلام مبتسمة ، لا غاضبة ولا خائفة ، وإنما تهون على هذه المرأة المسكينة فى شيء من السخرية مر شديد المرارة ، ثم تظهر من العطف عليها والرفق بها ما يملأ قلبها اطمئناناً ، ثم تبالغ الأميرة فى هذا فتتخذ هذه المرأة صديقة وتنزع حلية كانت فى صدرها فتضعها فى صدر هذه المرأة ، وهما إذن صديقتان ، وقد أمنت « لولوت » كل مكروه . ولكن أمد هذا الأمن ليس طويلاً ؛ فلا يكاد هذا الموقف ينتهى حتى يتبعه موقف آخر يعيد إلى نفس « لولوت » ما كان فيها من اضطراب . تنظر فاذا عاشقها القديم « روشار » قد أقبل . فاذا سألت زوجها عن ذلك قال : دعوته بين الذين دعوتهم من الزائرين .

— وكيف فعلت ذلك وأنت تعلم ما كان بيني وبينه !

إنما أردت إذلالي !

ثم تخلو الى هذا الرجل فتلومه ، لأنه قبل الدعوة وأقبل الى هذا البيت ، وكان الذوق والرفق يقضيان عليه ألا يفعل. أما الرجل فيجيبها في رفق وصدق بأنه إنما أقبل سعيداً مغتبطاً ليراها سعيدة مغتبطة ، وأنه مستعد أن ينصرف وإلا يعود إذا كان هذا يرضيها . فتجيبه . . نعم فينصرف الرجل وقد أكد لها في لهجة صادقة مؤثرة أنه كان أحبها حباً صادقاً ، وأنه لا يزال يذكر هذا الحب ويتمنى لها كل سعادة . أما هي فقد عظم اضطرابها ، فهي تشعر بأنها وحيدة ، وكأن الناس جميعاً يأتمرون بها . ألم تسمع أن زوجها يريد أن يبعد صورتها من باريس ؟ ألم تحس أن بين زوجها وبين الأميرة شيئاً يشبه الحب ؟ ألم تنكر زيارة هذا العاشق القديم ؟ ثم لا تمضي دقائق حتى يظهر أن الناس يأتمرون بها حقاً . أخذوا ينصرفون ومن بينهم الأميرة وأخذ الزوج يعين الأميرة على لبس معطفها ، فانتهز هذه الفرصة للمغازلة ، فهو يطلب قبلة الى صاحبته ، وهي تقول له . بل تنسمني . فهذا يكفيك الى غد ، وهو يتنسمها .

ولكن « لولوت » من ورائه قد رأت وسمعت ، وإذا هي تصرخ صرخة منكرة ، وقد انتزعت معطف المرأة فألقته الى الأرض. والتفت الناس جميعاً ومن بينهم الأمير الذى كان قد أقبل يقود زوجه ، فاذا هذا الأمير قد أقبل على زوجه فى هدوء وهو يقول : إن هذا لمؤلم أيتها العزيزة . وكان من الحق أن تربئ بنا عنه ، ثم يقدم اليها ذراعه وينصرفان . أما « لولوت » فقد سقطت على الأرض واجتهد زوجها وصديق له حتى صرفا الناس . وأقبل الرجل على امرأته يرد اليها الحس والحركة ، فاذا أفاقت أخذت تبكى بكاء مراً ، وأخذ هو يهون عليها ويعتذر اليها ، ولكنها مغرقة فى البكاء لا تسمع له ، وإنما تردد هذه الكلمات : ما أشد هذه الوحدة ؟ ما أشد هذا الألم !

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فقد تقدم هذا الحب الآثم حتى أصبح حقيقة واقعة لا ينكرها العاشقان ، وإنما يريدان أن يجعلاها أمراً شرعياً . أما الرجل فيريد أن يطلق امرأته ، وأما المرأة فتريد أن تطلق زوجها ، ثم يكون بينهما الزواج بعد ذلك . ونرى فى أول الفصل الأمير قد قبل الطلاق على أن تدفع له

امرأته مقداراً ضخماً من المال يكفى لحياته ومنزلته ، وهى مستعدة لأن تؤدى إليه كل ما أراد . ولكن « لولوت » ترفض الطلاق ، وقد أقبلت إلى الأمير تريد أن تتخده حليفاً ، حتى إذا اتفقا على رفض الطلاق لم يتمكن هذان الآثمان مما يريدان . ولكن الأمير قد قبل الطلاق وهو يسخر من زوجه ، ومن الزوجية ، وهو يحتقر الجماعة ونظمها وأخلاقها ، ولا يحفل إلا بشىء واحد هو ما بقى من حياته على نحو يعصمه من الفقر والإفلاس والانحطاط عن منزلته ومنزلة آبائه ، وهو ينصح لهذه المرأة ألا تتشدد ، وينذرها بأن نتائج التشدد ستؤذيها دون أن تنفعها . فتنصرف المرأة مزدرية لهذا الشيخ ساخطة على النظام الاجتماعى شقية بحظها ، ولكنها رأت زوجها مقبلاً إلى بيت الأميرة فعادت . وما كاد الزوج يلقى الأميرة حتى يكون بينهما حديث مؤلم حقاً ولكنه آية من آيات الفن . ذلك أن هذا الرجل يشعر بأن حبه آثم وبأنه مقبل على جريمة ، ويحاول ما استطاع أن ينصرف عن هذه الجريمة ، ولكنه لا يستطيع ؛ لأنه لا يكاد يرى الأميرة حتى يفقد عزمه وقوته على المقاومة ، وإذا هو أعلوبة فى يدها . أما هى فترضى منه هذا الشعور وتحمده له

ولكن إلى حد . . . فهى تحبه أيضاً وهى لا تضحى بهذه المرأة ، أليست تريد أن تمنحها من المال ما يضمن لها حياة سعيدة صالحة ! ويشتد الحوار بينهما حتى تغضب الأميرة ، ولكنه غضب خاص ، غضب يراد به استثارة الحب والشهوة ، وهى تبلغ من ذلك ما تريد ، حتى إذا استوثقت أنها قد أضرمت الرجل إضراماً نهضت فألقت معطفها وظهرت فى ثوب كله ترغيب واستغواء . . . فيدنو الرجل منها ، يشمها ويقبلها ويضمها ، وإذا الباب قد فتح وظهرت « لولو » فلا تكاد تظهر حتى يظهر معها الكاتب ومهارته المعروفة فى تغير المواقف والعبث بالعواطف . فانظر إلى هذه المرأة مغضبة ساخطة قد استطاعت أن تضطر هذين العاشقين إلى أن يسمعا كل ما أرادت أن توجه إليهما من سب ولوم . ثم انظر إليها قاضية تأخذ بالعدل وتريد أن تعرف ما قدر لها بين هذين العاشقين . فهى أيضاً عاشقة ولحبها الحق فى الحياة ، ثم هى زوجة ولها حقوق الزوجات . ثم انظر إليها ضارعة قد جثت أمام عدوتها تستعطفها وتترضاها وتطلب إليها أن تترك لها زوجها . ثم انظر إلى هذه العدوة قد اضطربت كلها لهذا الموقف ، فخيرت الرجل بينهما . أما الرجل

فلا يختار ، وإنما يريد أن يخرج مع زوجه ليفرغ من هذا الموقف المؤلم ، أو يريد أن يصرف زوجه ولكن زوجه قد رأت وفهمت ، فانظر إليها قد اقتنعت بضعفها واستيقنت أن الشر واقع لا محالة ، فأذعنت وأقبلت إلى المائدة وكتبت بيدها طلب الطلاق ودفعت الكتاب إلى زوجها وانصرفت . . .

☼ ☼ ☼

فإذا كان الفصل الرابع فنحن فى مستشفى من مستشفيات باريس نشهد فى حجرة من حجراته « لولوت » فى سرير المرض . ولكننا نعلم أنها بارئة لا خطر عليها ؛ ذلك أنها انصرفت عن زوجها إلى بيتها وقد بلغ منها اليأس أقصاه ، فأرادت أن تقتل نفسها ، ولكن يدها اضطربت فأخطأت القلب وأصابت الرئة ، واستطاع الطبيب أن ينجيها . وأخذت الحياة تعود إليها ، وأخذ الأمل يعود مع الحياة ، فهى قد كلفت أختها أن تتبع زوجها وتتبين ما بينه وبين الأميرة من صلة . وقد أقبلت أختها فتنبئها بأن الصلة قائمة متينة بين العاشقين ، فهى إذن يائسة وهى إذن ستألم . ولكن الأميرة قد أقبلت تعودها وتحمل إليها أزهاراً ، فإذا خلت إليها سألتها

العفو والمغفرة ، وأعلنت إليها أنهـا سترد إليها زوجها ، وأنهما قد اتفقا على ذلك . ولـكنها لا تثق بشيء من هذا ولا تطمئن إليه . ويقبل الزوج وتنصرف الأميرة ، فيحدثها بمثل ما تحدثت به الأميرة . وتفهم من حديثه أنه يريد أن يحتفظ بالزواج ويعيش معها ولكن عيشة الأصدقاء والأخوان ، لا عيشة الأحباء والعاشقين . أما هى فلا تسمع ذلك إلا ألمت له ، لأنها تحب ، ولأنها ترى أن ليس لحبها صدى فى نفس زوجها . وما تزال بزوجها حتى يغضب ويحنق ويعلن إليها أنه مستعد لأن يضحى بكل شيء عطفاً عليها ورفقا بها ، فهو لا يملك غير هـذا . وكيف تريده على الحب وهو لا يملك هذا الحب ! وهل الناس يحبون لأنهم يريدون أن يحبوا ! ثم ما يزال بها حتى تظهر له شيئاً من الرضا . فينصرف على أن يعود بعد حين . ولا تكاد تخلو إلى نفسها حتى تشعر بألم وضيق فى التنفس ، وإذا هى تريد الهواء وتريد الضوء وتريد الحياة ، فتعينها الممرضة حتى تترك السرير وتفتح لها النوافذ ، فاذا دخل الضوء والهواء ابتهجت لهما . ولـكن زائراً قد أقبل ، هو عاشقها القديم « روشار » .

أقبل لأنه علم بكل شيء ، وتردد على المستشفى يتعرف أخبارها منذ كانت الحادثة . وهو الآن قد علم من الطبيب أنها بارئة وأنها تستطيع أن تخرج من المستشفى متى أرادت . وهو يعلم أنها تعسة وأن شفاءها لم ينته بعد ، وأن هذين العاشقين سيتخذانها جسراً إلى سعادتهما وهو يحبها ، وهو لم ينس ذلك الحب القديم ، وهو لا يريد إلا أن يفى لها ويحملها إلى ذلك البيت الذى نشأ فيه حبهما القديم ، فى ذلك البيت تتم شفاءها ، وفى ذلك البيت تستقبل الصحة والحياة ، فإن أرادت أن تمضى لوجهها فلن يمسكها . . .

— نعم ! إنى لأريد الصحة ، وإنى لأريد الحياة . . . احملنى . وما أسرع ما تحمل إلى عربة تنتظر وقد أمرت أن يرسل متاعها إلى بيت « روشار » .

***

إلى هنا تنتهى القصة فى التمثيل ، ولكنك تريد أن تعرف ماذا يكون من أمر الزوج ، فيقصه عليك الكاتب لتقرأه لا لتشهده على المسرح . يقبل الزوج فلا يرى زوجه ، فإذا

تبين الخبر أخذه شيء من الوجوم ، وأخذ يحدق فى السرير يتبين مكان زوجه وشكل جسمها فى الفراش . ثم ينظر فإذا أزهار على السرير فيأخذ منها زهرة ينظر إليها ثم يحملها إلى فمه وإذا هو يبكى . . . !

مارس سنة ١٩٢٤

الفضيحــــة

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « هنرى بتايل »

أعتذر قبل كل شىء من هذا العنوان ، فلست مبتكره ، وإنما أنا مترجم ، وليس لى أن أتصرف فى الترجمة إذا كان اللفظ واضحاً جلياً . وليس من شك فى أن الكاتب قد أراد ما كتب وفى أن القصة تعبر تعبيراً حسناً عما أراد ؛ فهى فضيحة ولكنها لا تخلو من عظة وعبرة . وأى فضيحة تخلو من عظة وعبرة ! هى فضيحة نافعة ، وهى فى الوقت نفسه لذيذة ؛ لأنها كغيرها من قصص هذا الكاتب ! طائفة من الأوصاف التى تمثل صوراً من الحياة الفرنسية تمثيلاً قوياً صحيحاً . ولقد أجد شيئاً من التردد حين أريد أن أحكم على هذه القصة ؛ فلست أدرى أهى قصة محزنة أم هى قصة مضحكة ولعلها محزنة ومضحكة ؛ فموضوعها محزن ونتيجتها محزنة ، ولكن سياقها مضحك جدا . وهو مضحك لا على نحو ما ألفت من القصص المضحكة ، وإنما هو مضحك

على نحو خاص ، كأن الكاتب لم يرد أن يضحكك ولا أن يسرك وإنما اضطر إلى ذلك اضطراراً ؛ لأن أشخاصه مضحكون بطبيعتهم مضحكون حتى فى أشد أوقاتهم حرجا وأعظم مواقفهم بؤساً وسوءاً وهم مضحكون لا لأنهم يريدون أن يضحكون بل لأن الله خلقهم كذلك . وهل تعلم شيئاً أشد إيلاماً للنفس وأعظم تأثيراً فى القلب من رجل يبكى و يألم حقاً . ولكنك تراه يبكى و يألم حتى تشاركه فى ألمه و بكائه مخلصاً فى ذلك مضطراً إليه ، وأنت فى الوقت نفسه مضطراً إلى أن تضحك منه وتبتسم لما ترى من ألمه و بكائه أو من تعبيره عن هذا الألم واندفاعه فى هذا البكاء . مصدر هذا الموقف الغريب شىء من التفاوت فى الطبع بينك و بين هـذا الشخص الذى يبكيك ويضحكك فى وقت واحد هو ثائر الطبع حاد المزاج ، وأنت هادىء معتدل وقصته فى نفسها مؤلمة ؛ فهو يألم عشرين حين لا تألم أنت إلا أربعاً أو خمسا . والفرق بين ألمك وألمه هذا الغلو الذى تشهده ولا تفهمه ، هذا الذى يضحكك وأنت تبكى ويبعث فى وجهك الابتسام فى حين يظهر على جبينك العبوس . وهذا هو الذى تجده فى هذه القصة ؛ لأن الأشخاص فى هذه القصة هم من أهل الجنوب الفرنسى . وأنت تعلم . أو لعلك

قرأت فى الكتب ، أن أهل فرنسا الجنوبية قوم فطروا على ثورة الطبع وحدة المزاج وحرارة العاطفة وانطلاق اللسان . هم غـلاة حين يشعرون ، وهم غلاة حين يتكلمون ، وهم غلاة حين يفكرون وهم إلى الكلام والاسراف فيه أقرب منهم إلى التفكير والميل إليه . ولعلهم ، كما يقول « الفونس دوديه » فى بعض قصصه لا يفكرون إلا حين يتكلمون . فبينما تنطق ألسنة الناس بالكلام لأنهم فكروا أو شعروا ، فهم يصفون بكلامهم فكرة أو عاطفة أو نوعاً من أنواع الشعور . فهؤلاء الفرنسيون من أهل الجنوب ولا سيما فصحاؤهم وأهل البلاغة منهم . يتكلمون أولا ، فإذا تكلموا تحركت عقولهم ففكروا ، وعواطفهم فشعروا ، وربما بدأوا الكلام وهم لا يعرفون ماذا يقولون فإذا اندفعوا فيه قليلاً قليلا أخذوا يتأثرون بألفاظهم ونبرات أصواتهم ، فإذا هم يبكون كأنهم يخضعون لأشد الخطباء تأثيرا . من هؤلاء الناس اختار المؤلف أشخاص قصته ، وقد مثلهم تمثيلاً قوياً ، فهم يتكلمون و يتكلمون ، وإذا اندفعوا فى الكلام فليس إلى وقوفهم من سبيل . ثم هم ليسوا مكثرين فحسب ، وإنما هم غلاة مسرفون ، يتخيرون من الألفاظ أضخمها ومن الصور أشدها عنفا ، وهم مع كلامهم متحركون

حركات ليست أقل غلوا ولا عنفاً من ألفاظهم . ومن هنا كانت القصة لذيذة جداً فى الملعب ، وهى لذيذة لمن قرأها وله علم بأخلاق أهل الجنوب ، ولكنها عسيرة جداً على من يريد أن يترجمها أو يلخصها ، وربما كان من المستحيل أن يعطى المترجم أو الملخص منها صورة صحيحة فلنجتهد فى أن نعطيك منها صورة مقاربة إن أخطأك فيها ما يضحك ويسر فلن يخطئك فيها ما يؤلم ويبعث الإشفاق .

« موريس ڤربول » رجل من أهل الجنوب بالقرب من مدينة نيس ، عظيم الثروة جداً ، يشرف على مصانع ضخمة ، ويعنى بالأزهار واستخراج أعطارها ، له أرض واسعة قد خصصها لذلك ! وهو منصرف إلى تدبير ثروته ، جاد فى ذلك ، لا يكاد يحفل بغيره من الأشياء . وأهل بلده يحبونه فانتخبوه لهم عمدة ، ثم انتخبوه عضواً فى مجلس الإقليم ، ثم هم يريدون أن ينتخبوه عضواً فى مجلس الشيوخ . وهو يقبل هذا كله مع شيء من الازدراء والسخرية ، ولكنه يؤدى واجباته العامة كما يؤدى واجباته الخاصة فى أمانة واستقامة . وقد تزوج من فتاة جميلة خلابة هى « شارلوت » أحبها حبا

لا حدّ له يوشك أن يكون إيماناً ، بل قل إنه إيمان . أما هى فتحب زوجها حباً قوياً أيضاً ، ولكنها تشعر بشىء من السأم مصدره أن حياتها الزوجية شديدة الانتظام قريبة جداً إلى العفة والقصد . خالية أو تكاد تخلو مما يحتاج إليه شبابها وقوتها وحدة مزاجها . ثم هى فى الوقت نفسه ضيقة الذرع بهذه الحياة المنتظمة الضيقة التى يحياها أهل الأقاليم ، والتى تخلو أو تكاد تخلو ، من اللهو واللعب وما يصرف النفس عن الجد من حين إلى حين . على أنها تخضع لهذا كله دون أن تشعر به شعوراً واضحاً . فإذا جاء الصيف فى سنة من السنين سافرت مع زوجها وابنيها إلى مصطاف فى جبال « البرينيه » فى مدينة من هذه المدن التى يختلف إليها فى فصل الصيف أغنياء الناس وسراتهم من كل بلد ومن كل إقليم ومن كل جنس . فهى ليست مدناً فرنسية ، وإنما هى مدن مختلطة تلتقى فيها الأجناس المختلفة والطبقات المتباينة . ويختلف الناس فى هذه المدن ، فمنهم من يحبها لما فيها من الاختلاط والتعاون ، وما يستتبعه ذلك من الملاحظات الخلقية فى نفس المفكر . ومنهم من يكره هذه المدن لنفس هذا الاختلاط وما يستتبعه من فساد خلقى شديد .

ونحن فى الفصل الأول نشهد طائفة من الفرنسيين قد جلسوا إلى « فرپول » وهم يتحدثون فى هذا فمنهم من يذم هذه المدن ويزدريها ويلعن الصيف الذى يضطره إليها من حين إلى حين. ومنهم من يحمدها لا لأنه يحبها بل لأنه يجد فيها ميداناً للملاحظات الخلقية. والملاحظة الخاصة التى تشغله هى أن هذه المدن تسمح لعواطف الحب بأن تظهر ولحاجات الناس إلى اللهو واللعب بأن ترضى. وقد تسمح بشىء آخر يظهر غريباً ولكنه فى حقيقة الأمر ليس غريباً، وهو أن الإنسان مهما يكن شريفاً نقياً طاهر النفس فهو فى حاجة من حين إلى حين إلى أن يختلس لذة من اللذات تخالف الشرف والنقاء وطهارة النفس. وهذا الاختلاس ميسور فى هذه المدن التى تلتقى فيها الأجناس المختلفة، ويكثر فيها اللهو ويستمتع فيها المصطافون بضروب من الحرية لا يعرفونها فى حياتهم العادية. وبينماهم يتحدثون على هذا النحو إذا أصوات ضحك ترتفع، فيلتفتون فإذا نساء يضحكن من وراء الأشجار فإذا تبينوا هؤلاء النساء وعرفوهن، فهن من أولئك اللاتى يأتين من حين إلى حين إلى هذه المدينة، يأتين يوم السبت ويعدن يوم الاثنين ليلهون ويُلهين ويعدن بشىء

من المال . . . ثم تأتى « شارلوت » فتتحدث قليلاً إلى زوجها و إلى من معه و بينما هم جميعاً يتحدثون يمر رجل على بعد فيراه بعض هؤلاء المتحدثين ، ثم ينتهز فرصة فينتحى مع « شارلوت » ناحية و يحذرها من أمر تأتيه و يوشك أن يجر عليها شراً عظيماً ، فتظهر أنها لا تفهم فيصرح لها بأنه رآها أمس وقد خرجت من غرفتها تقصد إلى غرفة أخرى وكاد زوجها يراها ، فهو ينصح لها بأن تكون حذرة محتاطة ، وهو لا يقدم هذه النصيحة إلا مخلصاً معتذراً لأنه إنما اضطر إليها اضطراراً إذ هو مشفق عليها من عواقب هذا الأمر . أما هى فتتغضب وترده رداً لا يخلو من عنف وقد أنكرت كل ما زعم ، ثم ينصرفون جميعاً ومعهم الزوج الذى اتفق مع امرأته على أن تلحق به فى « الكازينو » بعد أن ترافق ابنيها إلى غرفة النوم . ولا يكادون ينصرفون وتخلو المرأة إلى ابنيها والمربية حتى يمر ذلك الرجل الذى مر منذ حين ؛ و إذا هو يشير إلى هذه المرأة إشارات خفية تضطرب لها وتجيب عليها بإشارات خفية مثلها ، ثم تأمر المربية أن تقود ابنيها إلى غرفة النوم . فإذا سألها أحدهما : ألا ترافقيننا كما وعدت ؟ أجابت أنها متعبة . وتنصرف

المربية ومعها الطفلان . ويدنو الرجل من « شارلوت » فإذا هو أجنبى ، قوى الخلق ، جميل الطلعة ، حسن الزى ، يتحدثان فإذا بينهما حب ، وإذا هما يسرفان فى هذا الحب حتى تجاوزا كل حذر واحتياط . ولكن حديثهما غريب ، فبينا هو يحدثها فى حرية وصراحة تكاد تشبه القحة إذا هى تجيبه فى حياء وبضروب من الإيماء . وهو ينكر منها هذا ، وهى تنكر منه صراحته ، ثم ينتهى بها الأمر إلى أن تصرح أيضاً ، فإذا حبها عنيف ، وإذا هى لا تفهم هذا الحب ، ولكنها تحرص عليه حرصاً شديداً ، وإذا هى تستطيع الآن أن تفهم ما كانت تشعر به من سأم قبل أن تلقى هذا الرجل . ذلك أن هذا الرجل يعرف كيف يرضى النساء . . . وهى تذكر له هذه الجملة التى تختصرها اختصاراً صحيحاً وهى أنه يقبلها قبلا ليست مسيحية فى حين أن قبلات زوجها طبعاً مسيحية خالصة . . . ويريد الرجل أن يضرب معها موعداً فتأبى وتلح فى الإباء ، ويلح الرجل ؛ فإذا عرف منها الإصرار أظهر شيئاً من ضيق الصدر ومن اليأس فتسأله فتفهم منه قليلا قليلا أنه سىء الحظ ؛ لأن أباه قد أبطأ عليه فى إرسال النقود وقد حاول أن يقترض فلم

يوفق ، وهو فى حاجة إلى مقدار من المال قليل ، ولكن هذه أشياء لا قيمة لها وما كان ينبغى أن أتحدث اليك فيها ، ولكنك تطالبينني بالصراحة فلا أستطيع أن أخفى عليك شيئاً . أما هى فقد ساءها ذلك ، وأخذت تكلمه بصوت كأنه يأتى من بعيد قائلة : لو أن عندى ما تحتاج إليه لما ترددت فى أن أدفعه إليك . ثم يريد أن يقبل يدها فإذا فيها خاتم قد استوقف نظره ، وأحست هى ذلك وفهمته فتعرض عليه الخاتم ، ويتأبى قليلا ثم يرضى على أن يرده إليها غداً ، فهو سيظهره لصائغ يريد أن يقترض منه ما يحتاج إليه . أخذ الخاتم وانصرف ، وإذا المرأة مضطربة محزونة قد سقط فى يدها ؛ لأنها عرفت أن هذا الرجل الذى تحبه وتخون زوجها وابنها وأسرتها وماضيها بين ذراعيه ليس إلا محتـالاً . . . وهى فى ذلك إذ يقبل زوجها ؛ فإذا هى تنحنى إلى الأرض كأنها تبحث عن شىء . فإذا سألها أنبأته أنها افتقدت خاتمها فهى تبحث عنه فينحنى ومعه صديق ليبحثا عن الخاتم أيضاً .

* * *

فإذا كان الفصل الثانى ، فنحن فى جنوب فرنسا فى

بيت « شارلوت » والقوم إلى مائدة الغداء ، وقد أقبل رجل موظف فى المحكمة يقال له « باريزو » ، فتحدث إلى صاحب البيت حديثاً تفهم منه أنه مدين لصاحب البيت بشىء من المال ، ولكنك تفهم أيضاً أن الكاتب إنما أظهر لنا هذا الشخص لأنه سيحتاج إليه بعد حين . ويقبل القوم فاذا « شارلوت » قد تغيرت فأصبح وجهها شاحباً ونالها شىء من الضعف كثير ، وأخذ زوجها يخشى عليها العلل والأمراض . ذلك أنها مرضت فى المصطاف وتعجلت العودة . وكانت تريد أن تمكث شهراً فلم تمكث إلا أياما قصاراً . وهى منذ عادت مضطربة عصبية تألم لأقل شىء وتظهر عليها آثار حزن عميق . واضطرابها فى هذا اليوم شديد بنوع خاص ؛ ذلك لأن زوجها تسلم كتاباً من رجل يقال له « ا . تاميزو » لقيه فى المصطاف . وهذا الرجل يريد أن يتحدث إلى صاحب البيت حديثاً خاصاً ، وقد قبل الزوج وضرب للرجل موعداً بعد نصف ساعة . وهذا الرجل هو صاحبنا الذى رأيناه فى الفصل الأول عاشقاً محتالاً . عرفت « شارلوت » هذا فهى تكره هذا اللقاء بين الرجلين ، وتريد أن تمنعه . ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ .

لقد عرضت على زوجها أن يخرج معها للنزهة ، فاعتذر لأنه ضرب موعداً لهذا الرجل وهو لا يريد أن يخلف هذا الموعد ، ثم يئست من إقناعه فأوحت إلى الخادم أن تقبل مسرعة فتنبئ سيدها بأن رجلاً من الذين يعملون فى أرضه قد سقط فانكسرت ساقه ، وهى تريد أن يسرع زوجها ليعود هذا المريض لأنه عود رجاله الرفق بهم والعطف عليهم ، فاذا أقبلت الخادم فانبأت سيدها هذا النبأ أظهر عناية وهو يريد أن يعود المريض ، فتبتهج زوجه ؛ لكن الرجل يذكر الموعد فيعدل عن الخروج ويرسل إلى المريض من يسأل عن أنبائه ريثما يستطيع هو أن يذهب لعيادته . فتعود « شارلوت » إلى ما كانت فيه من يأس واضطراب ؛ حتى إذا خلت إلى زوجها تلطفت له وأخذت تداعبه حتى تضطره إلى مكتبه وتكلفه عملا من الأعمال فيقبل ، وتخرج هى فتغلق المكتب وتحكم إغلاقه وكل همها أن تلقى هذا الزائر لحظة قبل أن يرى زوجها . وقد دق الجرس ، فاضطربت وأسرعت تريد أن تلقى الزائر ، وسمع زوجها دقة الجرس فأسرع يريد أن يلقى الزائر ولكن الباب مغلق ، فهو يدعو زوجه ويلح فى الدعاء . أما هى

فكأنها لا تسمع حتى يدخل الزائر ، فإذا هو رجل آخر هو صديق من أصدقاء الأسرة ، هو الذى كان يبحث معها ومع زوجها عن الخاتم فى الفصل الأول واسمه « جانتييه » هو طبيب شاب يعمل فى المدينة وقد أقبل يزور أصدقاءه . فتفتح « شارلوت » لزوجها باب المكتب وتعتذر بأنها أغلقته خطأ ويفهم هو هذا . أليست امرأته مريضة مضطربة منذ عادت من المصطاف ، وهو يستشير صديقه الطبيب وقد دخلوا جميعاً إلى حيث « البيانو » وأخذت « شارلوت » توقع عليه لتنسى نفسها ما هى فيه من خوف واضطراب . وقد دق الجرس وأقبل الزائر المنتظر ، فهى تمعن فى الإقاع على البيانو كأنها لا تريد أن يراها . ولكن زوجها يدعوها فتلتفت فإذا صاحبها يحييها وإذا هى تحييه وقد انصرف الرجل مع صاحب البيت إلى مكتبه ليتحدثا ، أما هى فقد ظلت مع صديقها « جانتييه » فلا تكاد تخلو إليه حتى تفقد صبرها واحتياطها فتقص عليه كل شىء وتنبئه بأن هذا الرجل المحتال كتب إليها مرات يطلب إليها نقوداً فأرسلت إليه خوفاً وذعراً ، ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد فقد تسلمت اليوم كتاباً من الصائغ ينبئها بأن هذا الرجل قد

طلب منه لحسبها مقداراً ضخماً من المال وهو يطلب هذا المقدار. ولا شك فى أن هذا المحتال قد أقبل اليوم ليقص كل شىء على الزوج لأنه يريد أن يستفيد من هذه القصة ويأخذ ما يحتاج من مال . أما صديقها فقد جزع لهذا، ولكنه لا يريد أن يضيع الوقت ، فهو يريد أن يخلص هذه المرأة وشرف الأسرة ، وقد أخذ منها الكتب التى تسلمتها من هذا الرجل ومن الصائغ واستحلفها أن تحتفظ بهدوئها ، وانصرف إلى وكيل النيابة يريد أن يظهر على كل شىء ليأمر بالقبض على هذا المحتال ، وهو واثق بأن وكيل النيابة سيحترم سر المهنة وشرف هذه الأسرة . وقد انصرف الشاب وخلت « شارلوت » إلى نفسها ، وهى مضطربة أشد الاضطراب لا تستقر فى مكان ما تريد أن تعلم بم يتحدث الرجلان من وراء هذا الباب ، ولا يطول انتظارها فقد فتح باب المكتب وخرج الرجلان يتحدثان فى هدوء وصاحب البيت « يقول لزائره . . . . . . إذن فغداً الساعة الثانية . . . . . . » ثم يقبل الزائر إلى « شارلوت » فيحييها وينصرف . أما زوجها فقد جلس مفكراً وأخذت هى تسأله والهة متكلفة الهدوء عن هذه الزيارة

وما كان فيها من حديث ، فيجيبها بصوت فيه شيء من الزهول إن هذا الرجل قد حدثه فى أشياء غريبة جداً فيزداد لذلك اضطرابها ، فإذا ألحت على زوجها أنبأها بأن الزائر تحدث إليه فى أمور تجارية غريبة فيها أرباح غير مألوفة فتطمئن ، ويخرج زوجها ليعود المريض الذى مر بك ذكره آنفاً . ولكن هذا الزوج لا يكاد يخرج حتى تدخل الخادم فتنبئ سيدتها بأن هذا الزائر الذى انصرف منذ حين قد عاد يقول أنه قد نسى شيئاً ويريد أن يتحدث به إلى السيدة لتعيده على زوجها متى رجع . فتتردد « شارلوت » ثم تأذن له وهنا موقف مؤثر جداً ، ذلك أن هذا الرجل المحتال لا يكاد يظهر أمام صاحبته حتى تلقاه لقاء منكراً ، فتسأله أى مقدار من المال يريده هذه المرة . . . وإذا الرجل لا يريد مقادير من المال قليلة ولا كثيرة وإذا هو قد تكلف هذه الزيارة وتكلف هذا الحديث التجارى الذى انتحله للزوج ليخلو إلى هذه المرأة لحظة لأنه يريد أن يكلمها ، وهو يريد أن يثبت لها أنه يحبها حقاً وأنه أحبها حباً لا عهد له به من قبل ، ولكنه يعلم حق العلم أنها لن تصدقه لأنه جنى جنايات واقترف

آثاماً ليس من شأنها أن تحمل الناس على تصديقه إذا ذكر الحب وما إلى الحب من أخلاق الرجل ذى الطبع الكريم .

أليس قد استفاد من حب هذه المرأة إياه فتحدث إليها فى فقره وبؤسه وذلك شىء لا يتحدث فيه العاشقون إلى عشيقاتهم ! ثم هو لم يكتف بذلك ، أليس قد طلب إليها شيئاً من المال ! أليس قد أخذ خاتمها ليرتهنه فى سبيل المال ! أليس قد كتب إليها يقترض منها المال ! ثم أليس قد اقترض باسمها مقداراً ضخماً ! ثم أليس متهماً الآن بالاحتيال ويوشك أن يقف بين يدى القضاء ! وإذا كان قد تلوث بكل هذه المخزيات فكيف يستطيع أن يذكر الحب أو يتحدث فيه ! ومع ذلك فقد أحب مخلصاً وما زال يحب مخلصاً وهو ليس محتالاً ولا محترفاً هذه الصناعة وإنما هى الحياة وظروفها تضطر أشد الناس طهارة وأعظمهم من الشرف حظاً إلى أن ينحط من منزلته ويدنس نفسه قليلاً قليلاً حتى يزول الفرق بينه وبين الذين اتخذوا الاحتيال مهنة وعاشوا من اقتراف الآثام والدنيات ! نعم ! أحب هذه المرأة وهو يحبها ، ولم يأت ليتحدث إليها فى الحب وإنما أتى لينقذها من خطر يتعرض له شرفها ، فقد يقبض عليه

من وقت إلى وقت ، وقد يوقف أمام القضاء ، وعنده كتب من هذه المرأة وعنده صورتها وعنده هدية منها ، وهو يريد أن يرد إليها هذا كله ، وأن يرده إليها يداً بيد ، وأن يعتذر لها كما يستطيع الإنسان أن يتعذر عما جنى عليها من إثم وقد دفع إليها الكتب والصورة والهدية إلا كتاباً واحداً هو أول كتبها إليه فهو يريد أن يدفعه إليها ولكنه يريد أن يقرأه للمرة الأخيرة ؛ فهو لم يقرأ فى حياته كتاب حب كهذا الكتاب وربما كان رد هذا الكتاب إلى صاحبته أعظم ضحية ضحى بها فى حياته ، وهو يقرأ الكتاب ثم يرده ، ويسألها أتصدقه الآن ! فتجيبه مضطربة : أنها تكاد تصدقه . ثم يريد أن ينصرف فيسألها : « أما تزالين تمقتيننى فتجيبه : بل أنا أرثى لك . » ثم يودعها فتبسط يدها له حتى إذا دنا منها مغتبطاً يريد أن يقبل هذه اليد المبسوطة ، بدا لشارلوت فقبضت يدها ، وانصرف الرجل كئيباً محزوناً على ألا يراها بعد اليوم . وعاد صديقها الذى ذهب إلى وكيل النيابة ينبئها أن الأمر قد تم على ما أراد ، فسيقبض على المحتال مساء اليوم . وقد أخذ وكيل النيابة الكتب ووعد باحترام السر .

فلا تكاد تسمع هذا حتى يجن جنونها ، وكانت قد نسيت هذا كله ، وهى الآن لا تريد شراً بهذا الرجل ، وإنما تشعر بأنها مدينة له . أليس قد رد إليها كتبها وشرفها ففيم القبض عليه ؟ وهو معرض للسجن وللقضاء . ولكن من جهة أخرى غير جهتها ، فلتسرع إلى وكيل النيابة ترجو منه ألا يعرض لهذا الرجل بالأذى ، وهى تسرع فتتخذ معطفها وقلنسوتها وصاحبها حائر مبهوت لا يسمع إلا هذه الجملة ، لقد انتهى كل شىء ! لقد انتهى كل شىء ! !

فإذا كان الفصل الثالث فقد مضى حين على هذه الحوادث ، ونحن فى بيت « شارلوت » وهى تتحدث إلى « باريزو » ذلك الموظف فى المحكمة وقد فهمنا من حديثهما أن صاحبنا المقبوض عليه وهو متهم بالاحتيال والتزوير ، اتهمه بذلك الصائغ وهو بين اثنتين : إما أن تذهب "شارلوت" فتؤدى شهادة دعيت إليها ، وإذن فالرجل مبرأ ، وإما ألا تذهب وإذن فالرجل مقضى عليه . وهى مترددة بين الوفاء لهذا الرجل الذى وفى لها وبين الاشفاق على شرفها . فهى تخشى أن تذهب لتأدية الشهادة فى باريس أن يعرف أمرها ويذكر اسمها ، وإذن

فهى النازلة ، وقد جهل زوجها وابناها كل شىء ؛ وهى تخشى أن يعلموا . هى مترددة ولكنها مع ذلك أميل إلى تأدية الشهادة ، فقد وعدها وكيل النيابة بأن شهادتها ستكون سرية ، قد كتب فى ذلك إلى باريس وقبل طلبه ، فهى تستطيع أن تشهد آمنة وستشهد ، فقد احتالت حتى أرسلت إليها صديقة من باريس رسالة برقية تنبئها فيها بأن أمها مريضة ، وإذن فهى مضطرة إلى السفر إلى باريس ، وقد أنبأت بذلك زوجها واسرتها . وستسافر بعد حين . وقد استقر رأيها على ذلك فتحدثت به إلى وكيل النيابة بالتليفون ولم تكد تفرغ من حديثها حتى يقبل زوجها فيتحدث إليها فى أمر هذا السفر قليلاً ثم تتركه مع « باريزو » لتتم استعدادها للسفر . فلا يكاد يخلو الزوج إلى « باريزو » حتى يظهر عليه غضب شديد . فهو يسأل « باريزو » عن معنى هذه الزيارة . ومهما يتكلف « باريزو » من المعاذير فهو لا يصدقه . وهو يعلم أن فى الأمر سراً ، وهو يريد أن يعرف هذا السر ، وقد أحس هذا منذ أيام وبحث حتى علم أن شيئاً غريباً يدبر من حوله . فزوجه كاذبة فيما تنتحل من العذر لسفرها إلى باريس ، فليست أمها مريضة ، وليست أمها فى باريس . وإذن فلا بد من أن يعرف

هذا السر ، وهو يتهم زوجه بالخيانة ، ويتهم « باريزو » بالتوسط بينها وبين من تحب . وما يزال بهذا الرجل ينذره ويوعده حتى يضطره إلى أن ينبئه بالحق بعد أن أقسم ليحتفظن بالسر . وقد قص عليه « باريزو » كل شيء فإذا الزوج مجنون أو أكثر من المجنون .

يجب أن تذكر ما قلت لك فى الفصل الأول عن أخلاق أهل الجنوب من الفرنسيين ، فقد بلغت هذه الأخلاق عند هذا الرجل طورها الأقصى فى هذه اللحظة ، فلم يمتقع وجهه ولم تظهر عليه آثار الغضب ، وإنما اضطرب دمه وغلا حتى يكاد يخرج من عينيه وإذا هو كله متحجر ، وإذا لسانه منطلق بأشنع الألفاظ ، وإذا صوته قد بلغ أقصى ما يمكن أن يبلغ من ارتفاع ، وإذا هو يريد أن يبطش بمخبره ، وإذا هو يريد أن يحنث فى يمينه ، ويقسم ليجمعن أهل البيت جميعاً وفيهم الخدم وفيهم أمه وابناه ثم ليطردن الشقية أمام هؤلاء الناس جميعاً . وقد أسرع إلى الأبواب ففتحها وأسرع إلى مخبره فدفعه دفعاً ، وأخذ يصيح بأعلى صوته يميناً وشمالاً : «إلىّ إلىّ ! تعالوا جميعاً ! فيقبل أهل البيت كافة مذعورين يخشون حدثاً عظيماً أيقبلون ويستنبئون فلا يجيبهم ، وإنما يدعو ، ويدعو وينادى امرأته ، فتقبل متباطئة وكأنها قد

أحست شيئاً ، فاذا نظرت الى زوجها من أعلى السلم ورأت صورته الغريبة وشكله الجنونى استيقنت أنه قد عرف كل شيء ، فانحلت قواها وأصابها يأس ليس بعده يأس ، قد قتل نفسها وظهرت آثار ذلك على وجهها ، فهى جثة تمشى ، وزوجها ينظر اليها فلا يزيده ذلك إلا اضطراباً وثورة ، ثم يهم بالكلام وإذا لسانه يتردد فى فيه دون أن ينطق ، ثم اذا هو مضطرب كله من أسفله الى أعلاه ، فقد أخذت ذراعاه تهتزان فى الفضاء اهتزازاً متصلاً ، ثم انطلق لسانه بهذه الكلمات يقولها مشيراً إلى ابنه : « الأمر أن هذا الغلام قد أساء السيرة فى المدرسة حتى اضطر ناظرها الى طرده . . . . »

قال ذلك ثم هدأ ، أما إبنه فلم يهدأ وإنما يجهش بالبكاء ، بالبكاء لأنه مظلوم ، فلم يسىء سيرة ولم يطرد من المدرسة ، ولكن أباه يغلظ له فى القول ويأمر به فيقاد إلى غرفته ثم يصرف الخدم دهشين ويرجو أمه أن تذهب فتهون على الغلام ... وقد هدأ روع امرأته قليلاً فأخذت تهدىء زوجها وتنكر عليه اضطرابه لأمر يسير كهذا ، وأخذ هو يتعلل ويعتذر بأن القسوة لازمة لتربية هذا الطفل ، ثم يذكر سفر امرأته ويلفتها إلى

أن موعد الفطار قد آن ، وتحاول أن تبقى لتتخذ قطاراً آخر ولكنه يأبى وكأنه يدفعها إلى السفر دفعاً . فاذا انصرفت أقبلت أمه تلومه على العنف فى غير موضع للعنف . فانظر إلى هذا الرجل القوى العنيف قد ضعف ورق حتى كأنه طفل فى الثانية عشرة قد ألقى بنفسه بين ذراعى أمه وهو يبكى بكاءً شديداً .

✡✡✡

فإذا كان الفصل الرابع فقد مضى يومان على ما ذكرت لك ونحن فى بيت شارلوت وزوجها يستقبل مبتسما مبتهجاً أطفال القرية وقد أحيا لهم عيداً ، فهم فرحون وهو يتكلف الفرح ، وأمه كذلك والناس من حوله يسألونه عن « شارلوت » فينبئهم أنها ستصل بعد حين ، وقد ذهبت العربة إلى المحطة لتنتظرها ، ثم يخلو إلى أمه حينا فيتحدثان فإذا هو قد فكر وروّى ، وإذا هو قد اقتنع بأن الخير إنما هو فى أن يظل محتفظاً بسره كأنه قد جهل كل شىء . أما أمه فلا ترى هذا الرأى ، وإنما ترى طرد البائسة الشقية ، ولكنه يهون عليها ويترضاها ، ويذكر أنه فى أيام شبابه رأى فتاة بائسة أغواها شاب مفسد

ثم تركها ، و إنه رق لهذه الفتاة وأخذ يعزيها ثم تجاوز العزاء إلى شيء آخر ، ثم اجتهد حتى وجد لهذه الفتاة زوجاً ، ثم مضى على زواجها سبعة أشهر ورزقت غلاماً . فمن يدرى لمن هذا الغلام ! وبينما هو يحدث أمه هذا الحديث إذ هى مبتهجة أول الأمر . وأى شيء فى هذا ؟ أليس يدل على أن ابنها كان جميلا بارعاً يستطيع أن يغرى النساء وأن يخلبهن . وكيف لا تبتهج أم لشيء كهذا ! ؟ فإذا وصل إلى أمر الغلام والشك فيه انتهرته أمه انتهارا . أليس يسرف فى الشك والتحرج ! ؟ ولكن هذه المرأة البائسة فى البيت الآن ومعها طفلها وقد دعاها الرجل فاقبلت ومعها الغلام فى السادسة من عمره وأخذت العجوز تحدق فى الطفل وكأنها قد رأت فيه ملامح ابنها فانصرفت مغضبة مسرورة تهمهم . وخلا الرجل إلى صاحبته القديمة ، فيكون بينهما حديث مؤلم ولكنه برىء لذيذ . ثم يسمع ضجة و ينبئه منبىء أن المدير قد أقبل يزوره . فإذا دخل المدير فهمنا من حديثهما أن الناس قد عرفوا ما كان من أمر امرأته ، وأشارت إليه صحف المدينة ، وأن الأمر قد أصبح خطراً فقد ينتج إخفاق صاحبنا فى الانتخاب ، وقد أقبل المدير يطلب إلى هذا الرجل أن يجتهد

فى إصلاح هذا الأمر ، فهو مرشح لمجلس الشيوخ ، وهو مرشح من قبل الحزب الجمهورى الذى فى يده الحكم ، وقد أوصى الوزير بمساعدته ووعد المدير وعداً حساناً إن أفلح . ولكن خصومه الملكيين أقوياء ، وهم ينتهزون هذه الفضيحة ، فالسبيل هو أن يبرىء امرأته أو يطردها . ولكن الزوج قد غضب لهذا الحديث ، فهو لا يريد أن تتدخل السياسة ولا الانتخابات فى حياته الخاصة إلى هذا الحد . وهو يجيب المدير جواباً عنيفاً ويعلن إليه أنه منسحب من الانتخابات مستقيل من منصب العمدة ومن مجلس الأقليم . ثم تقبل امرأته فيتلقاها ابناها لقاء حسناً ، ويتكلف زوجها وأمه هذا اللقاء . ولكنهما لا يفلحان ولا تكاد المرأة تخلو إلى زوجها حتى تتبين أنه علم كل شىء ، وأنه يحاول إخفاء الأمر فلا يفلح . وإذن فهى خائنة بين يديه تعترف وتطلب أن يقتلها . وهى جزعة قد بلغ الجزع منها أقصاه ، ولا سيما وهى متعبة ، قد أمضت ليالى ثلاثا لم تنم ، فهى لا تستطيع شيئاً ولا تحتمل شيئاً وقد ألقت بنفسها على الوسائد تبكى وتنتحب ، وأخذ زوجها يتحدث إليها فى عنف ولوم شديدين ، ثم أخذ صوته يرق شيئاً فشيئا ويذكر ما كان من

أمر المدير وما كان من استقالته وعدوله عن الانتخاب ويذكر أنه لا يستطيع الآن أن يعفو ، ولكنه أحبها حباً شديداً ، فسيهجرها حتى تسمح الأيام بالعفو والنسيان ، ويتحدث إليها بذلك كله فى صوت رقيق فيه شىء من الضعف والإشفاق والرحمة ، ولكنه ينظر إليها فإذا هى مغرقة فى النوم كأن هذا الحديث قد هدأ من لوعتها شيئاً وغلبها الإعياء فنامت... وتبين هو ذلك فأخذه غضب شديد فهو يهجم عليها يريد أن يحطمها ولكن ذراعه تسقط وتمر على وجهه ابتسامة مرة ... « بينما أنا أحلق فى الملأ الأعلى أذكر العفو إذا هى نائمة ... كذلك تجيب الحياة » ويدخل الطفلان مبتهجين يدعوان أمهما يريدان أن يشكرا لها ما حملت إليهما من باريس ، فيشير إليهما بالصمت أن أمكما نائمة فدعاها تنم ...

مارس سنة ١٩٢٤

الإغـــراء بالرحيل

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « جان جاك برنار »

لست أدرى أتعجبك هذه القصة ! ولكنى أعلم أنها قد أعجبتنى ، وربما كان لفظ الإعجاب دون ما أريد أن أقول . أعلم أنى فتنت بها ، فقرأتها مرتين ، وقلما أقرأ القصة مرتين . أعجبتنى هذه القصة وأنا مع ذلك أشك فى أنها ستعجبك ، إنى لم أعودك تحليـــل قصص تشبهها ، وإنما عودتك ضرباً آخر من القصص ليس بينه وبينها شبه قليل ولا كثير . ولم أتعمد ذلك تعمداً ، وإنما اضطررت إليه اضطراراً . فلست أعرف فيما قرأت من القصص التمثيلية على كثرته قصة تشبهها أو تقاربها . وما كنت لأخترع هذه القصص اختراعاً ، ولقد كنت أتشوق إلى هـذا النحو من القصص التمثيلية ، ولـكنى لا أجد إليه

سبيلا ، حتى وصلت هذه القصة فى آخر أعداد « الالستراسيون » فقرأتها ، وقرأتها مرتاحاً إليها مشغوفاً بها ، كما يرتاح الإنسان إلى شىء تمناه وظفر به بعد طول التمنى وشدة الرجاء .

على أنى بينما كنت أقرأ هذه القصة تذكرت قصة أخرى حدثتك عنها فى السنة الماضية ، ولم أتذكرها إلا لأن هناك شيئاً حملنى على أن أذكرها إلا لأن هناك شبهاً قليلا بين القصتين . وتذكرت قصة « الحب » للكاتب الفرنسى « بول جيرالدى » . ولكنى لم أكد أمعن فى الموازنة بين القصتين حتى وجدت الشبه قليلا مسرفاً فى الضآلة . ففى قصة « الحب » رقة ، وفيها رفق وفيها ثقة متصلة بين الزوجين . ولكن القصة التى نحن بإزائها اليوم ليست إلا رقة ورفقاً وثقة ، لا يكاد بل لا يظهر فيها عنف ولا غلظة ، ولا يكاد يبدو فيها الشك . فى قصة « الحب » رقة ورفق ، ولكنّ فيها عنفاً شديداً . فيها جهاد بين العواطف ، وفيها اصطدام بين الشهوات ، وفيها حرب قوية عسيرة بين رجلين . أما هذه القصة التى نحن بإزائها فلا تكاد ترى فيها شيئاً من هذا ، أو قل إنك ترى فيها هذا كله ولكن من بُعْد ، لا تراه بل تلمحه ، لا تحسه بل تتخيله

تخيلا ولعلك تفرضه فرضاً فى بعض المواضع . أتشعر الآن بما تمتاز به هذه القصة ؟ أتشعر الآن بالسبب الذى يحملنى على أن أشك فى أن هذه سترضيك ؟ أشك فى ذلك لأن هذه القصة عسيرة صعبة ، فيها دقة ليست بعدها دقة ، أو هى كلها دقة . فأنت فى حاجة حين تقرؤها إلى أن تكون فارغ البال ، شديد الالتفات الى الدقائق ، حريصاً على أن تقرأ بين السطور ، وعلى أن تفهم من اللفظ أكثر من معناه أحياناً وأقل من معناه أحياناً أخرى .

هذه القصة تمثل الظرف والتأنق فى الفن وربما دل لفظ « الظرف » و « التأنق » على شيء أكثر مما أريد . فتصور رجلا تحضر وأمعن فى الحضارة حتى انتهى الى أقصى ما يمكن أن ينتهى اليه من رقة ولين وظرف . كذلك الأمر فى هـــذه القصة ، تشعر بأن الفن قد رق فيها ولطف وأسرف فى اللطف حتى انتهى إلى أقصى ما يمكن أن ينتهى إليه . فالرمز والإيماء فيها أكثر من التصريح ، بل لايكاد التصريح يوجد فيها . ومن هنا قال بعض النقاد إن هذه القصة لا تصلح للتمثيل ، وإنما تصلح للقراءة . لا تصلح للتمثيل لأنها أرق وأدق من أن تمثل ،

وهى أرق وأدق من أن تفطن لها جماهير النظارة . وأرى أنا أنها إذا كانت لا تصلح للتمثيل فهى لا تصلح لأن يقرأها الناس جميعاً ، وإنما يتاح فهمها وذوقها بنوع خاص لطائفة من المترفين فى الفن . ومن هنا تفهم أيضاً قول بعض النقاد إن الكاتب تجاوز فى قصته هذه التمثيل الى الشعر والموسيقى ؛ فهو لا يتحدث اليك بلغة الملعب ، وإنما يتحدث اليك بلغة الشعر والموسيقى ، وبلغتهما حين يناغيان النفس ويهمسان الى الضمير . هى على هذا كله قد أعجبت الناس فنالت فوزاً عظيما فى باريس ، وكاد يجمع النقاد على الثناء عليها . وليس هذا يدل على شىء أقل من رقى الأذواق ورقة العواطف فى تلك المدينة التى يزهو فيها هذا الفن الأدبى على اختلاف ألوانه وضروبه .

☆ ☆ ☆

نحن فى إقليم من أقاليم فرنسا ، فى « الفوج » يمثل لنا المسرح حجرة تكاد تكون مستديرة ساذجة الأثاث ، ولكن نوافذها كثيرة جداً ، تكاد تشغل كل جدرانها . ومهما تنظر فلن تقع عينك وراء زجاج النوافذ إلا على غابة ضخمة بعيدة المدى يقصر دونها الطرف . أما الغرفه ففيها مكتب ، وفيها البيانو ،

وفيها مائدة صغيرة ، وقد نسقت الأزهار على البيانو والمائدة . أما المكتب فقد كثرت عليه الأوراق المختلفة ، وفى ناحية من نواحى الحجرة موقد أمامه كراسى ثلاثة . وقد جلست إلى البيانو امرأة فى الخامسة والعشرين من عمرها ، هى « مارى لويز » بنت « لاندرو » صاحب هذا البيت وهذه الغابة وهذا المصنع الذى يلمح على بعد ، وزوج « أوليڤييه » الذى شارك أباها فى الإشراف على هذا المصنع وفى تدبير هذه الثروة الضخمة . جلست إلى البيانو وهى تلعب قطعة موسيقية معروفة ، وتلعبها متأثرة تأثراً شديداً ، ثم يضعف اللعب قليلا قليلا حتى كأن النغم يموت تحت أصابعها . وقد انقطعت عن اللعب وظلت فى مكانها مفكرة كأنها فى حلم ، وإذا الساعة تدق السادسة ، وإذا صفير يسمع على بعد من المصنع مؤذنا بانصراف العمال ، وهى فى مكانها مفكرة مغرقة فى التفكير ، ثم يسمع صوت رجلين يتحدثان ، ويرى هذان الرجلان يمران خارج الغرفة كأنهما مقبلان إليها . هذان الرجلان الشيخان هما « لاندرو » صاحب البيت ، وصديق له من أصحاب المصانع الكبرى فى شمال فرنسا . أقبلا ودخلا الحجرة ، وصاحب البيت يظهر

صديقة على كل شىء فى البيت وفى المصنع وحول البيت والمصنع. وهو بهذا كله فخور معجب ، يذكر الأشياء يضيفها إلى نفسه فيقول بيتى ومصنعى وحديقتى وغابتى ، حتى يصل إلى ابنته فيقول ابنتى ، ويصفها وصف المعجب بها ، يقدمها إلى صاحبه فينحنى أمامها الشيخ انحناء الإجلال . أما هى فتلقى الرجلين لقاء لا يخلو من أدب ، ولكنّ فيه فتوراً ظاهراً . وتقبل أختها « جاكلين » فيقدمها أبوها إلى صاحبه على نحو ما قدم أختها . ثم ينصرف الرجلان إلى حيث يتناولان شيئاً من النبيذ قبل أن ينصرف الضيف ، وتبقى الأختان . وقد فهمنا من حديث القوم أن فى البيت ضيفا آخر شابا حسن الطلعة جميلا غنيا ، أبوه من كبار التجار فى باريس ، قد اتصلت المعاملة بينه و بين أصحاب هذا المصنع . وقد أرسل ابنه فيليب ليقيم أشهراً عند هؤلاء الناس يختلف فيها إلى المصنع ليفهم عمله . وكذلك تعود هذا الرجل أن يرسل ابنه فى جميع المصانع التى يعاملها ، حتى إذا آلت إليه تجارة أبيه كان متقنا لعمله حسن الفهم لمعامليه . ولا تكاد الأختان تتحدثان حتى تشعر بأن بينهما فرقاً عظيما جدا . أما الكبرى فضيقة الصدر بكل شىء ، ضيقة الصدر بما ترى ، ضيقة الصدر بما تسمع ، ضيقة الصدر بما تحس ،

لا تكاد تسمعها حتى تفهم أنها سجينة تريد أن تخلص من سجنها ، وقد يئست من الخلاص فهى مستسلمة للحياة فى سأم وضجر ، وهى لا تذكر أباها دون أن يظهر عليها هذا السأم . أليس أبوها قد ذكرها لصاحبه منذ حين بنفس الطريقة التى ذكر بها البيت والمصنع والحديقة . ثم هى تنظر من النافذة فلا ترى إلا شجراً ، فإذا أبعدت طرفها لم تر إلا شجراً ، فإذا أدارته لم تر إلا شجراً ، فهى تسأم هذا الشجر كما تسأم البيت وكما تسأم عشرة من فيه . فإذا ذكرت أختها لها زوجها ذكرته فى رقة ولين وشعرت أنها تحبه حباً شديداً وأنه يحبها حباً جماً . وأما أختها الفتاة فراضية مطمئنة مبتهجة بالحياة تعطف على أبيها عطفاً شديداً ، وتبر به وبأمها براً عظيما . وقد أقبلت تدعو أختها للعب الكرة ، لأن « فيليب » ينتظرهما فى ميدان اللعب ، فترفض أختها ضجرة متبرمة ، وتسخر من فيليب ومن جماله ومن ظرفه ، وتقول إنها لا ترى فى هذا البيت إلا قوماً يصنعون الحديد ويعكفون على صناعته ، فأبوها وزوجها منكبان على صناعة المسامير ، وهذا الزائر الذى مر منذ حين عاكف على صناعة كصناعة المسامير ، وهذا الشاب فيليب أقبل

ليرى كيف تصنع المسامير ، وسيعود إلى باريس ليبيع المسامير ، وكل شيء في حركاته يذكّر بالمسامير ، فهو إذا أراد أن يقذف بالكرة مثل رجل يدق ليصنع المسمار ، وهو إذا أنشد الشعر كان صوته وإنشاده كهذا الصوت الذى تسمعه لأداة من أدوات المصانع . وهى ضيقة الصدر بهذا كله ، على أنها لا تنكر أن فى هذا الشاب رقة وأدباً وظرفاً ؛ فقد ذهب إلى المدينة منذ أيام وعاد يحمل إليها وإلى أختها هدايا ، أهدى إليها مروحة لا تمثل حسن الذوق الفنى ، ولكنه فكر فى أن يهدى إليها مروحة ، وأهدى إليها كتاباً هو ديوان « بودلير » ، وفى الحق أنها لا تحب « بودلير » ولا تفهمه ، لأن فيه غموضاً وتعمقاً وتعقيداً ، وإنما تؤثر عليه شاعراً آخر هو « شينيه » غير أنها تعترف بأن هذا الشاب لم يكن يستطيع أن يعلم ذلك من نفسه ، فيكفى أنه فكر فى أن يقدم إليها كتاباً . والغريب من أمر هذا الشاب أنه متى انتهى العشاء أقبل مع زوجها إلى هذه الحجرة ، فجلسوا جميعاً إلى المواقد وطالت بهم الجلسة ، والرجلان يتحدثان ويمزحان حتى يأخذها هى النوم فتستأذن وتنصرف ، ولا يفكر زوجها فى أن يختصر هذه السهرة . وهى كانت

تستطيع أن تلوم زوجها ، ولكن أليس يحسن ألا تفعل والشاب مسافر بعد يومين . هذا حديث الأختين تشعر منه بسأم « مارى لويز » وضيق صدرها حتى بهذا الشاب الجميل بل بهذا الشاب الجميل بنوع خاص . ويدخل زوجها فتلقاه لقاء العاشقة الكلفة ، ولكن عندما يريد الانصراف ينبئها بأن « فيليب » قد تسلم كتاباً من أبيه ، وبأنه مسافر إلى أمريكا الجنوبية ، إلى بلاد الأرجنتين . ولا تكاد « مارى لويز » تسمع هذا حتى يظهر عليها الدهش ، بل شيء آخر أكبر من الدهش ، شيء يشبه الذهول . ثم ينصرف زوجها ، وتقبل هى إلى النافذة ثم تلتفت فإذا شعاع الشمس يضطرب أمامها اضطراباً شديداً يكاد يأخذ بصرها ، فإذا سألت أختها عن ذلك أنبأتها أن فيليب قد وقف خارج الغرفة وفى إحدى يديه مرآة وفى الأخرى أداة لعب الكرة وهو يشير إليهما بهذه الأداة أمام المرآة . فتغضب « مارى لويز » وتصيح به تأمره أن يكف . فإذا مضى فى عبثه مضت فى صياحها تزجره زجراً ، وأختها تدعوها إلى أن تترك مكانها لتتلقى شعاع الشمس ، ولكنها لا تحفل بأختها وإنما تمضى فى زجر الشاب وتوبيخه كأنها تجد فى ذلك لذة ، ويسدل

الستار ثم يرفع بعد حين ، وقد مضت ستة أسابيع على سفر فيليب . ونحن نرى مارى لويز جالسة فى الغرفة نفسها مغرقة فى القراءة ، حتى إن زوجها يدخل فلا تحسه ، فإذا كلمها نهضت مذعورة ، فإذا سألها فيم تقرأ أجابته فى ديوان « بودلير » . فيلاحظ زوجها أن ذوقها سريع التغير . ألم تكن تكره « بودلير » فهى الآن تحبه . ثم يتحدثان ، فتفهم أن فيليب قد سافر ولم يرسل إليهما كتاباً ولا شبه كتاب ، وذلك شىء يخالف الذوق . على أن بطاقة قد وصلت اليوم تنبىء بأنه فى طريقه إلى « الأرجنتين » . وهما يتحدثان عن هذا السفر ويصلان إلى شىء من الفلسفة فى السفر وما يترك من ألم فى نفس المقيم مهما تكن الصلة بينه وبين المسافر . وتأتى « جاكلين » فيتحدثون فى أمر هذا الفتى أيضاً ، وتظهر « جاكلين » صورة من صوره الفتوغرافية فينظرون فيها جميعاً . أما « جاكلين » وأوليفييه فيريان أنها صادقة مقاربة . وأما مارى لويز فتنكر ذلك إنكاراً شديداً وتلح فى إنكارها وتشدد الخصومة بينها وبينهما فى ذلك . وتفهم من هذه الخصومة شيئين : الأول أن شخص فيليب قد اتخذ فى نفس « مارى لويز » صورة غير صورته الحقيقية ، صورة

تقرب من المثل الأعلى ؛ ولذلك تنكر الصورة الفوتوغرافية التى تمثل شخصه الحقيقى . الثانى أنها تستبقيه فى حجرتها ، فتحتفظ بالحجرة كما كانت يوم تركها ، فما زالت الكراسى الثلاثة على وضعها أمام الموقد ، وما زالت المروحة وديوان « بودلير » فى مكانهما . فإذا انصرف أوليڤييه وبقيت الأختان حاولت الفتاة أن تغنى عابثة إحدى أغانى الجند وفيها ذكر الأرجنتين ، فتغضب أختها غضباً شديداً وتزجرها ، وتنصرف مغضبة . وقد فهمنا أن سفر فيليب قد غير فى نفس مارى لويز كل شىء ، وأن سخطها عليه وتبرمها به فى أول الفصل لم يكونا إلا مظهراً من مظاهر الحب .

✲ ✲ ✲

فإذا كان الفصل الثانى ، فقد مضى عام ونصف عام على ما قدمت ، ولكن الحجرة على حالها لم يتغير فيها شىء وقد جلس أوليڤييه إلى مكتبه ، وجلست « مارى لويز » إلى عمل يدوى قد عكفت عليه ، وكأنها مغرقة فى التفكير . وقد سألها زوجها ماذا تصنع : فلم تجب ، لأنها لم تسمعه . ثم مضى حين فسألت زوجها وكأنها لا تفكر فيما تقول : ماذا يصنع ؟ فيجيبها أنه يرتب أوراقاً . ولكنها لم تفكر فى سؤالها ولم تنتظر

له جواباً ، فهى لم تسمع زوجها حين كان يكلمها . فإذا فرغ زوجها من عمله أقبل إليها يحدثها فى لطف ورفق ، ولكنها تجيبه فى ضعف وإعياء وكأنها قد أقبلت من مكان بعيد وقد ظهرت عليها آثار السأم والتعب ، كأن قوى خفية عملت فى نفسها منذ حين طويل فصرفتها عن كل شىء وزهدتها فى كل شىء ؛ فكأنها تحيا لأنها لا تستطيع أن تموت . وزوجها يرى ذلك ويشعر به ، ويحاول أن يتبين أسبابه ، ولكنه لا يجد إلى ذلك سبيلا . هو رفيق ، رقيق العاطفة ، شديد الإيمان بزوجه وشرفها ، فهو لا يتهمها بشىء بل لا يفرض شيئاً ، وهو فى الوقت نفسه لا يريد أن يسألها مخافة أن يثقل عليها أو يؤذيها . ولكنه اليوم يشعر بأنها قد انتهى بها الضعف إلى حد بعيد ، ويشعر مع ذلك بأنها مطمئنة إليه واثقة به ، فهو يناجيها مناجاة المحب العطوف ، وهو يجرؤ فسألها : ما بالها محزونة ؟ ما بالها شقية ؟ فتنكر أن تكون محزونة أو شقية ، ولكن إنكارها نفسه يدل على أن حظها من الحزن والشقاء عظيم ، فهى لا تكاد تسمع زوجها ، وهى لا تكاد تجيب ؛ لأنها لا تفهم ما يقول . ولكنه قد ألح عليها ، فجمعت قواها

واجتهدت فى إقناعه بأنها سعيدة راضية . أما هو فيريد أن يصدقها ، ولكنه لا يستطيع ، وهو يسألها : أليس قد خاب أملها فيه ؟ ألم تكن تنتظر منه غير ما تجد ؟ فتلح عليه أن يترك هذا الكلام وألا يسرف فى مثل هذا السخف . ويذكر هو أنها تغيرت تغيراً شديداً ؛ لقد تزوجها طفلة وكانت سعيدة فظلت طفلة لا تفكر فى شىء ولا تحفل بشىء إلا بالحياة وابتساماتها ، أما الآن فقد تغير هذا كله ، فإذا هى كئيبة ، كاسفة البال ، منصرفة عن الحياة ولذاتها . ما أشد حاجتى إلى أن أعرف ما يضطرب فى هذا الرأس . إنى أريد أن أجعلك سعيدة ناعمة البال ، أريد أن أقدم إليك أشياء كثيرة ... ثياباً . فتجيبه فى ذهول : نعم ! حلياً ، فتجيبه فى ذهول : نعم ! سيارة ، فتجيبه فى ذهول : نعم ! ويعرض عليها أشياء كثيرة متباينة ، ويعرض عليها الكتب والحفلات والسياحة وزيارة الملاعب فى باريس ، فتجيبه على هذا كله فى ذهول : نعم ! لأنها تفكر فى غير ما يقول لها زوجها ، ولا تسمع إلا لهجة الاستفهام . وينتهى به الأمر إلى أن يشعر بهذا فيقول : ولكنك معنية بغير هذا كله . . . وينتقل

الحديث إلى شيء آخر . فأخته قد أقبلت فى زيارة ، وستمكث أياماً وهو يطلب إلى زوجه أن تتلطف لها وأن تقضى معها مساء اليوم ، فتضيق بذلك ثم تستسلم ! نعم ، سأقضى معها مساء اليوم كما قضيت معها مساء أمس ، وكما سأقضى معها مساء غد ، فلا يزيده هذا إلا حزناً وألماً . وقد ذهبت هى إلى النافذة ، فنظرت منها كأنها سجينة تريد أن تفر ، ولكنها لا تجد أمامها إلا شجراً وشجراً وشجراً ... فليس لها مفر من هذا السجن ، وهى تنظر من النافذة إذ يقبل ابنها الطفل ، وهو فى التاسعة من عمره ، فترتاع لرؤيته لأنها لم تكن تنتظر أن تراه ، ثم تتخذه تعلة فتعتذرُ إلى زوجها من الذهاب إلى أخته ، وتضرع إليه فى أن يتركها مع ابنها فيفعل كارها . أما هى فقد دعت ابنها فوثب إليها من النافذة وأخذت تسأله ، فإذا هو يعيد دروسه فى الجغرافيا ، وإذا موضوع هذه الدروس أمريكا . فتسأله عن دول أمريكا الجنوبية ، فيعدّها حتى يصل الأرجنتين ، فإذا لهذا اللفظ وقع خاص ، وإذا هو قد أذهلها أو كاد ، وهى مع ذلك تريد أن تسأل ابنها وأن تعينه على الإعادة ، فهى تسأله عن الأرجنتين . ولكن الطفل لا يعرف

أكثر من أن الأرجنتين فى أمريكا . وأمه مغضبة ، وما فائدة الدرس إذا لم يفهم ما يقرأ وهى تصف له الأرجنتين لا كما هى فى الجغرافيا بل كما هى فى خيالها . فالأرجنتين بلاد غريبة فى كل شىء ، وغريب ما فيها من الأشجار ، غريبة سماؤها ، غريب ما فيها من نبات ، غريبة أنهارها تلك التى تقف على شاطئها فلا ترى شاطئها الآخر ، تلك التى تتغير ألوانها بتغير ساعات النهار وبتغير الجو ، فهى وردية حيناً ، ذهبية حيناً آخر ، وهى حيناً زرقاء ، وهى حيناً رصاصية ، وهى حيناً أنهار من اللبن حين يزحف على سطحها الضباب . وهى تتحدث بهذا كله لا إلى ابنها فقد نسيت مكانه بل إلى نفسها ، وقد تركت ابنها وذهبت إلى البيانو وجلست تلعب عليه قطعة موسيقية شعرها « لبودلير » وعنوانها « الإغراء بالرحيل » وفيها :

« أى بنيتى ، أى أختى فكرى » « فى اللذة التى نجدها حين نذهب »

« هناك لنعيش معاً . . . حين نفرغ » « للحب حين نحب ونموت فى البلاد » « التى تشبهك »

وهى تلعب وتغنى هذا الشعر ، وقد دخل زوجها ولم تشعر

به ، فإذا أهاب بها نهضت مذعورة وقد أقفلت البيانو . فيسألها : ماذا تصنع ؟ فتجيبه مضطربة كنت أعين الطفل على الدرس . ثم يهم أن يسألها ، ولكنها تنصرف مذعورة مضطربة ، فيحاول أن يسألها ولكن جرساً يدق هو جرس العشاء وقد جمعت قواها وأخذت تدفع زوجها أمامها هلمّ إلى العشاء ، كما تعشينا أمس ، وكما سنتعشى غداً . . .

***

فإذا كان الفصل الثالث فقد مضت دون هذا ثمانية أشهر ، ونحن فى ديسمبر والحجرة على حالها لم يتغير فيها شىء ، فما زالت الكراسى أمام الموقد ، وما زالت المروحة وديوان « بودلير » على المائدة . وقد أقبلت « مارى لويز » وأختها « جاكلين » فدخلتا تريدان الخلوة والتحدث بمعزل من الأسرة . ذلك أن جاكلين قد تزوجت منذ حين ، وأقبلت تزور أسرتها ، وقد أرادت أن تخلو إلى أختها حيناً لأنها تريد أن تحدثها بأمر ذى بال ، وأختها تتعجلها وتلح عليها فتنبئها بأنها رأت فيليب . فلا تكاد مارى لويز تسمع هذا الاسم حتى تضطرب له اضطراباً عظيماً ، فتسأل أختها ماذا تقولين ؟ تجيبها دهشة إنها تفهم

ما تقول ، وهو أنها رأت فيليب ، رأته فى مدينة « أبينال » التى تقيم فيها ، رأته خارجاً من دار البريد فدهشت ، وكانت معها صديقة تماشيها ، فسألتها أتعرفينه ؟ وكان قد مضى ولم يرها فلم يتكلما . تسمع « مارى لويز » فلا تزداد إلا اضطراباً ، وكأن حياتها كلها قد انقلبت رأساً على عقب ، فهى تسأل نفسها حائرة ماذا أصنع ؟ أما أختها فلا تزداد إلا دهشاً . فهى كانت تظن أن مارى لويز تعنى عناية خاصة بفيليب لأنه ترك فى نفسها أثراً قوياً ، ولكنها لم تكن تفرض أن الأمر قد تجاوز هذه العناية إلى الحب . وهى حين كانت تدهش لهذا الحب كانت بعيدة كل البعد عن أن تقدر الأمر قدره لأن الأمر لم يكن حباً وإنما كان شيئاً فوق الحب ، كان جنوناً واضطراباً عصبياً عظيماً . فلم تكد « مارى لويز » تشعر بأن فيليب فى « ابينال » حتى دار رأسها ، وأخذت تفكر فى سرعة مدهشة ففرضت أنه لم يأت إلى « أبينال » إلا لأجلها ، وأنه مع ذلك تعمد ألا يزورها ، وتعمد ألا ينبئها بشىء من نبئه ، وهو مع هذا كله ينتظرها فى « أبينال » ويريد أن تسعى إليه . وكيف يريدك على هذا السعى وهو لم ينبئك بمكانه ؟ .

– وأى شىء يخفى فى حياة الأقاليم ! فهو يقدر أنى أعلم مكانه فى أبينال !

— ولم لم ينبئك ؟

— لأنه يريد أن يمتحننى .

— ولم يريد أن يمتحنك وهو لم يعلن إليك حباً ولم يتحدث إليك فى غرام ؟

— انت لا تفهمين هذا ، فهو يحبنى ويحبنى ، وأنا أحبه ، وإن كنت قد جنيت جناية فهى أنى شعرت بهذا الحب ولم أشجعه على أن يبوح به . يجب أن أسعى إليه . يجب أن أراه ، وأن أقول له ما لم أقل ، وأن أسمع منه ما لم أسمع !

أما أختها فقد رقت لها وكأنها أشفقت عليها من الجنون فتعرض عليها أن تصطحبها إلى « أبينال » لتقضى عندها الليل ، ولتراه فى بيت أصدقاء لها وهى واثقة بأنها ستراه . فإذا تحدثت إليه عرفت أنه قد تزوج ودبر حياته كما كان يحب ، فأقلعت عن هذه الغواية ، ولكنها لم تكد تعرض هذا الأمر حتى أشفقت من عاقبته ، وخشيت أن يجر عليها وعلى الأسرة كلها سوءاً وعاراً ، فتراجع أختها وتنصح لها بالبقاء . ولكن هذه تأبى وتلح

الإلحاح كله فى السفر معها ، وتأمرها أن تذهب إلى حجرة الاستقبال حيث زوجها لتستأذنه فى هذا السفر دون أن يعلم بشىء من حقيقة الأمر ، وتدفعها خارج الحجرة دفعاً . وتظل وحدها حيناً مضطربة ، وقد ذهبت إلى البيانو وإلى حيث المروحة والكتاب ولكنها تحس وقع أقدام فتعود ، وقد دخلت أختها وزوجها فتم الاتفاق على السفر . فإذا خلت إلى أختها بعد حين أخذت هذه تراجعها وتلح عليها فيه ، وتذكرها زوجها وأبويها وابنها والأسرة كلها ، فكلما ذكرت لها شيئاً من هذا أمرتها بالصمت أمراً عنيفاً ، وهى فى حقيقة الأمر مضطربة مترددة تشعر ولكن شعوراً ضعيفاً جداً ، لأنها مقدمة على أمر خطير ، وتحاول أن تُرَوِّى ، وأنى لها أن تروِّى وقد ملكتها هذه العواطف الثائرة واستأثر بها هذا الجنون ، فلا بد من أن تسافر ، ومن أن تراه ، وستسافر وستراه ؟

٭ ٭ ٭

ويسدل الستار ثم يرفع ، فإذا نحن فى غد ذلك اليوم الذى مر فيه ما قدمت لك ، والغرفة على حالها وقد جلس إلى المكتب أبو « مارى لويز » وزوجها يتحدثان فى أمر المصنع

وتقدمه ، ويقدم كل منهما إلى صاحبه التهنئة والثناء . ولكنهما مضطربان اضطراباً يحاولان كتمانه . أما الشيخ فلا يفهم سفر ابنته إلى « ابينال » وهو لا يحاول أن يفهم . وأين السبيل إلى فهم ما يخطر للنساء ، وهو يعلم أن ابنته شديدة التأثر بالشعور ، قد ورثت ذلك عن جدتها . ألم تَـكَلَّفْ جدتها حين كانت فى الثامنة عشرة من عمرها بفتى من الذين يلعبون ليضحكوا الجمهور . على أن هذا الحب لم يكن إلا عرضاً لم يلبث أن زال . أما الزوج فاضطرابه أشد ظهوراً وأعظم رسوخاً ؛ لأنه قد فهم نفسية زوجه وما يخالجها ، وهو مشفق إشفاقاً شديداً ، ولـكن هذا الاشفاق يستحيل إلى جزع حين يتناول رسالة ويقرأ فيها أن فيليب قد وصل إلى « ابينال » ، وحين يعلم أن الشيخ قد عرف مكان الشاب فى « ابينال » ، وإذن فامرأته أيضاً قد عرفت مكانه ، وهى قد عرفته قبل أن تسافر ، وهى لم تسافر إلا لذلك . ولـكنه يكتم هذا كله فى نفسه ، ويتكلف الجلد . والشيخ يفهم كل ما يدور فى رأسه ، ويتكلف الجهل والغفلة . وهما كذلك إذ يدخل الطفل فيداعب الشيخ حيناً ثم يداعب أباه ، وقد انصرف الشيخ ، ولـكن أباه مشغول ،

فهو ينظر فى الساعة من حين إلى آخر ينتظر أن تعود امرأته ، والطفل يلح عليه ، فيلتفت إلى الطفل حيناً وقد أخذ هذا الطفل يقرأ على أبيه أسطورة حفظها . وهو فى ذلك إذ يلتفت فيرى أمه قد أقبلت . أما أبوه فيأمره أمراً عنيفاً أن ينصرف وتحاول الأم أن تمسك ابنها ، ولكن الزوج يلح فى انصرافه لأنه يريد أن يتحدث إليها . ينصرف الطفل ، ويخلو الزوجان ، فاذا الرجل مغضب غضباً شديداً ، ولكنه محب حباً شديداً فهو يملك غضبه ، ويكتفى بأن ينظر إلى امرأته نظراً ثقيلا ، ويسألها فى صوت المغضب الذى يملك نفسه : ما ذا صنعتْ وما ذا رأت وفيم تحدثت ؟

أما هى فتتجلد ، ولكنها قد فقدت الجلد ، فلا تستطيع أن تثبت فتجلس ، وتجيب زوجها مضطربة متثاقلة ، فتحدثه أنها رأت فيليب .

— ما ذا قال لك ؟

— لم يقل لى شيئاً ذا خطر ! !

— أريد أن أعلم ! . . .

وهنا تعيد عليه ما قال لها فى صوت يدل على خيبة

الأمل وعلى حزن شديد ، وكأنها قد عادت من رحلة بعيدة جداً ، وهى متعبة وهى تطمح إلى الراحة وتطمع فى استئناف الحياة الهادئة . فقد حدثها بأنه ضخم الثروة فى الأرجنتين ، وبأنه يشرف على مصنع عظيم ويخرج طائفة ضخمة جداً من المسامير فى كل يوم ، وبأنه يقاوم منافسة الصناع الألمانيين ، وبأن شوارع الأرجنتين مستقيمة منظمة كشوارع البلاد الأخرى وهو إذن رجل كغيره من الناس ، هو كزوجها ، وكأنها وكالشيخ الذى زار البيت فى الفصل الأول ، منصرف إلى صناعة المسامير وتجارة المسامير ، والأرجنتين كغيرها من بلاد الأرض . كانت إذن فى حلم وقد أفاقت من هذا الحلم . وهى تذكر أن هذا الشاب قد مات بالقياس إليها . وهى فى أثناء هذا الحديث وإذا زوجها قد جلس إلى جانبها يلاطفها ويرفق بها وينهاها عن البكاء ، قد رق لها وهو سعيد بعودتها إليه ، ولكنه يخفى سعادته كما أخفى شقاءه ، لأنه لا يفكر أو لا يريد أن يفكر إلا فيها . وهو ينظر وهى تتبع نظره ، وإذا عينه قد وقعت على المروحة وعلى ديوان « بودلير » وعلى الكراسى المصفوفة أمام الموقد ، وهى قد نهضت فأخفت الديوان بين

الكتب ، وأخفت المروحة فى درج من الأدراج ، ونقلت أحد الكراسى من مكانه ! كل ذلك وزوجها ينظر إليها ، حتى إذا وصلت إليه ضمها إلى صدره ضماً طويلا ، ثم تتخلص من ذراعيه وتذهب إلى البيانو فتلعب ، ولكنها لا تلعب « الأغراء بالرحيل » ولا تتغنى بشعر لبودلير ، وإنما تلعب قطعة أخرى كانت كلفة بها أيام سعادتها ، وكانت تلعبها فى أول القصة .

وإذا هو يميل إليها شاكراً .

ابريل سنة ١٩٢٤

الحبيب

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « جاك ديفال »

كتب إلى أديب من طلاب مدرسة الحقوق الفرنسية لا أسميه ؛ لأنى لا أدرى أيحب أن يسمى أم لا ، كتب الى هـذا الأديب كتاباً رقيقاً اضطره فيه حسن ظنه بى الى ثناء كثير أشكره له شكراً خالصاً ، ولـكنه لم يكتب ليثنى على ، وإنما كتب إلى عاتباً ، وأكاد ، أن أقول إنه كتب إلى لائماً ؛ لأنى أهملت قصة « الحبيب » هذه فلم أشر اليها مع أنها خليقة بالدرس والتحليل . وهو يسألنى لم أهملتها . ولست أدرى لم أهملتها ؛ فقد قرأتها فراقتنى ، وقدرت أنى أستطيع أن أكتب عنها صفحة من هذه الصفحات التى تنشرها «السياسة » أيام الأحد . وما أحسب أنى تعمدت إهمالها ، وإنما أعلم أنى

شغلت عن أن أحدث قرائى فى يوم من هذه الأيام . فلما كان يوم الأحد الماضى كنت قد قرأت قصة « الإغراء بالرحيل » فكتبت عنها لأنها أعجبتنى ، ونبهنى الكاتب الأديب الى قصة الحبيب فسأتخذها موضوعا لحديث اليوم ويسرنى أن أرضيه وأن أرضى أصحابه الذين يشاركونه فى الالحاح علىّ فى أن أتخذها موضوعا لهذا الحديث . ويسرنى أن أرضيهم ، وأنا فى الوقت نفسه أرضى ميولى الخاصة حين أخص هذه القصة ، فأنا عنها راض وإليها مطمئن . وربما قلت إنى بها معجب ، وإن كان فيها موضوع لا يعجبنى ، وسأدلك عليه . لاحظ هذا الكاتب الأديب أن قصة « الإغراء بالرحيل » إذا كانت تذكر بقصة « الحب » فإن هذه القصة التى نحن بإزائها اليوم تذكر بقصة أخرى تناولتها فى هذا المكان بالنقد والتحليل ، وهى قصة « المتجردة » « لهنرى بتايل » وفى الحق أن فى قصة الحبيب شيئاً يذكر بقصة المتجردة . فالبطل فى قصة الحبيب مصور نابغ فى التصوير . والبطلة فى قصة الحبيب ساذجة مخلصة بعيدة كل البعد عن هذا التعقيد النفسى الذى يصيب الذين تأثروا بالحياة و بلوا حلوها ومرها ! واستفادوا من دروسها القاسية ، وهى تشبه من وجه

ما بطلة المتجردة فى سذاجتها وسلامة قلبها والبطل فى قصة الحبيب يحب امرأة غير زوجه ، كما يصنع البطل فى قصة المتجردة . ولكن أيكفى هذا لتصح الموازنة بين هاتين القصتين ؟ أيكفى هذا ليكون التشابه بين هاتين القصتين قويا أخاذا ؟ أعترف بأنى قرأت قصة الحبيب معنيا بها محققا فى قراءتها ، فلم أذكر المتجردة ، ولم تخطر لى على بال ، وما كنت لأذكرها لولا أن لفتنى إليها هذا الكاتب الأديب ذلك لأن الفرق بين القصتين عظيم ، لأن الكاتبين الذين كتبا هاتين القصتين لم يفكرا فى شىء بعينه ، ولم يقصدا إلى غاية مشتركة ولا متشابهة وأحسب أن كلا منهما أراد أن يصور شيئا لم يفكر فيه الأخر قط . وكان صاحب قصة الحبيب يستطيع أن يختار بطله مصورا ويستطيع أن يختاره مثّالا كما كان يستطيع أن يختاره من طبقة أخرى غير هاتين الطبقتين . هو لم يرد أن يدرس أخلاق المصورين ، والمثّالين ، ولا أن يعطى صورة من حياة أولئك أو هؤلاء ، وإنما أراد أن يدرس شيئا آخر ، أراد أن يدرس فكرة فلسفية أو — بعبارة أدق — أراد أن يدرس ظاهرة نفسية ، فاختار موضوعه وبيئته كما أراد ،

لا أقول بحكم المصادفة و إنما أقول إنه تخير من الموضوعات والبيئات أشدها ملاءمة للظاهرة التى يريد أن يدرسها و يتحدث فيها إلى الناس . وما هذه الظاهرة النفسية التى لاحظها الكاتب وعنى بتمثيلها ، وهل هى صحيحة ؟ وهل هى عامة طبيعية ؟ أما أنها صحيحة فشىء لا شك فيه . وأما أنها عامة مضطردة فذلك ما لا أستطيع الجزم به .

الأمر يسير ، هو أن الكاتب يزعم لنا أن حرباً عنيفة قد تنشب بين القلب والذاكرة ، وأن الذاكرة تستأثر بعواطف الرجل وأهوائه وتملك عليه رأيه وحياته العملية ، حتى تنسيه كل شىء ، وتصرفه عن كل شىء لتشغله بالموضوع الذى هى معنية به ، وأن النصر فى هذه الحرب مقدر للذاكرة إذا لم تعرض ظروف خاصة تنبه العقل والإرادة من نومهما ! وتبين لهما أن انتصار الذاكرة هذا إنما هو خطأ لا يعدله خطأ وخطر ليس فوقه خطر . ولست أشك فى أن الذاكرة شديدة التأثير فى حياتنا الخاصة والعامة ، وربما كانت أشد ملكاتنا النفسية تأثيراً فى الحياة ، فهى التى تمثل الماضى ، وهى من هذه الجهة مرآة لهذا القسم من حياتنا الذى هو كل شىء . وفى الحق أن

الماضى هو كل شىء فى الحياة . أما المستقبل فنحن نجهله الجهل كله ، وأما الحاضر فأى شىء هو ؟ أليس أوله متصلا بالماضى فى حين آخره متصل بالمستقبل ؟ الذاكرة إذن مرآة الحياة . ومن المعقول أن يكون لها فى حياتنا المستقبلة تأثير عظيم جداً ، فليست حياتنا المستقبلة إلا نتيجة فى حقيقة الأمر لحياتنا الماضية . ولكننى مع ذلك أشك فى أن يكون تأثير الذاكرة وسيطرتها على حياتنا من القوة ومن العموم والاطراد بحيث أراد الكاتب . فإذا كان المستقبل نتيجة الماضى فنحن نخطىء كل الخطأ إن زعمنا أنا نعرف ماضينا حقاً ونذكر مع التفصيل كل ما وقع فيه ، ولعلنا لا نذكر منه إلا القليل . ولعل أشد الأشياء تأثيراً فى حياتنا المستقبلة هى هذه المؤثرات الخفية التى تسيطر على على عواطفنا وأهوائنا وتدبر قوانا وملكاتنا دون أن نحسها أو نشعر بها ، بل دون أن نفرض لها وجوداً ، ذلك أنا لا نشعر من أنفسنا إلا بالشىء القليل جداً وأنا نجهل منها أكثر مما نعلم ، ولو أننا علمنا من أنفسنا كل شىء لما كنا كما نحن الآن . ولو أننا شعرنا من أنفسنا بكل شىء لانصرفنا إلى أنفسنا عما يحيط بنا من الحقائق والحوادث . ولكن العالم الخارجي يشغلنا جداً

عن أنفسنا ؛ فنحن نعلم من غيرنا أكثر مما نعلم من أنفسنا . وحسبك أن أشد العلوم تأخرا إلى الآن إنما هو علم النفس . إذن فمن الخطأ أن نغلو فى تقدير الذاكرة وتأثيرها فى الحياة . وإذا بلغ تأثير الذاكرة فى الحياة إلى هذا الحد الذى مثله الكاتب فليس من الحق ولا من الصواب فى شىء أن نتخذ ذلك مثالا لما يجرى فى الحياة اليومية ، وإنما الحق والصواب أن نتخذه مثالا لهذه الأعراض المرضية التى تعرض لبعض الأفراد من حين إلى حين .

بطل قصة « الحبيب » إذن مريض . وهو لا يمثل عامة معاصريه ولا الكثرة منهم ، وإنما يمثل هؤلاء الأفراد القليلين الذين يعنى بهم أطباء الأعصاب ، أكثر مما يعنى بهم علماء الأخلاق والاجتماع ، ولكننى أظن أن الوقت قد آن لأحدثك عن هذا البطل وعن قصته ، ولأترك لك وحدك الحكم بأنى مخطىء فى هذا الفهم أو مصيب . أما ما فى القصة نفسها من عيب فنى فأنا أرجو أن يمكنك التحليل من أن تشعر به دون أن أدلك عليه .

* * *

« جان ارجديو » مثّال نبغ فى نحت التماثيل ، ونال الوسام ، وأصبح نابغة معروفاً يشار إليه ويعتد به ، ولكنه قبل أن يصل إلى ما وصل إليه كان كغيره من إخوانه فى هذا الفن مضطرباً مختلط الحياة شاكا فى نفسه ، فقيراً ، ضعيف الأمل . فلقى فى طريقه امرأة جميلة فنانة قوية عظيمة التأثير ، هى « أليس فليزا » ، أحبها وأحبته ، وعاشا معا أربعة أعوام . وكان لهذه المرأة فى هذا الشاب تأثير عظيم جداً ؛ فقد نظمت حياته بعد اضطراب ، وأوضحتها بعد غموض ، وحملته على العمل والجد بعد الإسراف فى الكسل والخمول . وما زالت به حتى كأنها غيرته تغييراً تاماً . ومهما يكن من شىء فقد انتهى إلى الفوز وأصبح نابغة من نوابغ الفن .

أمّا هى فقد أصبحت ذات يوم تتفقد خليلها فلا تراه ، وتبحث عنه فلا تظفر به . ولم يكن من اليسير أن تظفر به فقد فر من باريس فراراً ، حتى وصل إلى فرنسا الوسطى . وهناك لقى صديقاً له ، ولقى عند هذا الصديق فتاة من ذوى قرابته ، هى « فيفيت » فى التاسعة عشرة من عمرها ، وهى زهرة نضرة كلها شباب وحياة ، وكلها طهارة وبراءة ، وكلها

سذاجة وطيب قلب . أحبها فأحبته ، فخطبها وقبلته وتزوجها بعد ثلاثة أسابيع ، وعاد بها إلى باريس ، ولكنه لم يسكن باريس ، وإنما سكن ضاحية من ضواحيها هى « شاڤيل » وقد استأجر بيتا متصلا بمصنع ضخم ، يشرف عليه صديق له هو « ميشيل كريفو » ، وهذا الصديق رجل ضخم الثروة ، قوى النفس ، مستقيم الخلق ، كان عاملا معدماً ، فجد حتى أصبح غنياً ميسوراً .

* * *

فإذا كان الفصل الأول ، فقد مضت على هذا الزواج أشهر ثمانية ، وتغير فى أثنائها هذا الشاب المثال ، فأخذ يفكر فى الماضى ويتأثر بالتفكير فيه . وهو يحب زوجه حباً شديداً ، ولكنه عن زوجه مشغول . مشغول بتلك التى أحبها وفر منها قبل الزواج . وهو لا يحدثنا بذلك ، ولكننا نفهمه من سياق القصة . نرى هذا الشاب فى أول الفصل وقد خرج من غرفته إلى معمله ، وأخذ يستعد للعمل ، ولكنه سمع فى الحديقة صوت زوجه تدعو الخادم إلى أن تحمل إليه القهوة ، فلم يكد يسمع هذا الصوت حتى أظهر تبرما ومللا ، وكتب فى ورقة

هذه الكلمة « سأعود » ثم ألصق الورقة إلى الحائط وخرج مسرعاً . تقبل زوجه والخادم . أما الزوج فتحمل أزهاراً ، وأما الخادم فتحمل القهوة أو الشاى . فإذا لم تجد زوجها ظهر عليها الأسف وخيبة الأمل ، وكان بينها و بين الخادم حديث فهمنا منه أشياء : الأول أنها تحب زوجها حبا لا حد له وتثق به ثقة لا يعرف الشك إليها سبيلا . الثانى أن هذا الزوج غريب الأطوار ، فهو إذا أراد العمل اعتزل الناس جميعاً حتى زوجه ، وهو قد اتخذ لنفسه غرفة خاصة بجوار المعمل ينام فيها ، وليس لأحد أن يدخلها حتى زوجه . الثالث أن زوجه تصدق هذا كله وتذعن له ، فلا تدخل الغرفة ولا تغير من أمر المعمل شيئاً لأنها تخاف أن تغضبه ، وهى حريصة على الطاعة . الرابع أن هذا الرجل يرى زوجه حديثة السن شديدة السذاجة وكأنه يكره ذلك ، فهى تتكلف أن تكون كبيرة وأن تكون ماهرة ما كرة، حتى لا تظهر مظهر الطفلة . الخامس أنه يعمل فى هذه الأيام ، وأن عمله منصرف إلى أن يصنع تمثالا نصفياً لامرأته ، ولكن امرأته ترى هذا العمل دون أن تستطيع أن تنظر إليه ما لم يكن زوجها حاضراً . . . كل هذا يمثل لك حياة هذين الزوجين ،

ويحملك على أن تفهم من الرجل أكثر مما تفهم منه امرأته . فاذا عاد الزوج وكانت امرأته قد خرجت من المعمل نظر ، فاذا الشاى ، ونظر فأذا الأزهار منثورة فى كل مكان ، فيميل إلى هذه الأزهار ، فاذا ورد جميل ، لا يكاد ينظر إليه حتى يغضب غضباً شديداً ، فيدعو زوجه ، فتقبل مسرعة وهى فرحة مبتهجة ، ولكنه يلقاها باللوم . أليست قد أساءت حين حملت إليه هذه الأزهار كلها ، لأن هذه الأزهار إنما هى التى غرسها البستانى أمس ، فهى لحمقها قد أفسدت عمل البستانى وهى تسمع لهذا محزونة كئيبة معتذرة . ولكنها قد أساءت إساءة أخرى فتركت مظلتها أمس فى المعمل وقد عثر بها زوجها فكاد يسقط ، وهى تعتذر ، ولكن زوجها يحبها ولا يكاد يراها كئيبة محزونة تمثل الطفل فى كآبتها وحزنها حتى يرق قلبه فيضمها إليه يريد أن يقبلها ، ولكنه قد شم منها رائحة أنكرها ، فيسأل فاذا هى كانت تعد « الفاصوليا » لطعام الغداء ، فيغضب غضباً شديداً ! لديها خادم ، ولديها طباخة ، فما لها وللفاصوليا ! !

— ولكنك لم تنهنى عنها وإنما نهيتنى عن تنظيف السمك فأطعت ! .

يعجبه منها كل هذه السذاجة ، فيبسم لها و يقبلها ويمسكها فى المعمل يريد أن تجلس لينظر إليها ، ويمضى فى تمثاله وهى بذلك سعيدة جداً . ولا يكاد يأخذ فى العمل حتى يحس أن أحداً مقبل ، فينظر فإذا امرأة مقبلة ، يتلقاها لقاء حسناً وقد استخفت « فيفيت » . هذه المرأة المقبلة هى « نيكول بشلان » امرأة جميلة غنية كانت تكره زوجها وقد فقدته ، وهى سعيدة بهذا الفقد ، ولكنها لبست الحداد عملا بالأوضاع الاجتماعية ، وقد أوشكت أيام الحداد أن تنتهى وهى قد أقبلت تدعو « جان » إلى العشاء عندها بعد أيام ، وأقبلت أيضاً تسأل عن عربة لها فى مصنع « ميشيل كريفو » الجار الذى وصفته لك آنفاً . ولكن هذه المرأة لا تتحدث فى هذه الأشياء وحدها ، و إنما تتحدث فى أشياء أخرى ، تذكر « أليس فليزا » عشيقة « جان » وما كان من أمرها بعد القطيعة ، وأنها مرضت مرضاً أشرف بها على الموت ، وقد أخذت تُبِلّ من هذا المرض ، وهى معتزمة السياحة ، وهى تمضى فى هذا الحديث مفتتنة فيه ، وصاحبنا يسمع لها كارهاً متألماً مغتاظاً ، ثم يتركها ليمضى فى شأن من الشؤون ، وقد دعا امرأته لتقوم مقامه ،

فتقبل « فيفيت » ، ولا تكاد تتحدث إلى هذه الزائرة حتى تفهم من حديثها أنها سيدة مغتبطة واثقة ، وتحاول الزائرة أن تفتح عينها وأن تدلها على ماضى زوجها فلا تظفر منها بشىء . وهما كذلك إذا يدخل « ميشيل كريفو » ، فيتحدثون فى أمور كثيرة لا قيمة لها . ولكن هذا الرجل تعوّد أن يأتى إلى هذا البيت كل صباح فيدخن ويشرب كأساً من نبيذ بوردو ثم ينصرف ، وقد ذهبت « فيفيت » لتحمل إليه نبيذه ، فخلا إلى هذه المرأة ، وكان بينهما حديث لذيذ ، فهمنا منه أنه يخطبها وأنها قابلة ، ولكنها مترددة لأنها تحب الرجل ولكنها تكره الزواج ، وهى تكره الزواج وتزدرى العشق . وإذن فهى تريد أن تظل أرملة ، وهى تعتقد أن الزواج مصدر شقاء لا مصدر سعادة ، وتتحدى صاحبها وتسأله أن يذكر لها زوجين سعيدين . فإذا ذكر لها صاحبى هذا البيت شكّت فى سعادتهما واتهمت صاحبها بالغفلة . وقد أقبلت « فيفيت » ومعها النبيذ ، ومال صاحبها إلى نبيذه يشربه ، وأقبل « جان » وأخذ « ميشيل » و « نيكول » يستعدان للانصراف ، وأمسك جان امرأته ليمضى فى عمله . ولكن

الخادم أقبلت فطلبت الإذن لرجل أقبل زائراً ، فيغضب جان ويشير على امرأته أن ترافق ميشيل ونيكول ريثما يستقبل هو هذا الزائر . ويستقبل هذا الزائر ، فإذا هو رجل يعمل فى مكتب من مكاتب المراقبة المعروفة فى باريس وغيرها من المدن الكبرى ، و إذا جان كان قد طلب إلى صاحب هذا المكتب أن يراقب خليلته القديمة « أليس » وينبئه بأخبارها كل يوم . ذلك أنه عرف مرضها ولا يستطيع أن يتعرف أنباءها ، فقد اعتمد على هذا المكتب فى ذلك ، وكلف المكتب هذا العمل ، وأخذ الرجل يختلف إلى بيتها ويتعرف أنباءها من خادم لها . ولكن الخادم دلت سيدتها عليه ، فبينما هو ينتظر الخادم ذات يوم أقبلت فأنبأته أنها بخير وأنها نهضت من سريرها ، وأن الطبيب يشير عليها بر ياضات قصيرة فى العربة . وقد أخطأ الرجل لأنه دل على نفسه ، فأقبل معتذراً إلى جان ، يضرع إليه فى ألا ينبىء بهذا الخطأ رئيس المكتب . وأكبر ظنه ، أن « أليس » هذه تريد أن تزور « جان » فى بيته . ولكن جان مغضب لخطأ هذا الرجل فيصرفه ، ويأخذ فى التحدث إلى نحاته فى أمر من أمور عمله . وما هى إلا أن

يعود هذا الرجل فينبىء « جان » بأنه رأى « أليس » مقبلة ، وقد أقبلت « أليس » بالفعل ، فيتلقاها « جان » مضطرباً ذاهلاً ، حتى لينسى أن يقدم إليها كرسياً . فإذا خلا أحدهما إلى الآخر كان موقف هو خير ما فى هذا الفصل ، لأنه يمثل حدة العواطف وقوتها فى نفس هذه المرأة المهجورة العاشقة التى تريد أن تنتقم لحبها وأن تسترد حبيبها ، والتى هى واثقة بأن حبيبها لم ينسها بعد ، وبأنه ما زال لها عاشقاً وبها مشغوفاً . وإلا ففيم سؤاله عنها وهى مريضة ؟ وهى تريد أن تستغل هذا وتسترد مكانتها كاملة فى نفس هذا الشاب . أما الشاب فمضطرب أشد الاضطراب ، هو يحب هذه المرأة ، وهو يحب زوجه ، وهو يؤثر زوجه على هذه المرأة ، وهو يريد أن يخفى حبه لعشيقته حتى على نفسه ، فهو ينكر هذا الحب ويلح فى الإنكار ولكن إنكاره لا يدل إلا على أنه يحب وعلى أنه يحب جداً . يقول لصاحبته : لا أحبك وما أحببتك قط . فتجيب ساخرة سعيدة راجية : وستحبنى طوال الدهر . ثم تعلن إليه أنها قد دبرت كل شىء لتفرّ بحبهما ، ولتخلصه من هذا المأزق . أمَا كانا قد تحدثا قديماً عن سياحة بعيدة يسيحانها معاً ، فهى

قد دبرت هذه السياحة ، وسيسافران يوم الجمعة ، فإذا أظهر المقاومة أعلنت إليه أنها ستنتظره ، فإذا لم يأت فهى قاتلة نفسها ، وقد مضت وتركته ذاهلا ، ذاهلا حتى إنه ليختلط حين يسأله نحاته عما يعمل . وقد أقبل « ميشيل » سعيداً مغتبطاً ، لأن صاحبته قد رضيته لها زوجاً . ولـكنه ينظر فإذا جان كئيب . فإذا سأله عن ذلك قص عليه أمره وأنبأه بأنه مجرم لا يحب امرأته و إنما يحب عشيقته ، وهو إنما تزوج ليخلص من هذه العشيقة ، فهو قد اتخذ امرأته دريئة ، وهو لا يستطيع أن يمضى فى هذا الـكذب والنفاق ، وهو يلح فى ذلك وصاحبه يهدئه ويعظه ، وإذا « فيفيت » تقبل فرحة مبتهجة ساذجة تريد أن تلقى بنفسها بين ذراعى زوجها ، وتتأهب لذلك فتعد واحد . . . اثنان . . . وإذا زوجها قد نسى كل شىء ورق لها ، وإذا هو قد بسط ذراعيه وإذا هو يقول ثلاثة . . . ثم يضمها إليه .

***

فاذا كان الفصل الثانى ، فنحن فى ذلك اليوم الموقوت يوم الجمعة ، وقد أخذ الشاب يتردد بين الضاحية وبين المدينة ،

وهو يخيل إلى امرأته أنه مشغول بعمل تطلبه إليه وزارة الفنون الجميلة ، وصدقته امرأته ووثقت به ، حتى إن الخادم والنحات يسخران منها . . . ونحن فى الساعة الثالثة بعد الظهر وقد خرج الشاب صباحا فلم يعد ، وانتظرته زوجه إلى الساعة الثانية ثم تغدت وحدها والخادم. الآن تحمل القهوة وتحمل قدحين ، لأن فيفيت تنتظر زوجها وتعلل نفسها بتناول القهوة معه . وقد أقبلت وإذا جرس التليفون يدق ، فتعمد إلى التليفون مبتهجة تحسب أن زوجها هو الذى يتحدث ، ولكن الذى يتحدث ميشيل يسألها أيستطيع أن يزورها ومعه صاحبته « نيكول » ، فتجيبه أن نعم . وهى تجيبه إذ يظهر زوجها فتترك التليفون وتسرع إليه تسأله وتتبين أمره وهو محزون كاسف البال ، فيخيل إليها أنه متعب وأنه لم يتغد ، ولكن تغدى فى باريس وهو يريد شيئاً من القهوة ، ولكنها ترى أن هذه القهوة الفرنسية ليست شيئاً فتصنع له قهوته التركية وقد انصرفت مسرعة . وظل الشاب والخادم ، فيأمرها بأن تعد له حقيبته لأنه قد يسافر الليلة ، وينبئها بأنه ينتظر رسالة برقية فيجب أن تحملها إليه حالا ، وتنظر الخادم ، ثم تنصرف وتعود بسرعة ومعها سترة

تحملها إلى سيدها ، فاذا أنكر ذلك لفتته إلى أن سترته فى حاجة إلى التنظيف ، فينظر فاذا آثار (البدرة) على كتفيه . فيخرج من سترته ويدخل فى الأخرى وقد فهم . . . لم يكن إذن فى وزارة الفنون الجميلة ، وإنما كان عند صاحبته . وقد أقبلت زوجه تحمل إليه القهوة ، فينبئها بأنه مسافر إلى مارسيليا الليلة وأنه ينتظر رسالة برقية . فاذا سألته عن مصدر هذا السفر أنبأها أن الحكومة تريد أن تعهد إليه عملا فى المحطة الجديدة التى تنشأ فى مارسيليا . ولذيذ جدا هذا الحديث لأنه يمثل هذا التناقض الشنيع بين امرأة خفيفة الروح تثق بزوجها ثقة لاحد لها ، فهى تلهو وتمزح فى سذاجة واطمئنان ، وهو يخدعها ويخونها ويكذب عليها ويمعن فى الكذب ، ويتكلف مع هذا كله أن يلهو ويداعب . ويقبل « ميشيل » وصاحبته ، فلا يكادون يتحدثون حتى يكون الكاتب قد نظم لنا طريقة تمكن الرجلين من الخلوة ، فيخلوان ويتحدثان . أما « جان » فيقص أمره على صاحبه وينبئه أنه مسافر الليلة وليس من سبيل إلى تخليه عن هذا السفر ، فهو ينكر كل شىء ولا يعقل شيئا ولا يرى شيئا ولا يفكر فى شىء إلا صاحبته ، قد فقد كل قواه وأصبح

أداة مسخرة . ويحاول صاحبه أن يصرفه عن ذلك ، فما أسرع ما يشعر بأنه لن يصل منه إلى شيء . وقد كتب جان كتابين يدفعهما إلى « ميشيل » أحدهما إلى امرأته فيه اعتذار وتسلية . والآخر إلى ميشيل فيه تدبير الأمور المادية . فاذا سأله « ميشيل » وأين أكتب إليك أجابه : لا تكتب إلىّ فليس فى ذلك فائدة . وقد عادت المرأتان ونظم لنا الكاتب طريقة أخرى يخلو بها ميشيل إلى فيفيت فيتحدثان وإذا فيفيت تحس أن فى الجو شيئا لا تفهمه ، وأنها تخشى هذا الشيء فينبئها به ميشيل ويظهرها على كتاب زوجها إليها . فلا تسل عن دهشتها ولا عن ذهولها ولا عن حسرتها وبكائها ؟ ولكن ما أسرع ما تملك نفسها وقد أخذ صاحبها ينصح لها بالثبات والمهارة . ينصح لها أن تملك نفسها وأن تضحك ، ولا تظهر من اضطرابها شيئا ، وأن تلح ضاحكة فى مرافقة زوجها إلى مارسيليا .

— فإذا أبى !

— فاضحكى ورافقيه !

— فإذا غضب !

— فبالغى فى الضحك ورافقيه !

وقد فهمت وقبلت وملكت نفسها . ويقبل جان ، فإذا هى مبتسمة هادئة ، كأنها لم تعلم بشىء ، وكأنها لا تتوقع شيئاً . وتقبل الخادم تحمل الرسالة البرقية فتخطفها ڤيڤيت وتفضها وتحصى ألفاظها وقد اشترطت على زوجها أن يقبلها إن تجاوزت الألفاظ عشرة ، وقد تجاوزت الألفاظ هذا العدد . . . فيقبلها وكلاهما متكلف . أما هو فيتكلف الكذب والخديعة ، وأما هى فتتكلف الصبر والجلد . وفى الحق أنه لم يكن أقل منها حزناً ولكنه عن حزنه وعن قلبه مشغول فهو لا يفكر إلا فى صاحبته . وأعلنت إليه امرأته أنها سترافقه فجزع ، فضحكت وأعلنت إليه أنها سترافقه إلى باب الحديقة ! ثم ينهض ليعد أمره ويخلو إلى مكتبه حيناً وينصرف الزائران . ولا تكاد تخلو ڤيڤيت إلى نفسها حتى يدق جرس التليفون ، فتعمد إليه فإذا امرأة تتكلم تسأل عن « جان » وهل وصلت إليه الرسالة البرقية . فما أسرع ما تفهم ڤيڤيت ! وما أسرع ما تجيب ! كأنها الخادم ، تجيب بأن سيدها يعمل كما يعمل فى كل يوم ، وبأن رسالة برقية لم تصل ، وبأن سيدها لم يذكر السفر ولا يظهر أنه يفكر فيه . وكأن المرأة تنبئها بأنها مقبلة ؛ فتجيبها « ڤيڤيت » أن أقبلى ، وكأنها

تتحداها ؛ وقد تركت التليفون ووقفت موقف من يستعد للحرب ويتحدى خصماً عنيداً . وما هى إلا أن تقبل « أليس » فيكون بينهما موقف لا يقل جمالاً عن موقف « أليس » مع صاحبها فى الفصل الأول . تضطرب « أليس » حين ترى « فيفييت » ثم تسرع فتملك نفسها ، وتسأل عن « جان » فتجيبها « فيفييت » أنه منصرف إلى عمله ، وأنه أمر أن لا يدخل عليه أحد ، وتلح « أليس » فتنفجر الخصومة بين المرأتين وتظهر « فيفييت » قوية عنيفة ، فتطرد المرأة طرداً وتزدريها ازدراءاً منكراً ، وتعلن إليها أنها قد علمت كل شيء وأن زوجها ليس بالمسافر ولا بالمفكر فى السفر ، وتبالغ فى ذلك حتى لكأنها لتسحق المرأة سحقاً . وقد انخذلت « أليس » وأخذت تنصرف ، وعليها خزى وخجل ، ولكنها نظرت إلى وجه صاحبتها فإذا ابتهاج غريب قد ظهر على وجه « فيفييت » حين رأتها تنصرف ، فتفهم « إليس » وتقدر أن هذا الجلد وهذا العنف ليسا إلا تصنعاً وتكلفاً فتعود وقد أخذت من القوة والانتصار بحظ عظيم ، وإذا هى تهدد ! وإذا هى تطالب بصاحبها ، وإذا هى تعلن إلى هذه المرأة أنها لا تحب « جان » ، وإنما تحبها هى ، فهى التى كونت جان

وما فيه من خلق وما فيه من خصلة ، وهى التى جعلته كما هو ظريفاً وديعاً محبباً نابغة ، وإذا هى تعلن إليها أيضاً أن جان لا يحبها ، وإنما يحب صاحبته القديمة وأن كل ما بذل لها من لين ورفق وكل ما أظهر لها من حب وعشق إنما تعلمه بين ذراعيها ، وأما أنت فلم تلهميه شيئاً ولم تثيرى فى نفسه عاطفة ، إنه ليمنحك فضل حبه إياى ! . . . وإذا « فيفيت » هى المنخذلة ، وإذا هى تجهش بالبكاء حتى يثير فى نفس « أليس » عاطفة الرحمة ، فتسألها العفو ثم تعرض عليها أن تدعو « جان » ليختار هو بينهما ، فتقبل وتنهض لتدعو زوجها ، ثم يبدو لها فتعود وقد تغير فى نفسها كل شىء ! هى جزعة ، وهى يائسة ، وهى قد نزلت عن زوجها ، وهى ترده إلى صاحبته ، وهى تسألها أن تنصرف وتقسم لها لتردنه إليها فى عشر دقائق . وقد انصرفت وأقبل جان مستعد للسفر وفى يده حقيبته وهو محزون يجاهد حزنه ، وهى محزونة قد كتمت حزنها وأظهرت الصبر والجلد والابتسام ، وكأنها لا تعلم شيئاً ، وكأنها تنتظر عودته بعد أيام ، وهى مبتسمة وقد عدلت عن مرافقته حتى إلى باب الحديقة وكان يود لو رافقته قليلا ، ولكنها تأبى . وينصرف وقد انحنى ظهره

حزناً وأسفاً ، وما كاد ينصرف حتى تجزع « فيفيت » جزعاً شديداً ، وإذا هى قد أخذت قلنسوتها فوضعتها على رأسها فى غير نظام وأسرعت إلى الطريق تدعو زوجها . . .

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فنحن فى فندق من فنادق مارسيليا ، وبين يدينا فتاة تكتب على الآلة الكاتبة وقد أقبلت فتاة أخرى تحمل أزهاراً ، وتحدثت الفتاتان ثم أقبل « ميشيل » وقد فهمنا من هذا كله أن « فيفيت » عند ما أسرعت إلى الطريق تدعو زوجها قد مضت فى سبيلها حتى وصلت إلى المحطة ؛ حتى أخذت القطار فوصلت إلى باريس وإلى محطة ليون فلم تجد زوجها ، فأخذت أول قطار إلى مارسيليا . ووصل « ميشيل » إلى بيت « فيفيت » يتعرف أخبارها ، فلما أنبئ بأنها خرجت وحدها صائحة توقع شراً ، فمضى فى طلبها حتى بلغ محطة ليون ، وأخذ أول قطار إلى مارسيليا فلم يكد ينزل من القطار حتى رأى « فيفيت » وكانت قد أخذت القطار نفسه ، ولكنها أخذت الدرجة الثالثة لأنها لم تكن تحمل ما يكفى من النقود وقضت الليلة واقفة فى القطار معـرضة لبرد الجو وحر قلبها ، فلم

تصـل إلى مارسيليا حتى كانت الحمى قـد استأثرت بها ، وأدركها ميشيل وهى فى خطـر شديد فاضطرها إلى هـذا الفندق ، ودعا طبيباً وأبرق إلى « نيكول » يستقدمها ، وقد عنى الطبيب بهذه المريضة منذ أيام ، وقد أخذت تفيق وتسترد قواها ، حتى إن الطبيب يرى أن ليس بها من حاجة إلى الممرضة . أما ميشيل فلم يضع وقته وإنما انصرف فى أثناء إقامته فى مارسيليا الى العناية بهذه المريضة من جهة و إلى البحث عن زوجها من جهة أخرى ، وقد أقسم ليدركن هذا الزوج الهارب ، فأمر بمراقبة السفن المسافرة مراقبة شديدة ، ثم كتب الى « جان » كتباً أنبأه فيها بأمر « فيفيت » وأرسلها إلى جميع الفنادق التى يمكن أن يؤوى اليها جان ، وهو الآن ينتظر نتيجة هذا البحث . وانظر الى هذا الموقف وقد أخذ الطبيب يلاطف المريضة ويهدئها ثم انصرف وترك معها الممرضة ، وأخذت هذه الممرضة تستعد للانصراف ، وهى تبحث فى حقيبتها وتظهر ما فيها شيئاً فشيئاً تلتمس منديلا ، وفى أثناء هذا البحث أظهرت مسدساً زعمت أنها تحمله لتدفع عن نفسها . فهى تختلف الى الأحياء البعيدة ، وتتعرض لاعتداء

المعتدين ، ولكنها لم تجد المنديل فتلح عليها « فيفيت » فى أن تذهب لتأخذ أحد مناديلها فتفعل ، و إنها لفى ذلك إذ تسرع « فيفيت » الى المسدس فتختلسه اختلاساً وتخفيه ، وقد أقبلت المرضة فشكرت وأخذت حقيبتها وانصرفت ، ولم تشعر باختلاس المسدس ، وفهمنا نحن أن « فيفيت » إنما اختلست المسدس لتقتل نفسها ، وهى مع ذلك تظهر هدوءاً واطمئناناً ، حتى إن ميشيل ليأتى فيحدثها فلا تجيبه إلا هادئة مطمئنة ثم تنصرف الى غرفتها وكأنها متعبة تريد أن تستريح . وتقبل الخادم وتحمل بطاقة ، فاذا هى بطاقة جان . . . فيأذن له ميشيل وينتظر و يفتح الباب ولكن لا يدخل جان و إنما تدخل « أليس » . ولست أحدثك عما يدور بينها و بين ميشيل من الحديث . لكن « فيفيت » تسمع ما يدور بينهما ، فتخرج اليهما وتلح على ميشيل فى أن يتركها حيناً فيفعل ، ويكون بين المرأتين موقف لايخلو من جمال ليس فيه أول الأمر جهاد ولا حرب ، و إنما فيه استعطاف وتضرع . « فيفيت » يائسة من زوجها لا تطمع منه فى شىء ، وهى راضية بحظها لا تطلب إلا شيئاً واحداً ، تطلب أن يقرأ كلمة موجزة كتبتها اليه .

ولكن « أليس » تأبى عليها حتى هذا الطلب ، لقد استردت صاحبها ولم يكن هذا يسيراً ، وهى لا تريد أن تفقده مرة أخرى. لا تريد أن يتصل الأمر بينه وبين ماضيه ، هى تكره ، بل تخشى أن يرى « جان » شيئاً يذكره « بفيفيت » . ومهما تستعطفهما فيفيت فهى لا تعطف ولا تلين . هى تعلم أنها قاسية ، ولكنها تريد هذه القسوة . هى تنتقم لنفسها ولحبها ولحياتها لا من « فيفيت » بل من الزواج ومن الحياة الشرعية الاجتماعية التى تبيح كل شىء للمتزوجات . وتحظر كل شىء على العاشقات ، وقد يئست « فيفيت » وانتهى بها اليأس الى أقصاه ، وإذا الموقف قد تغير تغيراً تاماً . تريد « أليس » أن تنصرف فتحول « فيفيت » بينها وبين الباب ، وقد صوبت اليها المسدس تريد أن تقتلها وهى لم تكن تريد ذلك ، إنما كانت تريد أن تقتل نفسها ، ولم تكن تطمع إلا فى أن يعلم جان أنها أحبته وسعت اليه ثم عفت عنه . فأما هذه المرأة التى تأبى حتى أن تنزل لها عن هذا الشىء القليل فستقتلها ثم تقتل نفسها . وهى كذلك إذ يفتح الباب ويدخل ميشيل ومعه جان . . ذلك أن ميشيل قد لقى جان فى أسفل الفندق فحدثه بكل شىء وساقه ليرى

هاتين المرآتين معاً ، فإذا دخلا ورأى جان زوجه وفى يدها المسدس أقبل اليها مستفسراً فنزعه من يدها وقد بلغ به التأثر أقصاه ، فجلس وأطرق يبكى . وميشيل يسأله أن يفصل فى هذه القضية وأن يختار بين المرآتين ، وهو أضعف من أن يختار ، فقد أساء إليهما جميعاً وجنى عليهما جميعاً ، وهو قد أحب « فيفيت » بكل قلبه ، وأحب « أليس » بكل ذاكرته ، وهو يقول ذلك ويمضى فى البكاء . أما « فيفيت » فقد أقبلت اليه وجثت أمامه تلاطفه وتلح عليه فى أن يمضى مع صاحبته ، فهى لم تكن تطمع فى أكثر مما نالت . أليست قد رأته ؟ أليست قد أعلنت اليه حبها وعفوها ؟ إنها لتحبه إن مضى أكثر مما تحبه إن أقام ، ولكنه يبكى وهى جاثية بين يديه . والأخرى واقفة ذاهلة أول الأمر ، ثم متنبهة شاعرة بأنها قد خسرت الموقعة ، فهى تتقهقر قليلا قليلا الى الباب تريد أن تنصرف دون أن يشعرا بها ، ولكنها مع ذلك تحس أنه يراها تنصرف ، وأنه يتجاهل ذلك ، فتمضى فى تقهقرها حتى تخرج وقد فتح ميشيل لها الباب فى هدوء ثم أغلقه من دونها . . .

* * *

أعترف بأن إعجابي بالفصلين الأولين عظيم ، ولكني أعترف بأن الفصل الثالث مضطرب مرتبك ؛ فقد فقد أو كاد يفقد كل دقة وكل جمال فني ، وأنه قد حول القصة من نوع فني الى نوع آخر . ولو أن الكاتب استأنى ولم يتسرع لاستطاع أن يختار من كل هذه المناظر المختلفة منظراً أو منظرين تنتهي بهما القصة انتهاء حسناً ، كما ابتدأت ابتداء حسناً . وما رأى صاحبي الذي كتب إليّ يوازن بين هذه القصة وبين « المتجردة » ؟ .

ألا يزال حريصاً على هذه الموازنة ؟ . . .

ابريل سنة ١٩٢٤

المصـــابيح

قصة تمثيلية للـكاتب الفرنسى « هنرى بتايل »

وكذلك يجب أن أقدم شكراً خالصا إلى طالب أديب من طلاب مدرسة الحقوق الملـكية ، كتب إلى كتابا رقيقا يسألنى فيه أسئلة أريد أن أجيب عليها ولـكن فى إيجاز شديد . يسألنى ما بال كُتّاب التمثيل من الفرنسيين يضعون قصصهم كلها أو أكثرها فيما يمس خيانة العلاقات الزوجية ؟ ثم ما بالهم يميلون فى الانتهاء بهذه القصص إلى العفو عن الخائن أو العطف عليه ؟ ثم ما بالى أنا لا أكاد أختار أو لا أختار من هذه القصص إلا ما يمس هذا الموضوع ؟

أما أن الـكتاب الممثلين من الفرنسيين وغير الفرنسيين يؤثرون هذا النحو من القصص التمثيلى على غيره فحقيقة واقعة ،

ولكن لا إلى الحد الذى يتصوره السائل الأديب . ففى ملاعب التمثيل قصص كثيرة لا تعرض لخيانة الزوجية ، ولا تميل إلى العطف على الخائنين ، وإنما تعرض لأشياء أخرى من فروع الحياة التى تتصل بالعواطف والأهواء . وليس من الحق أيضاً أنى لم أختر من هذه القصص البعيدة عن خيانة الزوجية شيئاً ، فقد اخترت قصصاً لم يعرض فيها كتابها للزواج ولا لخيانته ، ويكفى أن ألفت السائل الأديب إلى « الدمية الجديدة » و « نشوة الحكيم » « لفرنسوا دى كوريل » و « شأو القبس » « لبول هرفيو » وإلى قصص أخرى عرضت لها ولا أذكرها الآن . فإذا أردنا أن نتبين السبب الذى من أجله يعرض الكتاب الممثلون لصلات الزوجية وخيانتها فهو يسير . ذلك أن الحياة الجنسية ، أو — بعبارة أوضح — الصلة بين الرجل والمرأة هى أهم فروع الحياة وأشدها تأثيراً فى نفوسنا وسيطرة على أهوائنا وعواطفنا ، أردنا ذلك أو لم نرد . ولست فى حاجة إلى تعليل ذلك ، فهو شىء قد فرغ الناس منه . وإذا كانت الصلة بين الرجل والمرأة من الخطر بهذه المنزلة ، فليس عجيباً أن يعرض لها الكتاب فيدرسوها ويحللوها . ولكن ما ذا ينبغى

أن يدرسوا و يحللوا من هذه الصلة ؟ أيدرسون الصلة الهادئة المطمئنة التى ليس فيهـا عوج ، ولم تعترضها أزمة قوية ولا ضعيفة ، و إنما تمضى مع الزمان فى هدوء واطمئنان ! وماذا يدرسون من هذه الصلة وماذا يحللون ؟ وأى شىء فيها يستحق أن يدرس أو يحلل ! بل أى شىء فيها يستحق أن يقال ! ومن الذى قد وهبه الله الصحة والعافية فهو يعنى بتحليل هـذه الصحة والعافية والبحث عن أسبابها ونتائجها ؟ إنمـا يعنى الإنسان بمرضه وأعراض مرضه وأسباب هذا المرض ونتائجه ، لأن هذا المرض خليق أن يدرس ليتقى ، وهو خليق أن يدرس لتتقى نتائجه إذا لم يكن الى اتقائه سبيل. والأمر على هذا النحو فى صلات الزوجية إذا درست وحللت . تدرس وتحلل حين تستحق الدرس والتحليل ، أى حين تنشأ فيها الأزمات ، وحين تتعرض للأخطار . وأما أن الـكتاب يميلون الى العفو عن الخائن أو العطف عليه ، فليس هذا صحيحاً دائماً ، وهو صحيح فى كثير من الأحيان . وإلى من يريد السائل الأديب أن يميل الـكاتب ؟ وعلى من يريد السائل الأديب أن يعطف الـكاتب ؟ أعلى الصحيح ؟ ولم نميل اليه ولم نعطف عليه ؟

أم على المريض ؟ أليس المريض خليقاً أن نميل اليه ونعطف عليه ونعنى به ونطب لأدوائه وعلله ؟ وهل خيانة الزوجية وغيرها من الآثام والنقائص التى يتورط فيها الناس إلا ضروب من العلل وألوان من الضعف ! ؟ لم يقصد اليها الإنسان عمداً ولم يختر التورط فيها ، وإنما اضطر اليها اضطراراً ، واضطرته اليها أسباب قاهرة لم يجد الى التخلص منها سبيلا ؟ أخشى أن يظن السائل أن العطف على الخائنين والآثمين تشجيع للخيانة والإثم ، فذلك بعيد كل البعد عن الحق والصواب . ليس هذا العطف تشجيعاً للاثم ، وإنما هو فهم له و إدراك لأسبابه . و إذا كان الذين يدعون الى أن يلغى القضاء بالموت على القتلة والمجرمين لا يشجعون القاتل ولا يؤيدون المجرم و إنما يعتقدون أنه الى المرض والضعف أقرب منه الى تعمد الإثم والقتل ، وهو إذن بالعناية والعلاج أحق منه بالقصاص ، أقول إذا كانت هذه حال الذين يلغون القضاء بالموت على القتلة ، فقريب منها حال الذين يعرفون الضعف الإنسانى وأسبابه فيعطفون على الضعفاء و يعملون لإصلاحهم لا للانتقام منهم .

ولو أنى ذهبت أفصل للسائل الأديب وجوه هذه المسألة

وما ينشأ عنها من بحث متشعب دقيق لأسرفت فى الإطالة ، ولتجاوزت القصد ، وأنا إلى هذا القصد شديد الحاجة ، فأمامى قصة أريد أن أحللها ، وأحسب أن السائل الأديب سيجد من قراءتها شيئاً من الجواب على أسئلته .

نعم ! سيرى أن بطل هذه القصة خليق بعطفنا كله ، وإن لم تعطف عليه الطبيعة ولم يرفق به هذا العدل الخفى الذى يظهر أنه يسيطر على هذه الحياة . هو خليق بعطفنا كله ، وهو مع ذلك قد خان صلة الزوجية واضطر إلى خيانة الصداقة والاساءة إلى الصديق ، ولكنه لم يتعمد ذلك تعمداً ، وإنما تورط فيه تورطاً ، واضطرته إليه هــذه الأسباب الخفية التى أشرت إليها آنفا ، والتى يخيّل إلينا أنها ليست فى حقيقة الأمر إلا طائفة من الشياطين قد استخفت فى طريق الانسان تتربص به الدوائر وتنتهز له الفرص وتضطره إلى السوء اضطراراً وإن كان من أشد الناس طهراً وأعظمهم ميلا إلى الخير وبعداً عن الإثم . ولست أريد أن أقدم المقدمات الطوال ولا القصار فى شرح هذه القصة وتفسيرها ، وإنما أريد أن تفسر القصة نفسها . فآخذ منذ الآن فى التحليل .

☆ ☆ ☆

« لوران بوچيه » عالم فرنسى بعيد الصوت رفيع المنزله، قد وقف جهوده على علم الحياة ، فوصل بالبحث إلى نتائج عظيمة الخطر جعلته موضع الأجلال لا فى فرنسا وحدها، بل فى العالم كله . وهو لا يعمل وحده وإنما يستعين على عمله الجليل بزوجه « جان » ، وهى أجنبية أحبت زوجها وأحبها هذا الحب العقلى الذى ينشأ بين شخصين ممتازين . وهما يعملان معاً متحابين متعاونين . ولأن كان الزوج نابغة فليس حظ امراته من الذكاء والتفوق بقليل . ويعينهما قوم كثيرون ، منهم الطلاب ومنهم الأساتذة ، ولكنّ من بينهم جميعاً رجلا قد تفوّق عليهم حتى التحق أو كاد يلتحق بالزوجين، وحتى أصبح لهما صديقاً حميماً ، وحتى تعوّد الأستاذ « بوچيه » أن يطلق لفظ الثالوث على هذه الجماعة التى تتألف منه ومن امرأته ومن صديقهما « بلونديل » . وقد عهدت الدولة إلى هذا الأستاذ فى الاشراف على معهد علمى جليل هو معهد « كلودبرنار » ، فاتخذه مكانا لهذه المباحث العلمية التى أخذت تثمر وتظهر النتائج الهامة منذ عشرين عاماً متصلة . ولهذا الأستاذ إبنة هى « مارسيل » قد أحبت العلم ومالت إليه وتقدمت فيه تقدما

حسناً . درست فى فرنسا ثم ذهبت تتم درسها فى ألمانيا ، فلقيت فى أثناء ذلك فتاة مَجَرية كأنها عطفت عليها ورقت لهـا واصطحبتها إلى باريس لأنها شقية بائسة لقيت فى حياتها ألواناً من الأذى ، وأحبت فى حياتها ضابطاً رافقها حيناً ثم خدعها ومضى لوجهه . فلما أقبلت هذه الفتاة ، واسمها « أدويج » إلى باريس مع صديقتها « مارسيل » تلقاها الزوجان لقاء حسنا ، وكلفاها شيئاً من العمل سهلا فى المعهد ، ولـكنها لم تلبث أن أظهرت ميلا شديداً إلى مباحث الأستاذ ، فاختلفت إلى المعمل وأخذت تشترك هى أيضاً فى البحث العلمى الخالص .

ونحن فى الفصل الأول وقد دعا الأستاذ إلى مائدته نفراً من أصدقائه العلماء ، فتغدوا ثم أقبلوا إلى المـكتب لتناول القهوة . والأستاذ يحدثهم بأن بحثه قد انتهى به إلى استكشاف جليل الخطر جداً ، فقد استكشف ميكروب السرطان ، وقد أخفى استكشافه هذا ليمتحنه ويحققه ، وهو الآن مستوثق من النتيجة لا يشك فيها ، وقد اعتزم أن يعرضها بعد أيام على المجمع العلمى ، ولـكنه أراد أن يظهر أصدقاءه عليها قبل أن يعلنها إلى الناس جميعاً . وأصدقاؤه دهشون معجبون يملؤهم الأمل

فى المستقبل . أليس هذا الاستكشاف هو الخطوة الأولى القيمة فى سبيل استكشاف آخر سيكون له الأثر العظيم فى حياة الإنسان وهو الوصول إلى شفاء السرطان ! ، هم إذن يثنون عليه وعلى زوجه ويبالغون فى إجلالهما . وهو يريد أن يظهرهم على هذا الميكروب الذى استكشفه ، فيريد أن يكلف أحد أعوانه الذهاب إلى المعمل ليحضر نموذجا من هـــذه النماذج . ولكن الفتاة الغريبة « أدويج » قد ندبت نفسها متطوعة لهذا الأمر وأسرعت إلى المعمل وعادت ومعها ما طلب إليها ، فأخذته « جان » ووضعته فى الميكروسكوب ، وأقبل أحد العلماء ينظر ، ولكنه دهش ، لأنه لا يرى ما تحدث به إليه الأستاذ وإنما يرى شيئاً آخر ، يرى بعض هذه الميكروبات التى يعرفها الناس جميعاً . فتقبل « جان » وتنظر وإذا هى ساخطة مغضبة لأن الفتاة قد أخطأت وحملت شيئاً غير ما طلب إليها . أما الفتاة فخجلة مضطربة قد انتهى بها الخجل إلى البكاء ، وأخذ بعض الحاضرين يرثى لها ، وأخذ بعضهم يسخر منها همساً ، وأشد الناس جميعاً غضباً وحنقاً إنما هى « مارسيل » ابنة الأستاذ ، لأنها سمعت شيئاً من سخرية الساخرين . على أن الأستاذ قد

انصرف مع أصحابه إلى المعمل ليظهرهم بنفسه على هذا الميكروب، ثم ليظهرهم على النتائج العملية لبحثه، وتهم زوجه أن تتبعه ولكن ابنتها تمسكها تريد أن تتحدث إليها، فإذا خلت إلى أمها كان بينهما حديث فهمنا منه أن هـذه المرأة العالمة قد انصرفت إلى علمها انصرافاً تاماً حتى أنساها كل شيء وألهاها عن حياتها الزوجية وعن أشياء كثيرة تقع فى البيت وهى لا تشعر بها، وابنتها هى التى تنبئها بذلك فى شيء من السخرية التى يملؤها الحنان والإكبار. والأم دهشة مغضبة، تنكر على ابنتها لهجتها هذه وتَدخُّلها فيما لا ينبغى أن تتدخّل فيه الفتيات. ولكن الفتاة لم تتدخل فى هـذا الأمر إلا لأنها مضطرة إلى ذلك؛ فقد سمعت أشياء لا ينبغى أن تسكت عليها، وهى خطيرة جداً. الطلاب وغير الطلاب يتحدثون بأن الأستاذ يتعشق هذه الفتاة و يتخذها له خليلة، وهم يتخذون هذا الأمر موضوع مزحهم، وهى تكره أن يتعرض أبوها لمثل هذا الهزؤ، ولكنها مع الأسف لا تشك فى أن الأمر حقيق بالعناية؛ فهى أيضاً تتهم أباها أو تتهم الفتاة بخديعة أبيها، هى تعلل ذلك وتفهمه، فقد انصرفت أمها إلى العلم حتى فقدت أو كادت

تفقد صفات المرأة ، ولم يفقد أبوها صفات الرجل . . . ولهـذا الـكلام الذى أوجزه ايجازاً مخلا تأثير شديد فى نفس الأم ، فقد اضطربت له وتنبهت فى نفسها عواطف كانت مهملة ، وأخذت تمقت الالتفات والتنبيه ، وتحمد الغفلة والإغضاء ، ولـكنها قد تنبهت وأخذ الشك يعمل فى نفسها وأخذت نار الغيرة تضطرم فى قلبها اضطراماً . وقد اقترحت عليها ابنتها أحدى اثنتين : فإما أن تسافر هذه الفتاة وإما أن تتزوج . ليس تزويجها بالأمر العسير؛ فقد استكشفت الفتاة نفسها أن « بلونديل » يحبها حباً شديداً ، وأنه أسعد الناس إذا استطاع أن يتخذها له زوجاً . ولم يكن دهش الأم لهذا الاستكشاف بأقل من دهشها لاستكشافها الأول ؛ فهى لم تر شيئا ولم تشعر بشىء . ثم تنصرف الفتاة إلى درس لها فى « السربون » ويأتى الأستاذ فيخلو إلى زوجه يريد أن يتحدث إليها فى أمر علمى ، ويريد أن يصطحبها إلى المعمل لاستئناف البحث . ولـكنها تمسكه وتلح عليه فى المسألة ، ويظهر الرجل دهشاً شديداً لهذه المسائل التى تلقيها عليه زوجه ، لأنها لم تتعود ذلك ، ولأنه أبعد الناس عن أن يفكر فى مثل هذا السخف . وهو بطبيعة الحال ينكر كل ما يضاف

إليه إنكاراً شديداً ، تظهر عليه لهجة الصدق فتصدقه امرأته وتطمئن إليه ، بل تعتذر إليه من سؤاله عن مثل هذه الأشياء. ولكنها تريد أن تقطع ألسنة الناس ، فهى تريد أن تزوج هذه الفتاة وأن تزوجها من « بلونديل » لأنها تعلم أن « بلونديل » يحب الفتاة ويكلف بها ، ويسعده أن يتخذها له زوجاً . أما الأستاذ فدهش لهذا كله ، ضيق الذرع به ، يريد أن ينصرف إلى بحثه وأن يرجىء هذا الكلام إلى فرصة أخرى ، وهو فى هـذا كله صادق غير متكلف . ولكن امرأته تلح وتريد أن تفرغ من هذا الأمر الآن . وزوجها مضطر إلى أن يذعن لها . وقد دعيت الفتاة ، وحاول الرجل أن ينصرف ، ولكن امرأته أكرهته على البقاء ، فجلس ونظر فى كتاب يتشاغل به عن هذا الحديث .

وتقبل الفتاة خائفة مضطربة تقدر أنها ستسمع تأنيباً ولوما على ما كان من خطئها ، ولكنها لا تسمع لوما ولا تأنيباً ، وإنما تسمع حديثاً فى الزواج ، فتأبى وتنفر من الزواج نفوراً شديداً . وتلاطفها « جان » حيناً وتثقل عليها حيناً آخر ، ولكنها لا تجد منها إلا إباء ورفضاً ، فتنذرها بالطرد والإقصاء ،

فتجزع لذلك ولكنها لا تغير رأيها فى الزواج ، فهى تأباه كل الإباء وقد غضبت جان غضبا شديداً لهذا العناد وانصرفت ، وقد كلفت زوجها أن يجتهد فى إقناعها ، وأعلنت إلى الفتاة أنها ستترك الدار إذا لم تذعن للأمر .

ويخلو الأستاذ إلى الفتاة ، فإذا موقف من أشد المواقف تأثيراً فى النفس . ذلك أن هـذه التهمة ليست متكلفة ولا منتحلة ، وإنما كان بين الأستاذ وهذه الفتاة شىء ، ولكن رأى الأستاذ والفتاة يختلف اختلافاً عظيماً جداً فى هذا الشىء .

أما الفتاة فقد أحبت أستاذها وكلفت به وقدسته أو كادت تتجاوز التقديس إلى الجنون ، وعلى هذا النحو فهمت الصلة التى كانت بينها وبينه . وأما الأستاذ فلم يحب الفتاة ولم يكلف بها ، لم تقع الفتاة من نفسه موقعاً ، وهو لا يحب إلا امرأته ولا يكبر إلا إياها ، وهو إنما تأثر فى لحظة من اللحظات بمؤثرات حسية خالصة ليس بينها وبين القلب والعاطفة صلة ، فاسترسل مع حبه ولم ينظر إلى ما كان بينه وبين الفتاة من صلة فى ساعة أو بعض ساعة إلا كما ينظر إلى متعة عارضة لا قيمة لهـا ؛ ولذلك نسى الأمر

ونسيه نسياناً تاماً صادقاً ، وكان مخلصاً حينما أنكر وقد سألته زوجه . وكان مخلصاً حينما كان يزدرى هذه الأشياء ويضيق بها ويريد أن يعود إلى العمل والبحث العلمى . وهو الآن صادق حين ينصح للفتاة بأن تتزوج . والفتاة صادقة حين تكره الزواج وتأباه . كلاهما صادق ، ولكن رأيهما مختلف . هى تحبه وقد وقفت نفسها عليه . وهو لا يحبها وهو لا يريد أن يضيع مستقبلها ، وهو يعلم حق العلم أنها لن تظفر منه بشيء ، وأنه لن يفكر فيها إلا كما يفكر فى تلميذة بائسة تحتاج الى شيء من العطف والمعونة . وهى تنكر عليه قسوته وتلومه على هذه الغلظة ، وتذم هذا العلم وهذه الفلسفة اللذين يرتفعان بالعالم والفيلسوف عن الحياة العادية وعن العواطف والأهواء التى يخضع الناس لها ويتأثرون بها . ولكنها مهما تلح فى اللوم وتسرف فى الاستعطاف فهو لا يرق ولا يعطف وإنما يمضى فى نصحه للفتاة بأن تتزوج مزدريا أشد الازدراء هذه الصلات المادية الخالصة التى تجمع أحياناً بين المرأة والرجل دون أن يكون هنالك سبب آخر من عقل أو شعور . غير أن الفتاة قد وجدت سلاحاً قوياً ماضياً أصابت به الأستاذ فملأته رعباً واضطراباً .

فللاستاذ أن يقول إنه لم يحب هذه الفتاة ، وإنه يزدرى هذه الصلة التى كانت بينهما وله أن يقسو عليها ويزدرى حبها ، ويضحى بعواطفها فى سبيل هدوئه وطمأنينته فى حياته الزوجية الخاصة ، ولكن ليس له إذا استباح خيانة الفتاة فى حبها أن يخون صديقه « بلونديل » في صداقته ؛ فهو يعرض عليها أن تكون زوجاً لهذا الصديق . وليس لهذا العرض معنى إلا أنه يضحى بها وبصديقه ليسعد هو ويطمئن . أليس يقدم عشيقته إلى صديقه لتكون زوجاً له ؟ أليس يضطر هذه العشيقة إلى أن تخفى ما كان بينه وبينها وإلى أن تؤسس حياتها الزوجية على الكذب والنفاق ؟ هو إذن يخون صديقه ويضحى به ، وكل ما انتهت اليه فلسفته إنما هو أن جعلته أثراً مسرفا فى الأثرة . وجدت هذه الحجة منفذاً لا إلى عقل الأستاذ بل إلى قلبه وضميره ، فقد يكون فيلسوفاً ، وقد يكون هو مزدريا للصلات الجنسية ، وقد يكون مزدرياً لما توارث الناس من عادة وخلق . ولكن من يدرى ؟ أيشاركه صديقه فى هذه الآراء أم يخالفه فيها ؟ أليس من الحق عليه قبل أن ينصح بهذا الزواج أن يتبين رأى صديقه فى مثل هذه الأشياء ، فإن كان هذا الصديق

كغيره من الناس يقدر الشرف كما يقدره الناس ضن به على الزواج القائم على الخيانة والكذب ، وإن كان مثله لا يحفل بالصلات الجنسية المادية وإنما يقدر العقل والقلب أولاً مضى فى النصح بهذا الزواج والحث عليه ؟ بلى ؟ هذا حق عليه ؟ وقد اعتزم أن يستشير صديقه ويظهره على جلية الأمر . وهو الآن متوجع يألم أشد الألم لهذا العمل اليسير فى نفسه الذى جعلت له الأوضاع الاجتماعية هذا الخطر العظيم . وهو يألم لأن هذا الأمر قد يتكشف عن كوارث ، فقد ينغص الحياة على زوجه التى يحبها ، وقد تضطر هذه الفتاة التى يعطف عليها الى أن تستأنف حياة البؤس والفاقة . والفتاة تنظر اليه وتسمع له ، وما كانت تظن أنه سيضعف الى هذا الحد ، وإذا هى كلها إشفاق ورحمة ، وإذا هى تكره أن يألم حبيبها وأستاذها هذا الألم الثقيل ، وإذا هى تعتذر إليه وتعلن أنها قد قبلت الزواج وتلح عليه فى ألا يكاشف صديقه بشىء . ولكن الرجل قد اعتزم — وهو لا يعرف التردد إذا اعتزم — وقد دعا صديقه ويتدرج به فى الحديث والى الحب والزواج ثم ينتهى به الى ذكر الفتاة ، الى أنه يعلم ما يضمر لها من حب . فيجتهد الصديق فى أن

يخفى ذلك . ولكن الأستاذ قد ألح ومهر فى الإلحاح حتى انتهى صديقه فاعترف بهذا الحب وقوته وسلطانه على نفسه . وأخذ صاحبه يتحدث إليه فيذكر له أن هذه الفتاة ليست كما يقدر وأن قد كان لها ماض فى ألمانيا ، فيجيب بأنه لا يحفل بذلك ولا يلتفت إليه و إنما يعنيه أن تميل الفتاة اليه وترغب فى أن تكون زوجاً له . وقد أخذ الأستاذ يبتهج لأن المسافة بينه و بين صديقه أخذت تظهر قريبة . فصديقه مثله يزدرى هذه الصلات المادية التى لم تقم على الشعور ولا على العقل . غير أن صديقه مضطرب متردد يسأله سؤالا يترك فى نفسه أثراً قوياً . يذكر له أن الناس يتحدثون فى المعهد بصلة كانت بينه و بين الفتاة ، وهو يريد أن يتبين حقيقة هذا الأمر . فاذا أنكر الأستاذ ذلك لم يعرف الصديق حداً لابتهاجه ولا لغبطته ، فهو يستطيع إذن أن يقترن بالفتاة .

— ولو كان بينى و بينها شىء كهذا ؟

— إذن لكان الزواج مستحيلا . . .

— ولكنى قد أكون شديد التأثير فى نفس هذه الفتاة فهى تجلنى وتكبرنى إجلال الأستاذ وإكباره .

— ذلك شيء أحبه ولا أكرهه ، وإنما الذى أكرهه هو الصلة المادية ، وقد بعثت فى نفسى الطمأنينة من هذه الناحية فأنا سعيد .

وقد استيقن الأستاذ إذن أنه يخون صديقه إن نصح بهذا الزواج ويعرضه للشقاء ، فأخذ يجتهد فى أن يهدىء من صديقه ويدعوه إلى الأناة . ولكن الباب قد فتح وأقبلوا ينبئون الأستاذ بأن كاتباً بلجيكياً كبيراً تنحى له عن جائزة « نوبل » ثم أقبلوا ينبئونه بأنه قد منح الجائزة ، ثم أقبلوا يهنئونه وانصرف عما كان فيه الى جائزة « نوبل » وأقبلت الفتاة واعتزمت الزواج ، وأعلن هذا الزواج الى الطلاب ولم يستطع الأستاذ أن يؤجل هذا الاعلان .

* * *

فإذا كان الفصل الثانى فقد مضى حين على هذا كله ، وتم الزواج رغم ما بذل الأستاذ من جهد لإلغائه وأصبحت الخيانة أمراً واقعاً . ولكن الزوج يجهلها ؛ وكذلك تجهلها « جان » وليس يعلم بها إلا الأستاذ وتلميذته . وقد أخذت التلميذة العهد على نفسها أن تجتهد فى نسيان هذا الحب القديم

وفى البر بزوجها والتلطف له . وأخذ الأستاذ نفسه بأن يكون محتشما متحفظاً كلما لقى تلميذته أو تحدث إليها .

ونحن فى هـذا الفصل الثانى نشهد احتفالا رائعاً لأن وساماً قدم إلى الأستاذ وأقبل النـاس يهنئونه ويحتفلون به ، والمعهد قائم قاعد فى استقبال الوفود وتحياتها . والناس يترددون بين الحديقة وحجر المعهد . وكثيرة جداً مناظر هـذا الفصل ، ولكنى مضطر إلى أن أحْذف منها الشىء الكثير . ومهما أحذف فلن أستطيع أن أهمل موقفاً بين الأستاذ وبين هذا الكاتب البلجيكى الذى تنحى له عن جائزة « نوبل » ، فقـد أقبل هذا الكاتب يهنئ الأستاذ ولم يكونا قد تعارفا من قبل ، فخلا كل منهما إلى صاحبه فى الحديقة وأخذا يتحدثان ، وأخذ الأستاذ يسأل الكاتب لماذا تنحى له عن الجائزة وهو لا يعرفه ؟ فيجيبه بأنه إنما فعل ذلك لأنه مدين له بشىء كثير . كان هذا الكاتب قـد فرغ للقصص التمثيلية يكتبها حتى نبغ فيها ، ثم نالته أزمة من هذه الأزمات الغرامية التى تنتهى بالناس أحياناً إلى الموت ، فخرج من بيته إلى حديقته ومعه المسدس يريد أن يقتل نفسه ، واضطجع إلى شجرة وقد صوب المسدس إلى مقتله

وكانت الليلة جميلة والنجوم ساطعة ، وإذا نظره قد ارتفع إلى السماء وإذا منظر النجوم التى علقت فى السماء كأنها المصابيح قد أثر فى نفسه المضطربة تأثيراً شديداً ، وإذا هو يرى إلى جانب هذه المصابيح مصابيح أخرى ليست أقل منها جمالا وبهجة ، هى هذه الحقائق العلمية الفلسفية التى تسيطر على حياة الناس وتهديهم فى سبيل الرقى والكمال ، وإذا عزمه على الموت قد فتر ، وإذا هو مشوق إلى أن يعلم ، وإلى أن يدرس هذه الحقائق العلمية والفلسفية . فلما أصبح نظر فى الكتب فوقعت إليه كتب الأستاذ ، فكان تأثيرها فى نفسه شديداً ، صرفه عن التمثيل وحياة الكتاب إلى الفلسفة وحياة الفلاسفة . وإذا هو قد سلك سبيله متأثراً بالحس ثم بالعاطفة ثم انتهى إلى الحياة العقلية الخالصة . كذلك يتحدث الكاتب إلى العالم فيجيبه العالم — مضطرباً متأثراً — بأنه قد سلك الطريق المضادة لطريقه ، بدأ بالحياة العقلية الفلسفية ، ثم هو الآن وقد جاوز الخمسين قد أخذ يتعرض للشك وآثاره ، فهو يترك الفلسفة قليلا قليلا ، يترك حياة العقل إلى حياة الشعور . ومن يدرى إلى أين ينتهى ؟ هو شاك فى علمه وفلسفته وفى تلك الحقائق التى تشبه مصابيح السماء .

وكل شيء فى حقيقة الأمر يدعو هـذا الأستاذ إلى أن يضطرب ويشك ؛ فهو يعانى آلاماً شداداً منـذ كان هذا الزواج ، هو لا يحب الفتاة ولكنه يعـلم أن الفتاة تحبه حباً شديداً مسرفاً فى الشدة ينغص عليها حياتها ويوشك أن ينغص على صديقه حياته ويوشك أن يفسد كل شيء . فالفتاة تتجلد وتجاهد ، ولكنها لا تظفر من هذا الجهاد بطائل . وإذا افتضح هذا الأمر — ولا بد من أن يفتضح — فما مصير صديقه ؟ وما مصير بحثهم العلمى ؟ أضف إلى هذا أن هذا الأستاذ الذى لم يتعود الكذب قط يعيش الآن عيشة قائمة كلها على الكذب . يكذب على امرأته ، ويكذب على صديقه ، ويحمل صديقه على حياة كلها نفاق . وليس هـــذا الفصل إلا إثباتاً لهذا كله . فنحن نرى الفتاة بعـــد قليل قد أقبلت مع زوجها شاحبة ممتقعة شديدة الضعف ، وزوجها يتلطف لها ويرفق بها بل يغازلها فلا يجد منها إلا فتوراً يشبه النفور ، وهو يعلل ذلك بالمرض واضطراب الأعصاب . وبينماهما كذلك إذ يظهر الأســتاذ ومعــه امرأته فينتحيان فى الحديقة ناحية كأنهما يطلبان العزلة حتى إذا ظفرا بهـا تعانقا فرحين مبتهجين بهـذا الفوز والفتاة

تراها ، فيقع ذلك من نفسها موقعاً مؤلماً جداً . ثم يمر الأستاذ وحده بالفتاة وهى تستريح فى مجلسها هـذا فيكون بينه و بينها حديث نفهم منـه كل ما قدمت : نفهم أن الفتاة قد انتهت من الصبر إلى أقصاه وهى لا تستطيع أن تنسى هذا الحب ولا أن تبرأ منه ، وهى لا تستطيع أن تحمل جفوة الأستاذ واحتشامه وإنما تريد أن يرق لها و يمنحها من حين إلى حين ابتسامة بريئة أوقبلة طاهرة على جبهتها . هى لا تطمع فى أ كثر من هذا ، وهو يضن عليها بهذا احتراماً لصديقه و إنكاراً لهذا الحب الآثم . ولكنها تلح وتسرف فى الإلحاح ، تريد أن تخلو إليه لحظة لتظفر منه ببعض هذا أو بكلمات رقيقة ، وقد انتهى هذا الإلحاح إلى أن أثر فى نفس الأستاذ وكأنه قد قبل ما تُريد . ويمضى الاحتفال كما بدأ ، يذهب الناس فيه ويجيئون . وقد اعتذرت الفتاة فصعدت إلى منزلها بالحديقة لأنها مريضة . وما هى إلا لحظات حتى يمر الأستاذ متجهاً إلى هذا البيت وقد رأته زوجه فأنكرت اتجاهه هذا الوجه . ولـكنه زعم لها أنه منصرف إلى مكتبه ليقفل درجاً من الأدراج يحرص على أن يظل مقفلا ، وآمنت له زوجه ومضت إلى ما كانت فيه من استقبال وتوديع ، وإذا

« بلونديل » يمر بنفس المكان بعد حين ، ويلقاه أحد المدعوين منصرفاً ، فيدهش للقائه وينبئه بأنه كان قد دخل بيته يأخذ معطفه ، وهو فى ذلك إذ انطفأ النور فجأة وخرج ، فخيل إليه أن رجلا يدخل البيت فظنه إياه ، أما « بلونديل » فقد تنبه فى نفسه شك مؤلم حاول كتمانه ، ولكن أخذ يستوثق حتى استيقن أن زوجه ليست نائمة وأنها ليست وحدها ، وإذا هو يطلب « جان » زوج صديقه الأستاذ . فإذا أقبلت توسل إليها أن تصعد لترى امرأته ، فقد تركها مريضة فتصعد « جان » وتعود مضطربة مخلوعة القلب لأنها رأت زوجها عند الفتاة . أما « بلونديل » فقد فهم واستوثق وأمسك زوج صديقه وجلسا يرقبان عودة الأستاذ . ويعود الأستاذ بعد حين ، فيلقاه « بلونديل » بكلام عنيف ثقيل ، ولكن « جان » تأمره أن يتركهما وحدهما . فإذا خلا الأستاذ إلى زوجه حاول أن يعتذر وأن يذكر الحق فلم يكن عند الفتاة فى إثم ، وإنما كان عندها يهدىء من ثورتها ويقدم لها النصح . ولكن زوجه تأبى عليه أن يتكلم ، فهى مشغولة عن الكلام ، بين يديها مُسَوَّدات لمقال كتبته لصحيفة من الصحف ، وفى هذا المقال

حديث عما كان بينها و بين زوجها من حب وتعاون على البحث العلمى . وهى تقرأ هذا المقال متأثرة محزونة لأنها تحس أنها مخطئة فيما زعمت فيه . أليس زوجها قد خانها ؟ أليس حبها قد خدع وازدرى ؟ . أما زوجها فليس أقل منها اضطراباً . لا لأنه خانها ، بل لأنه يشعر بأنها تعتقد ذلك . ويريد أن يغير رأيها ، وكيف السبيل إلى ذلك دون الاعتراف بالحق ؟ على أن « بلونديل » قد أقبل وطلب الخلوة إلى صديقه وأخذ يزجره ويعنفه ويتهمه بخيانته ، ويجتهد الأستاذ مخلصاً فى أن يثبت له أنه لم يخنه ولم يسىء إليه ، ثم ينتهى به الأمر إلى التصريح بالحق ، فإذا الغضب قد بلغ من صديقه أقصاه . أليس صديقه قد كذب عليه . وما له لم ينبئه بالحق قبل الزواج ؟ وقد أسرف « بلونديل » فى الغضب حتى اتهم صاحبه بأنه أول من اتصل بالفتاة ، وأنه اخترع قصة الضابط الألمانى ، وأنه كان عشيق زوجه قبل الزواج و بعد الزواج ، وهو يزدرى الصداقة الآن ، ويزدرى العلم ويزدرى الفلسفة ، ولا يفكر إلا فى شىء واحد هو الانتقام ، وسينتقم . وهما كذلك إذ تقبل الفتاة وقد سمعت صياح زوجها ، فإذا أقبلت اجتهد الأستاذ فى

أن يستعين بها على إقناع زوجها لبراءته فيسألها : أليس من الحق أنك تحبين زوجك ؟ وإذا هى تجيب فى صراحة وعنف : كلا ، لا أحبه ولم أحببه ولن أحبه وما أحببت ولن أحب غيرك ! ! انتهى الحب بها إلى الجنون فهى لا تخفى من أمرها شيئاً ، وانتهت الغيرة بزوجها إلى الجنون ، فهو لا يملك من نفسه شيئاً ، وقد تركهما وعاد ومعه كتاب هو ثمرة الحياة العلمية للأستاذ ، فيه فلسفته وخلاصة مباحثه ، وهو مخطوط كتبته الفتاة بإملاء الأستاذ حين كانت تعمل فى المعهد . أقبل يحمل هذا الكتاب ، وهو يعلم أنه أعز شىء على الأستاذ ، ولكنه يريد أن ينتقم . وبم يبدأ الانتقام ؟ خانه الأستاذ فى امرأته ، فهو يسيئه فى فلسفته ، وإذا هو يمزق الكتاب ويفرق أوراقه المقطعة فى الهواء ، والأستاذ صَعِقٌ يتوجع لكتابه ، والفتاة والهة تجمع هذه القطع المفرقة وقد انضمت إليها زوج الأستاذ فهى تعينها على هذا الجمع .

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فقد مضت أيام على هذه القصة ونحن فى غرفة « جان » زوج الأستاذ ، وفى المعهد اضطراب شديد لأن حادثاً حدث وأخذت الصحف تذيعه وتخوض فيه .

وظهر أعداء الأستاذ فأسرفوا فى التشهير به والتشنيع عليه . كان الأستاذ فى المجمع العلمى ، وبينما هو خارج بعد انتهاء الجلسة لقيه صديقه « بلونديل » فى أروقة المجمع فلطمه بمشهد من أصحابه وزملائه ، وأعلن الأمر إلى الناس ، فلجّت فيه الصحف وأصبح حديث باريس . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ولكن ناساً نصحوا للأستاذ بأن يثأر لنفسه من صديقه بالمبارزة . وكاد الأستاذ يقبل هـذا النصح لولا أن ألحت عليه زوجه فى أن يربأ بنفسه عن هذا الأمر الذى لا يليق بالعلماء ولا سيما إذا بلغوا منزلته من المجد والرفعة . كذلك تتحدث زوجه إلى صـديق حميم هو هذا الـكاتب البلجيكى الذى رأيناه فى الفصل الثانى . ولـكن هذه المرأة مخدوعة تجهل كل شىء ، فإن زوجها قد قبل النصح وقبل المبـارزة وأخفى عليها الأمر ، وقد بارز صاحبه ونالته الرصاصة وحمل إلى المعهد وهو فى غرفة مجاورة يقدم إليه الطبيب الإسعافات الأولى ، ثم هو يريد أن يرى زوجه وابنته ، وقد اعتزم الطبيب أن ينقله إلى هـذه الغرفة ، وألح هو فى أن يدخلها ماشياً لا محمولا حتى لا ترتاع زوجه . وها هو ذا يقبل وقد أخذ أصحابه يسندونه وفى فمه لفافة التبغ ليظهر لامرأته أن

ليس عليه بأس . فإذا رأته جزعت ، ولكن الطبيب والاصدقاء يهدئون من روعها ويؤكدون لها أن ليس عليه من بأس ، وأن الرصاصة قد أصابت الكتف ولم تبلغ الرئة ، وهم يمدون الأستاذ على مضجعه ، وقد خلا إليه الطبيب لحظة ، فإذا الأستاذ يسأله ملحاً ويطالبه بالصراحة المطلقة : ما أمره ؟ وهل هو معرض للخطر ؟ وهو لا يريد فى ذلك تلميحاً ولا مراوغة ، لأنه فى حاجة إلى أن يوصى بأمور هامة جداً . فينبئه الطبيب أنه ليس عليه من بأس إلا أن يبصق دماً ، فإن فعل فليس هو معرضاً ، ولكن حاله تحتاج إلى احتياط شديد .

— إذن فأْذن لى أن أخلو إلى زوجى حيناً ما ، قبل أن تبدأ فى عملك لكشف مكان الرصاصة ، فيأذن له الطبيب ولكن على ألا يتحرك ولا يسرف فى الكلام . وهذه زوجه قد دخلت عليه جزعة ، فما هى إلا أن هدأها فأظهرت الهدوء ونسيت كل شىء إلا زوجها . لكن زوجها سيكلفها أشياء ثقالا ، وليس يطلب إليها إلا أن يرى الفتاة التى كانت مصدر كل هذه النكبات . ومهما تأب زوجه فهو متشدد فى ذلك ، وهو يريد أن يراها ، وامرأته لا تأبى غيرة ، وإنما تأبى

إشفاقاً على زوجها . ولكن زوجها ملح ولا بد من الأذعان .
وقد كتبت « جان » كلمة وبعثت بها إلى هذه الفتاة ، فأقبلت
وانصرفت « جان » ليخلو زوجها إلى هذه الفتاة كما أراد على
أن يدعوها إذا فرغ من ذلك .

وانظر إلى هذه الفتاة قد أقبلت وهى لم تكن تقدر من هذا
كله شيئاً ، وانظر إليها جزعة والهة حين رأته طريحاً جريحاً ،
فهى تتكلم كلاماً متصل اللفظ غير متصل المعنى ، قد فقدت
رشدها أو كادت ، والأستاذ يجتهد فى أن يظفر منها بالصمت
فلا يكاد يبلغ ذلك إلا بمشقة شديدة ، يعلن إليها إرادته وهى
أن تترك باريس ولا ترى زوجها ولا امرأته ، حتى ولو ألح
زوجها فى طلبها ، وقد ضمن لها الحياة وخصص لها مقداراً من المال .
أما هى فلا تسمع لشىء من هذا ، وإنما هى منصرفة إلى جزعها ،
فهى تتكلم وهى تبكى وهى تضحك وهى تقبل يد الأستاذ ومضجعه
وكل ما ظفرت به شفتاها ، فهى شخص لا يستطيع تصوره
ولا تصويره إلا « هنرى بتايل » . وقد صرف الأستاذ هذه
الفتاة بعد أن رق لها وبارك عليها كما يفعل القسيس ... أكان يحبها ؟
أم كان يعطف عليها ويرثى لها ؟ أليست خليقة بالعطف والرثاء ؟

أنظر إليها تخرج طائعة جزعة مذعنة للقضاء ثائرة عليه . وانظر إلى الزوج قد عادت إلى زوجها يلاطفها ويرق لها ويكاد يغازلها، ولكن سيكلفها شيئاً ثقيلا . أليس يطلب إليها أن تدعو صديقه وقاتله « بلونديل » ! وهى ثائرة تأبى ذلك كل الإباء . ولكنه يريد ويلح ويعزم عليها ولا بد من الإذعان لما أراد . وقد أقبل هذا الصديق ، فلم يكد يرى صاحبه طريحاً حتى أخذ منه الجزع ، وإذا هو يستغفر ويضرع ويبكى ممعناً فى البكاء ، وإذا الزوج تلقاه لقاء عنيفاً كله بغض وموجدة . وأما الأستاذ فرقيق رفيق قد قبل العذر وغفر الذنب وعرف للصداقة والعلم حقهما ، وهو سعيد لأن صديقه قد آب إلى رشده ، وهو يصافح صديقه ولكن يريد أن يكلف زوجه شيئاً ثقيلا ، يريدها لا على أن تصافح هذا القاتل بل هو أشد من هذا . فإلى أى حال ستؤول هذه المباحث العلمية إذا مات هو ولم يتعاون « بلونديل » و « جان » على المضى فيها ؟ يجب إذن أن يتعاونا ، وقد كتب ذلك فى وصيته وهو يريد أن يقسما له على الإذعان بهذه الوصية . أما « بلونديل » فيقسم وأما « جان » فتأبى ، وهو يلح وقد ظهر عليه الجهد والإعياء وأخذت الحمى تظهر عليه

والرجل عالم بأنه ميت لأنه قد بصق الدم وأخفى ذلك على طبيبه وعلى من حوله ، وهو يلح وزوجه تأبى ، وهى مطمئنة إلى أنه سيحيا لأن الطبيب قد أكد لها ذلك ، وهو يلح وهى تأبى وقد اضطرب لسانه وحركاته وقال غير الصواب ، وإذا النزيف ، وإذا زوجه صارخة تدعوا الطبيب وقد أقبل الطبيب وإذا الأستاذ قد مات فانظر إلى صديقه جاثياً يبكى ، وانظر إلى امرأته ملقاة كأن قد أغمى عليها . وقد أقبل الطلاب من كل مكان فملؤا الحجرة وهم يبكون ، ونظروا فإذا القاتل بينهم يبكى ، فهموا به يدفعونه دفعاً ، ولكن . . . انظر إلى هذه المرأة قد نهضت مستجمعة كل قوتها وشجاعتها فأعلنت إلى الطلبة أن دعوه ، فقد أراد أستاذكم كذا وكذا وطلب منا أن نقسم . فأما هو فأقسم ، وأما أنا فلم أتمكن من القسم قبل أن يموت ، وإذا هما يقسمان على تنفيذ ما أراد . . .

ابريل ١٩٢٤

القبر تحت قوس النصر

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « پول رينال »

ومع ذلك فلا بد من أن أحدثك عنها . ويخيل إلى أنى أسيء إليك وإلى صناعتى إذا لم أحدثك عنها . ولكن ما هى ! وما معنى هذه الجملة الغامضة ! أما هى فالقصة التى نحن بأزائها والتى مثلت فى باريس وفى بيت موليير منذ ثلاثة أشهر . وأما هذه الجملة الغامضة فستفهمها حين تعلم أنى حائر فى أمر هذه القصة لا أدرى أأرضى عنها أم أمقتها ، وحين تعلم أنى لم أنفرد بهذه الحيرة ، وإنما شاركنى فيها النظارة الذين سمعوها وشهدوها مرات فى بيت موليير ، وشاركنى فيها النقاد الذين جمعوا فيما كتبوا عن هذه القصة بين الرضا والسخط ، وبين المقت والإعجاب . وأحسب أنى سأرضى عن هذه القصة ، وسأسخط عليها معاً . ففيها ما هو خليق بالرضا ، وفيها ما هو

خليق بالسخط . فأما شكلها فحسن رائع . وأما لفظها فجميل منتق ، وأما أسلوبها فآية بين الأساليب . وأما حوارها فقصير سريع خفيف الحركة مملوء بالمعنى كأنه جوامع الكلم . وأما الشعور الذى انبعثت عنه فقوى عنيف صادق أخاذ للنفوس . كل هـذا حق . ولـكن هناك حقاً آخر لا يمكن الإعراض عنه ، وهو أن هذه القصة الرائعة تقوم على أساس واهٍ لا مِلاكَ له ولا نصيب للصحة فيه . فإن يكن له نصيب من الصحة فضئيل شديد الضآلة لا يكاد يحس ولا ينبغى أن يعتد به ولا أن يؤبه له . ومن هنـا نفهم استحقاق هـذه القصة للرضا عنهـا والسخط عليها ، واختلاف الناس فيها إختلافاً شديداً حتى تجاوزوا الحوار والجدال إلى الاصطدام والتضارب ، فقد اصطدم النـاس وتضاربوا فى بيت موليير عند ما سمعوا هذه القصة . اصطدموا وتضاربوا وأنكروا واحتجوا ، ونقلت الصحف ذلك وعللته وأكثرت فى تعليله ؛ ذلك أن القصة تقوم على أساسين ، أحدهما قد يفهم وقد يتصور وقد يعتذر عنه ، وهو أن فتاة تحب خطيبها ويحبها هذا الخطيب حباً لا حد له . حبا الأملُ فيه قليل ، لأن الحرب قائمة ، ولأن هذا الخطيب معرض لأخطارها ،

ولأن الزواج لم يتح لهذين العاشقين . فليس غريباً أن تعلم الفتاة نفسها راضية مبتهجة مضحية بما ورثت من خلق وعادة ودين فى سبيل هذا الشاب الذى يضحى بنفسه فى سبيل الوطن . وليس غريباً أن يتردد هذا الفتى ، ثم يقبل التضحية ، فهو يحب وهو واثق أنه سيموت . كل ذلك يمكن فهمه وتصوره والاعتذار عنه ، لأنه لا يخرج عن طور الانسان وما فطر عليه من ضعف وأثرة .

أما الأساس الآخر فغريب حقاً متجاوز لطور الانسانية المتحضرة المهذبة التى تأثرت بالدين والأخلاق والنظم الاجتماعية والسياسية آلاف السنين ؛ وهو أن أباه يتعشق خطيبة ابنه ويهواها غير شاعر بذلك ، إذا ظهر الأمر له ولابنه كانت بينهما خصومة عنيفة أنكر فيها الأب أبوته ، والإبن بنوته وتمنى فيها كلاهما لصاحبه الموت . ثم لا تلبث الخصومة أن تتغير ، فإذا الأب قد عرف خطأه ، وإذا هو جاث أمام ابنه باسطا يديه يتضرع ويستعطف يلتمس العفو . وإذ الابن يعفو ويشفق ويتلطف بأبيه . كل هذا غريب غير مفهوم ولا ملائم لما ألف الناس ولا فطروا عليه . ومع ذلك فقد اختصرت لك

القصة اختصاراً ، وأحسب انك تفهم الآن تردد النـاس فى الحكم عليها . وأحسب أنك تعذر أيضاً ترددى فى أن أحدثك عنها ؛ فقد كنت أريد أن أعرض عن ذلك إعراضاً . ولـكن ظهور هذه القصة وما دار حول تمثيلها حادث أدبى عظيم الخطر لا ينبغى أن أهمله ولا أن أتعمد طيه عن القراء . على أنى مهما أفعل ، ومهما أبذل من قوة وجهد ، فلن أستطيع أن أعطيك من هذه القصة صورة صادقة ولا مقاربة ، فهى ليست من القصص التى يمكن تلخيصها وتحليلها فى سهولة ويسر ، وإنما هى من القصص التى يجب أن تقرأ كلها أو تشهد كلها ليمكن الحـكم عليها حكماً صحيحاً ، فقد حدثتك عن هذا الحوار القصير السريع الجامع ، ولم أحدثك عن حوار آخر طويل بطىء ملتو غامض ، فيـه فلسفة عميقة قوية ترقى بك حتى يكاد الدوار يأخذك . وإذا كان من العسير تلخيص هذا الحوار القصير فأعسر منه تفسير ذلك الحوار الطويل . فلتجتزىء من هذا كله بما أستطيع أن أقدم إليك فى هذا الفصل . وأُحِبُّ إلىّ بأن تقرأها وتحكم عليها بدون وساطة ولا معونة .

***

أشخاص هذه القصة ثلاثة لا يزيدون ، بل لا يسمون إلا الشخص الثالث فهو وحده المسمى . وهم لا يسمون لأن الكاتب تعمد ألا يسميهم ، وهذا التعمد هو نتيجة خطأ عظيم . فقد خيل إلى الكاتب أو خيل إلى الناس أن الكاتب حين تعمد ألا يسمى هذين الشخصين تجنب أن تكون قصته شخصية وقصد إلى أن يكون هؤلاء الأشخاص ممثلين لأنواعهم من أفراد الناس .

فى القصة شيخ أقام ولم يشترك فى الحرب . وفيها جندى مقاتل . وفيها فتاة بينها و بين هذا الجندى حب وخطبة . وقد سمى الكاتب الفتاة ، فدل بهذه التسمية على أنه لا يريد أن يجعل الفتاة مثالاً لغيرها من الفتيات . ولم يسم الشيخ ولا ابنه ، فدل بذلك على أنه يريد أن يقول إن موقف هذين الرجلين إن لم يكن موقف الناس جميعاً فى أثناء الحرب فبينه و بين موقف الناس جميعاً شبه قليل أو كثير . وهذا هو الخطأ . فلو أن الكاتب سمى هذين الرجلين وشخصهما كما سمى الفتاة وشخصها لأمكن أن تقبل القصة لاستطعنا أن نفرض أن الكاتب يمثل حالاً عارضة مرضية عرضت لأسرة بعينها فى ظروف خاصة ، فهى تمثل الشاذ ولا تمثل المطرد . ومن الذى يستطيع أن

ينكر أن الشاذ موجود ، وأن وجوده لازم لوجود المطرد ! . لو فعل الكاتب هذا لكان له وجهه وتأويله ، ولكنه لم يفعله فأنكر الناس عليه هذه الجرأة فى التعميم ، لأنها تخالف العقل والحق ، ولأنها تخالف البر الذى يدين به الأبناء للآباء ، والعطف الذى يضمره الآباء للأبناء .

هذا الشيخ الذى اتخذه الكاتب مثالا للمقيمين الذين لم يشتركوا فى الحرب رجل فى الستين من عمره ، غنى وادع ، يظهر من القصة أنه أثِر ، يسرف فى حب نفسه ، وأن حظه من الحنان قليل . أما ابنه فشاب غنى ، ورث عن جده لأمه ثروة ضخمة كان يدبرها ، ثم كانت الحرب فترك تدبيرها لأبيه. وهو ذكى شديد الذكاء ، عظيم الحظ من التعليم ، ملم إلماما متيناً بالشىء الكثير من الفلسفة وآراء الفلاسفة . فليس هو إذن بالشاب العادى ، أتم دروسه فى باريس ثم عاد الى مدينته وانصرف إلى ثروته يدبرها ، ولكنه كان يتردد على باريس فيقضى فيها فصل الشتاء . وقد لقى فيها فى غرفة من غرف الاستقبال عند أسرة صديقة له فتاة جميلة ذكية حساسة ، أحبها وأحبته ، ثم خطبها وقبلته ، وهى يتيمة ليس لها أب ولا أم ،

وإنما كانت تعيش مع عمة لها أو خالة ، ثم أعلنت الحرب ومضت أشهر ، وماتت هذه العمة أو الخالة ، فأصبحت الفتاة وحيدة فى باريس . ولم تطق هذه الوحدة ، فجاءت الى الشيخ أبى خطيبها وأقامت عنده ، فاتصلت بين الشيخ و بينها علاقة قوية رقيقة تكاد تكون حباً لولا أن الفتاة تنظر الى الشيخ كأنه أبوها ، ولولا أن الشيخ ينظر الى الفتاة كأنها ابنته ، وأنهما جميعاً يفكران فى هذا الجندى الذى ألف بينهما . وقد مضت على الحرب سنة وبعض سنة ، ولم يستطع هذا الشاب أن يظفر بأجازة يرى فيها خطبه وأباه . ثم أتيحت له هذه الأجازة فهو مقبل ، وهما ينتظرانه . ويجب أن تعلم أنه ظفر بهذه الأجازة بعد أن جرح مرة فى الميدان ثم برىء من جراحته ثم اشترك فى هجوم عنيف قام به الجيش الفرنسى فى شمبانيا ونشرت البلاغات الرسمية أنه انتهى بانتصار عظيم . وظل الناس مقتنعين بأن الحرب مشرفة بعده على الانتهاء .

وهما ينتظرانه وقد انتصف الليل وأقبلت الساعة الثانية من الصباح . الشيخ جالس صامت كأنه يفكر وهو ينتظر والفتاة غير مستقرة تجلس ثم تنهض ثم تجلس ثم تصغى ثم

تذهب للنافذة ثم تعود . وهما الآن يصغيان ، وهما يضطربان لأنهما سمعا إغلاق الباب ، وقد خرجت الفتاة وعادت ومعها صاحبها الجندى تقبله ثم يتحدثون . ولست أستطيع أن ألخص لك هذا الحديث ، فهو أشد دقة من أن يلخص ، ولكنه يدور حول صحة الجندى وسفره ، وحول الحرب وحول الانتصار ، وحول ما يأمل الناس ، وتفهم من هذا الحديث أن الشيخ والفتاة مؤمنان بانتصار الجيش الفرنسى وقرب انتهاء الحرب ، وأن الفتى يؤكد لهما هذا ، ولكنه يتكلف هذا التأكيد ، كأنه لا يريد أن يخيب رجاءهما . وهو يسألهما : « ألم تصل إليهما رسالة ؟ فيتكلفان الإنكار . ألم يصل إليهما نبأ برقى ! فيظهران الدهش ، وتحس أنت هذا التكلف . أما الشاب فلا يشعر به ، وإذن فهو فرح مغتبط إلى غير حد . كان يخشى أن تصل إليه رسالة برقية تدعوه أن يعود أدراجه إلى الميدان . فأما وهذه الرسالة لم تصل فهو سعيد ، لأنه سيمكث أربعة أيام وسيستطيع أن يتزوج قبل سفره ، وقد أعد الشيخ كل شيء ، فتمت الإجراءات الرسمية ، وسيتم الزواج غداً أو اليوم متى أشرق الصبح . فنحن فى الساعة الثانية وهم يتحدثون

عن الحرب وعن أهوالها ، وهم يذكرون أسماء الأصدقاء الذين سافروا إلى الميدان ، ويسألون عن أنبائهم والفتى يجيب . ثم يذكر الفتى أمه التى ماتت قبل أن تعلن الحرب . وتنصرف الفتاة فيخلو الشاب إلى أبيه . ومؤثرة جداً هذه الأحاديث التى يتبادلها الرجلان . مؤثرة لأنها تمثل نفس الشيخ وتمثل نفس الفتى وتمثل حبهما للفتاة تمثيلا صحيحاً . فأما الشيخ فسعيد مطمئن إلى الحياة منذ أقامت معه الفتاة . كان قبل ذلك وحيداً مضطرباً معنياً بعمله الكثير ، ثم أقبلت هذه الفتاة فأزالت الوحدة وقامت مقامها مودة حلوة هادئة حببت الحياة إلى الشيخ فهو يحيا سعيداً ، وهو يشعر بأن الحرب ثقيلة الوطأة على الجند ولكنه يشعر أيضاً أن هذه الحرب ثقيلة الوطأة على المقيمين ؛ فإذا كان الجند يؤدون واجبهم فى الميدان فالمقيمون يؤدون واجبهم دون الميدان . وهل كان الجند يستطيعون أن يثبتوا لو لم يثبت المقيمون فى حياتهم الهادئة فيدبروا للحرب حاجاتها . والشيخ مع هذا مضطرب لقرب انتهاء الحرب ، مضطرب لأن ابنه سيعود ويتزوج وسيستأثر بالفتاة ، وسيبقى هو وحيداً كما كان ، وسيخلو إلى شيخوخته ، يتم حديثه بذلك فى غير

تصريح . ويكاد الفتى يفهم ولكنه بعيد عن تصوره . فهذا الفتى جندى حقاً فيه مزايا الجند وفيه عيوبهم أيضاً . ولكن من الذى يجرؤ على أن يقول أن للجند أثناء الحرب عيباً ! أليسوا يدافعون عن الوطن ! أليسوا يحمونه ويحمون أهله ! أليست الأمة كلها مدينة لهم بالحياة والحرية ! ! فى هذا الفتى كل مزايا الجندى الفرنسى أثناء الحرب : فهو شجاع ، ولكن شجاعته هادئة متواضعة لا تفاخر ولا تعلن عن نفسها وهو مطمئن إلى الألم يحارب لا لأنه يحب الحرب بل لأنه مضطر إلى هذه الحرب . ويطيع لا لأنه مفطور على الطاعة بل لأنه يطيع نفسه وكيف لا ! أليس فرنسياً يستمتع بما يستمتع به الفرنسيون من الحقوق ! ! وإذن فمن الحق عليه أن يدافع عن هذه الحقوق ، وهو يفعل هذا مختاراً لأنه كان يعلم أن الحرب ناشبة ، فكان يستطيع أن يغير وطنه ليفر منها . وإذا لم يغير هذا الوطن فليؤد واجباته الوطنية . ثم عمّ يدافع فى الميدان ؟ عن الأرض ، فهو يملك منها جزءاً . عن العقل الفرنسى فقد غذته ثمار هذا العقل فهو إذن لا يفعل شيئاً استثنائياً ، ولكنه فى الوقت نفسه يألم آلاماً لا حد لها ، ولا يقدرها إلا الذين يشعرون بها ، وربما

خطر له فى الميدان أو فى الخندق أن أهله هادئون مطمئنون وأنهم قد يبتهجون حيناً وقد يضحكون حيناً ، فيغيظه ذلك ، ويحنقه ، ويود لو شاركه أهله فى الألم فلم يفكروا إلا فيه ولم يتحدثوا إلا عنه ولم يحيوا إلا له . وهو يعلم أن هذا جور ، ولكن من الذى يستطيع أن يدفع الخاطر إذا خطر ! ! . ثم لا يكاد يسأل أباه عن الفتاة حتى يكثر الشيخ من الثناء والإعجاب وقد سبقه هو فأثنى وغلا فى الثناء . وفهمنا أن الرجاين يحبانها ، وأن الشيخ نقم من الفتى شبابه وأنها تحبه . وربما نقم من الفتى إجازته التى غيرت نظام حياته ولو إلى حين . وينتهى الحديث بهما إلى ذكر الحرب ومتى تنتهى ، فيكاد الفتى يفهم من صوت أبيه وحديثه ما يخيفه . وقد أقبلت الفتاة فهو يسألها وهى تدفع إليه الرسالة البرقية . ذلك أن هذه الرسالة كانت قد وصلت قبل الفتى ، فأخفاها الشيخ والفتاة حتى لا ينغصا عليه ساعة اللقاء . أما الآن فليس بد من إظهاره عليها ، وفى الرسالة أمر بالعودة حالاً . وقد نظر الفتى فى الرسالة فناله شىء من الذهول كأنه كان يقاوم مقاومة شديدة ، وقد انتصر فى هذه المقاومة فلم يجزع ولم يظهر عليه اضطراب ولا إنكار ، وهو

يضحك ولكن ضحك المحزون ... يجب إذن أن يسافر بعد أربع ساعات ، ولكن أربع ساعات ! . . هذا وقت طويل يستطيع فيه أن يكون سعيداً . وسيكون سعيداً ! نعم أن يتزوج فقد أبت الفتاة هذا الزواج فى هذا الوقت القصير ، ولكنه مع ذلك سيكون سعيداً أربع ساعات يستمتع فيها بحريته كاملة ويستخدم فيها ذاكرته ليذكر أيام السعادة والنعمة ، ويستخدم فيها خياله ليتمثل ما يحب من سعادة ونعمة . وذاكرة الجندى قوية إذا تعرض للخطر ، وخيال الجندى قوى إذا تعرض للخطر ! سيكون سعيداً ، وهو يتركهما لحظة ليصلح من أمره . فيخلو الشيخ إلى الفتاة ويتحدثان ، فإذا هما يعطفان على هذا الشاب ، ولكن الفتاة أشدهما عطفاً وحزناً ، والشيخ يسليها ويذكرها بحياتها الهادئة كأنه يأسف على ما فات منها ويتعجل منها ما بقى . أليسا سيستأنفان هذه السعادة بعد ساعات متى سافر الشاب . والشيخ يلاطف الفتاة فى حنان ، ولكنه حنان يشبه الغزل . ويعود الفتى وقد لبس ثياب الزينة والعرس ، فإذا أنكرا منه ذلك أجاب أنه يريد أن يكون سعيداً . ويستطيع أن يكون سعيداً ، وسيكون سعيداً ! ودعاهما إلى أن ينصرفا ليستريحا . أما الشيخ فلا يأبى وهو متعب ، وقد تقدم الليل ، والفتاة متعبة أيضاً ،

فالشيخ يدعوها إلى الراحة ويلح فى ذلك ، ولكنها تتلكأ تريد أن تبقى حيناً مع خطيبها ، وقد فهم الشيخ ذلك وقبله وألح فى ألا تمكث الفتاة كثيراً فوعدته الفتاة وانصرف الشيخ فيخلو العاشقان ، ولا يكادان يتحدثان حتى تشعر بأن الساعة رهيبة مملوءة بالتأثر والعزم والجهاد العنيف بين العواطف المختلفة ، أو قل بين عواطف السلم وعواطف الحرب . ذلك أن الفتاة تعلن إلى صاحبها فى تردد وخبل أنها تريد أن تكون له ، فيتغابى ، وكلما تغابى ازدادت هى تصريحاً وإقداماً ، حتى يضطر إلى أن يفهم أو يظهر أنه يفهم . . . فينكر عليها ذلك ولكن فى رفق ورغبة . وكيف يقبل وهذا القبول إغواء ! فليس للفتاة أحد ينصحها . ولو أن لها من ينصحها لما فكرت فى ذلك . على أنها متأثرة بالموقف ، وهو لا يريد أن يستغل هذا الموقف . ولكن الفتاة قد فكرت وأكثرت التفكير ، واعتزمت بعد بحث وتمحيص وإقتناع .

— والدين ؛ هى واثقة من أن الدين لا ينكر عليها ذلك ولا يأخذها به ، فهى لا تعصى ولا تأثم ، وإنما تقدم على شىء من البر قليل . . . وهو قد قبل ، وهو سعيد مبتهج ، بل

هو يتجاوز السعادة والابتهاج إلى شىء من الذهول غريب . وهنا موقف من أجمل ما كتب الكاتبون ، فيه شعر وفيه قوة ، وفيه صدق إذا نظر إلى هذا الفتى وقد قبل ماعرضته عليه الفتاة ، ولكنه يريد الزواج وقد أخطأه الزواج المدنى ، أخطأه الشهود ، وأخطأه الممثل للحكومة ، وأخطأته الكنيسة ، ولكنه يستطيع أن يطالب هذا كله إلى الخيال . وخيال الجندى قوى إذا تعرض للخطر ، فهو يريد أن يتزوج ، وأن يستشهد أصدقاءه الذين ماتوا فى الميدان على هذا الزواج . وهو يتحدث بذلك مقتنعاً إلى صاحبته ، فتخاف وتضطرب ، ثم تذهل وقد فقدت الرشد واقتنعت مثله وهو يدعو أصدقاءه الموتى واحداً واحداً ، ويراهم يحضرون وهو يتحدث إليهم ويستمع نجواهم ، يستشهدهم فيشهدون ، ويستشيرهم فيشيرون ويهنئون ، وهو يشرب الشمبانيا له ولهم وكأنه يراهم يشربون معه . . . يجب أن تقرأ هذه القطعة لتشعر بما فيها من جمال ينسيك كل شىء حتى نفسك . . .

* * *

فاذا كان الفصل الثانى فنحن فى غرفة الزوجية ، والفتاة غافلة فى سريرها كأن قد أخذتها سنة من النوم . والفتى جالس

الى الموقد ، كأنه يصطلى ثم تفيق الفتاة فتنكر هذه السنة التى أخذتها حين لم يكن يجب أن تنام ، ثم تنهض من سريرها وتدنو من صاحبها ويتحدثان وقد كان الزواج وهما سعيدان . وهى لا تنكر شيئاً مما فعلت ، وهو لا ينكر شيئاً مما فعل ، ولكنهما يمضيان فى الحديث حتى يصلان إلى حيث يجب أن يتكشف كل منهما لصاحبه عن دخيلة نفسه ، فبعد أن وصلا الى ما وصلا اليه لا ينبغى أن يكون بينهما كذب ولا سر ولا مراوغة . وهى فى حاجة الى تعرف الحقيقة ، وهى تسأل وتلح ، وهو يأبى ويحتال ، ولكن لا سبيل الى الفرار ، يجب أن يجيب وإلا فهو لا يحبها وهو يحذرها عاقبة هذا الجواب ، ولكنها تكره الكذب وتؤثر عليه كل شىء ، يجب إذن أن يجيب !

— ما أمد الحرب ؟

— بعيد جداً .

— وهذا الانتصار ؟

— قد استطاع العدو أن يتقى آثاره وإذن . . . فكأننا لم نفعل شيئاً . . .

— كم ينتظر أن تدوم الحرب ؟

— أعواماً . وإذا هى مضطربة اضطراباً لاحدّ له ، وإذا هى نادمة أشد الندم على ما فعلت ، واذا هى تلومه لأنه أنبأها بالحق وتؤنبه لأنه يمضى فى الكذب ، وإذا هى تعلن اليه أنها لا تحبه . ذلك أنها كانت تحبه حباً شديداً ، ثم كانت الحرب وكانت الغيبة فأحست أثر هذه الغيبة فى الحب ، وأحست أنها لن تستطيع أن تحتفظ بحبها اذا طالت هذه الغيبة ، وقد قاومت وجاهدت ، ولكنها لم تفلح ، وأقبل هو فى إجازته ففعلت ما فعلت لتحيي هذا الحب ، وهى مقتنعة بأن الحرب قد انقضت أو كادت . أما الآن وسيستأنف الغيبة وستطول هذه الغيبة ، فهى واثقة بموت هذا الحب ، وهى آسفة نادمة على ما قدمت من نفسها .

أما هو فقد تلقى هذه الصاعقة فى جلد وشجاعة ، وما الذى يمنعه أن يكون شجاعا وهو يعيش مع الموت وهو مسافر غداً إلى الموت ! نعم ! هو مسافر غداً إلى الموت حقاً ، فقد كان أخفى على صاحبته كل شىء حتى سر هذه الإجازة ، وهو الآن يظهرها على كل شىء . نعم ! إنه وعد بأن يموت فقد

كانت الإجازات ألغيت لأن فرقته ستهاجم وكانت قيادة الفرقة قد طلبت متطوعين يتقدمون بين يدى الجيش يوم الهجوم يحملون قنابل ليضعوها دون خطوط العدو ، ومن تطوع لهذه المهمة فهو ميت لا محالة ، ولذلك أبى الناس جميعاً أن يتطوعوا ، وأقبل هو الى رئيسه فطلب إليه الإذن له بالسفر على أن يعود متى تقرر الهجوم ، وعلى أن يتطوع لهذه المهمة . فلما سأله الرئيس عن هذه المخاطرة أجابه بأنه يحب فتاة ، وبأن هذه الفتاة تلح عليه فى أن يراها ، وبأنه يخشى إذا لم يرها الآن أن يموت ولما يظفر بذلك ولما يتزوجها ولما يعطها اسمه . . . وقبل الرئيس وسافر الفتى وهو الآن مدعو الى العودة . وإذن فقد تقرر الهجوم ، وإذن فهو مقتول يوم الجمعة . وقد ذهلت هى وأصابها شيء من الجنون ، فأخذت تتهم نفسها بأنها قاتلة وأخذ يدافعها عن هذه التهمة ، ولكنها تمضى فى الاتهام ثم فى الإعجاب بهذا البطل وأمثاله ثم فى شيء يشبه العبادة . وهنا حوار يمثل قوة الشاب ، فصاحبته مسيحية مؤمنة ، وهو ملحد مسرف فى الإلحاد ، وهى تذكره بالله وهو ينكره ، وهى تذكره بالموت فلا يزداد إلا انكاراً لوجوده ثم ازدراء له ثم يتحداه إن كان

موجوداً . وماذا يخشى ! سيموت فإن كان الإله موجوداً حقاً فلن ينكر عليه إلحاده . أليس قد اجتهد وفكر فلم يهده عقله الى شيء ، ولكنه منصرف عن الدين والإله والموت الى هذا الحب الذى لم يظفر به إلا حيناً . وهى تعطف عليه ، وهو يسألها قبلة فتستدنيه وتستدنيه وتستدنيه أيضاً . . . وقد أطفىء المصباح حيناً ، ثم نهض الفتى ، وظلت هى فى سريرها وأخذا يتحدثان ، وأخذ هو يسليها ويخادعها عن الفجر ويقص عليها أحاديث تلهيها ، وهى الآن مغرقة فى نوم هادىء . . . وقد أشرق الصبح فوضع الفتى رأسه بين يديه وأغرق فى البكاء . . .

أعترف بأن هـذا الفصل جميل لذيذ مؤثر ، ولكنى أعترف بأنه غامض ، وبأنه غير مفهوم وبأن فيه فلسفة تحتاج الى شيء من الوضوح والى أن تقرب من الناس . ولكن الفصل الثالث هو شر ما فى القصة وأبعده عن الحق .

✡✡✡

نحن فى الغرفة التى كنا فيها فى الفصل الأول ، وقد وقف الفتى وصاحبته ، وأقبل الشيخ فلم يلتفت إلى ابنه ولم يشعر بوجوده ، وإنما أقبل إلى الفتاة يحييها ويلاطفها ويسألها

عن ليلتها ، ثم تنبه إلى وجود ابنه فسأله عن صحته وعن ليلته . وأحس الفتى هذا وأنكره على أبيه فى لطف ، وأخذوا يتحدثون ، وأخذ الشيخ يسأل الفتاة ما بالها لم تضىء غرفتها وما يزال بها يسألها وهى متلعثمة مضطربة حتى يتدخل الفتى فيزجر أباه زجراً عن هذا السؤال ، ويتضح للشيخ ما كان بين العاشقين ، فاذا هو ثائر مغضب يلعن ابنه ويزدريه . أليس قد اقترف إثماً عظيما ! ! أليس قد أغوى فتاة طاهرة ! ويشتد الخصام بين الرجلين ، وإذا الشيخ ينكر الحرب ويلعنها لما أفسدت من نفوس الشبان وأخلاقهم ، ولما ملأت قلوبهم بالغرور حتى خيل إليهم أن الناس مدينون لهم بكل شىء ، والفتى مغضب أيضاً يزجر أباه ويسبه ، فلا يزداد الشيخ إلا حنقاً ، أليس الفتى يضيف إثماً إلى إثم ! ! ؟ أغوى الفتاة وهو الآن ينهر أباه . وهل أبقت الحرب من شىء ! ؟ وفيم هذا الغرور ؟ إن الجندى لا يزيد على أنه يؤدى واجباً كغيره من الناس . ثم يشتد الخصام بين الرجلين ، وإذا الشاب يتهم أباه بأنه كان يحب الفتاة ، وأنه كان يغويها فى غير شعور منه ، وأنه الآن غيران غيرة العاشق لا غيرة الرجل

الشريف . وتحاول الفتاة أن تصلح بينهما ، وتحاول أن تظهر الشيخ على ما يخفى ابنه من إشرافه على الموت . ولكن الفتى يمنعها ، والخصام محتدم بين الرجلين حتى تنقطع الصلة بينهما ، فيعلن الفتى أنه منصرف ، وأنه لا يعرف أباه ولا يحبه ولا يقدره ، ويعلن إليه أبوه أنه يستطيع أن ينصرف وأنه يتمنى له سفراً حسناً . وتقبل الفتاة إلى الشيخ تريد أن تهمس إليه ، فلا ترى منه إلا حقداً على ابنه واستخفافاً به . وإذا هى مغضبة كصاحبها تريد أن تتبعه ، وهى تزدرى الشيخ وتتهمه بكل ما كان يتهمه به الفتى . وقد كان الشيخ ثابتاً يقاوم ابنه مقاومة حسنة . فانظر إليه قد اضطرب أمام الفتاة ، فهو لا يقاوم ولا يدفع عن نفسه ، وإنما هو يستعطف ويترضى ، ولا تزيد الفتاة إلا سخطاً وحنقاً وازدراء للشيخ . والآن قد فهم الشيخ كل شيء ، وأحس أنه مجرم ، وأنه أساء إلى ابنه ، وأنه كان يحب الفتاة حقا ، هو إذن يقر على نفسه بكل سيئة ، وهو يستعطف ابنه ويترضاه جاثياً بين يديه ، وقد رق الفتى لأبيه فأخذ يعفو عنه ويعطف عليه ويتلطف له ، ثم أخذ يترضى الفتاة على أبيه ويطلب إليها أن تبقى ، والفتاة

تأبى ، والشيخ يشاركها فى هذا الإباء ، فهو مقتنع حقاً بأنه مجرم ، وهو يريد أن يطهر من هذا الجرم . وأى شىء يطهره من هذا الجرم إلا الألم والوحدة والتفكير فى هذا الخزى الذى كان فيه ! . ولكن الفتى قد رق لأبيه رقة لا حد لها ، فهو يستعطف الفتاة وقد ظفر منها بما كان يريد وقد رضى الآن عن أبيه وعن الفتاة ، وإذا هو ينصح لهما ويلقى إليهما الحكم كأنها وحى ينطق به ملك مقدس ، وهم جميعاً مسحورون بهذا الموقف . أما الفتى فينصح ويعظ ويلح على الفتاة حتى تقسم له بأنها لن تموت إذا مات ، ولن تعيش أرملة ، ولن تنصرف عن الزواج ، ولكن .... يجب ألا تتزوج جباناً ولا مغروراً . ثم يسأل الفتى صاحبته عن هذا الحب الذى مات : ألا يزال ميتاً !

فاذاً هذا الحب حى ، وإذا الفتاة تحبه حباً لا يعدله حب .

وهو ينصرف سعيداً ، وكلما خطا خطوة هتفت به الفتاة : إنى أحبك ! .

وهتف به أبوه : عد إلىّ سالماً إنى لا أريدك نائماً إلى

سرير الموتى . إنى أريد أن تغمض يداك عينى .

وقد خرج الفتى . وخلا الشيخ إلى الفتاة . ولكن الشيخ ذاهل يذكر ابنه ويتبعه بنفسه وقلبه ، والفتاة ذاهلة مستندة إلى الحائط كأنها قد فقدت الرشد والحياة .

كل هذا الفصل جميل إذا قرأته ، ولكن على ألا يكون حقاً ولا ممثلا للحق ، على أن يكون خيال شاعر ، وما الذى يمنع أن تقرأ خيال الشاعر وتجد فيه لذة ؟ ثم فى هذا الفصل تجاوز للحق وتجاوز للعدل ، ولكن من الذى قال إن الظلم والباطل يخلوان من الجمال الفنى دائماً !! . .

مايو سنة ١٩٢٤

عشـــاق

قصة تمثيلية للـكاتب الفرنسى « موريس دونيه »

ما رأيك فى كاتب يعلمك ولا يؤلمك ؟ يبعث فى نفسـك العواطف المختلفة قوة وضعفاً المتباينة قسوة وليناً دون أن يشتد لذلك اضطرابك أو يعظم له تأثرك ؟ ما رأيك فى كاتب يبسط لك آلام النفس الإنسانية وما يعبث بها من حسرات دون أن يضطر عينيك إلى أن تدمعا ودون أن يضطر قلبك إلى أن يخفق ؟ وهو مع ذلك يبلغ منك ما يبلغه الـكاتب المؤثر الذى يعبث بالقلب ويستبيح العبرات . هذا الـكاتب الهـادىء المبتسم الذى يمر بك على ألوان العواطف وضروب التأثر ويشعرك بها وأنت مثله هادىء مبتسم هو « موريس دونيـه » الذى أريد أن أحدثك اليوم عن قصة من قصصه .

كاتب مبتسم أبداً . ولكنه متأثر ومؤثر أبداً .
ولقد تأخذنى الحيرة وما أشك فى أنها تأخذك أيضاً حينما أريد أو تريد أن نتفهم كيف يستطيع هذا الكاتب أن يجمع بين هاتين الخصلتين فيحزنك ويسرك فى وقت واحد . أو هو يستطيع خيراً من ذلك ، فلا يحزنك ولا يسرك ، وإنما يعلقك بين الحزن والسرور ، فيرسم على وجهك ابتسامة خالصة صريحة مضيئة ، ويلقى على نفسك ستاراً من الكآبة مؤثراً أشد التأثير ، ولكنه فى الوقت نفسه خفيف لطيف شفاف .

كنت فى هذه الحال وأنا أقرأ هذه القصة . ولست أخفى عليك أنى ترددت تردداً شديداً فى اتخاذها موضوعاً لحديث اليوم . فهى تخالف ما ألفنا من الأخلاق والعادات والأوضاع والأحاديث مخالفة شديدة . وكنت أخشى أن أوذى غير واحد من القراء إن عرضت لها فلخصتها وفصلت ما فيها . ولكنها فى الوقت نفسه غنية خصبة دقيقة رقيقة تستحق العناية وتصلح موضوعاً للحديث . هى تخالف ما ألفنا . وأيِ قصة من قصص التمثيل لا تخالف ما ألفنا على نحو من الأنحاء ! وأى لون من ألوان الأدب الأجنبى يلائم من كل وجه ما ألفنا من ألوان

الأدب العربى وما ورثنا من خلق وعادة ! ! نحن بين اثنتين ؛ إما أن نتشجع ونقبل الأدب الأجنبى على عِلاته فندرسه ، لا لأنه يلائم آدابنا وعاداتنا وأخلاقنا ، بل لأنه جدير بالقياس إلينا مخالف لما ألفنا ولما ورثنا . وإما أن نكتفى بما عندنا فلا ننفع ولا ننتفع . وأنا أعترف بأنى أوثر الأولى على الثانية ، وأحتمل فى غير ضعف ولا وهن تبعات اللوم الذى وجهه ويوجهه وسيوجهه إلى كثير من الناس . وربما وجدت فى هـذا اللوم البرىء لذة ليست أقل أثراً فى نفسى من لذة الثناء والتشجيع .

هذه القصة مخالفة كما قلت ، لما ألفنا ولما ورثنا ، لأن موضوعها فى نفسه غريب بالقياس إلينا كما سترى . وهى فى الوقت نفسه مخالفة لما عودتك من القصص إلى الآن . فليس فيها عاطفة عنيفة تهزك هزّا ، وليس فيهـا تأثير قوى . وهى لا تنتهى بموت محزن ، ولا بانتصار سار ، وإنمـا تجرى من أولها إلى آخرها هادئة مطردة ، كما يجرى النهر الذى لا تعبث به الزوابع ولا الأنواء . وربمـا اضطرب النسيم من حين إلى حين ، فظهرت على صفحته موجات صغار لا يلحظها إلا الملتفت المتأمل . كذلك تقع هـــذه القصة ولا يكاد يشعر بها أحد من الذين يحيطون

بأبطالها إلا فرداً واحداً ملتفتاً شـديد الالتفات ، متأملاً قوى التأمل ، ولا يفرض إنسان أنه أهل للالتفات أو التأمل ؛ لأنه طفل لم يبلغ العاشرة من عمره بعد .

ولكنه يحب أمه ، فهو يلتفت إلى حياتها ويتأمل فى وقائعها ، ويشعر من تفصيلها بما لا يشعر به أحد غيره .

ولأعرض عليك موضوع القصة فى أول هـذا البحث وإن كان الكاتب لم يعرضه إلا فى آخر القصة ؛ لأنى أحرص أشد الحرص على أن تتجنب التعميم والخطأ فى الحكم ، وعلى ألا تتورط فى هذا الخطأ الشائع ، فتحكم على الصحيح بأعراض المريض ، وعلى المطرد بخصائص الشىء النادر .

✡ ✡ ✡

نساء هذه القصة جميعاً لسن من النساء الشريفات اللاتى تمنحهن القوانين والأخلاق هذا اللقب . وهن لسن من المومسات اللاتى تعود الناس أن يسموهن كذلك ، وإنما هن فى منزلة بين بين ، تعرفها البلاد المتحضرة المتأثرة بضروب الترف وألوان اللذة ، والمضطربة بين المحافظة على القديم والاندفاع فى سبيل الجديد . هن فى منزلة بينَ بينَ لسن زوجاتٍ ، ولكنهن

مستهترات . قد اتخذن الأخِلاّء والأخدان ، وعشن معهم عيشة الزوجات مع الأزواج ، واجتهدن الاجتهاد كله فى ألا يعلم الناس من سيرتهن الحقيقية شيئاً . فهن يتجنبن الأسر الشرعية ، حتى لا يظهر عليهن فضل الزوجات الشرعيات ولا يعرف الناس مكانهن من مخالفة الخلق والقانون . وهن يتجنبن فتيات العبث واللذة مخافة أن يختلطن بهن فينالهن ما يتجنبن من سوء . لسن زوجات ، ولكنهن أمهات . لهن أبناء وبنات ، لم يولدوا لآباء شرعيين . ولكن أمهاتهم يحرصن كل الحرص على ألا ينالهم من ذلك ضرر ولا مشقة . يردن أن يربينهم كما تربى الأم الشرعية ابنها الشرعى . ويردن أن يزوّجنهم ويشيدن مستقبلهم كما تفعل الأسر الشرعية بأبنائها . فهن مضطرات إلى ضروب من الحياة فيها شدة وعنف ، وفيها ضيق واحتمال للمكروه . وهن يتعارفن ويتآلفن ويتواضعن على شىء من النظام الخلقى يمتاز من أخلاق غيرهن من النساء ، ويسيطر عليه حب الأبناء والبنات والتضحية بكل شىء فى سبيله .

لن ترى فى هذه القصة امرأة إلا وهى من هذه الطبقة فأما الرجال فهم بين اثنين : شاب يلهو ولمّا يَبْلُغْ من السن

ولا من المركز ما يمكن من الاستقرار إلى الحياة الشرعية واتخاذ الأسرة . ورجل اتخذ لنفسه أسرة ، ولكنه لم يوفق فى حياته المنزلية لما كان يرجو من سعادة وطمأنينة . وكلا الرجلين لا يعبث إيثاراً للعبث ، ولا يلذ حرصاً على اللذة ؛ وإنما ألتمس السعادة من طريقها المشروعة فلم يوفق لها ، فهو يلتمسها من طرق أخرى ملتوية . وإذن ففيه شىء من الجد ، وفيه شىء من الوفاء . فهو يحب صاحبته ويفى لها ، وهو فى الوقت نفسه يعترف بابنه أو بنته ويلحق نسبهما به .

أظنك الآن قد استطعت أن تتبين هـذه الطبقة التى أراد الكاتب أن يبحث من بين أفرادها عن أبطال قصته . وأظنك توافقنى على أن البحث عن هذه الطبقة وما لها من خلق وعادة ممتع ، لا يخلو من لذة ونفع . فلنتجاوز هذه الطبقة من وجهتها العامة لنبحث مع الكاتب عن أبطال هـذه القصة الذين هم من أفراد هذه الطبقة .

ولست أقدّم إليك من أبطال هـذه القصة إلا أربعة رجلين وامرأتين . فأما أول الرجلين فشيخ متقدم فى السن ، هو « الكونت رويزو » من أشراف الفرنسيين وأشدهم حرصاً

على مذهب المحافظين فى السياسة وفى الدين وفى الأخـلاق والعادات . وهو ملكى مسرف فى الملـكية ، يأتمر من حين إلى حين لإعادة الملك إلى عرش فرنسا . وهو متشدد فيما توارث الناس من خلق ودين ، يكره الطلاق و ينفر منه نفوراً شديداً ويحتمل من زوجه ما لا يحتمل الرجل الـكريم دون أن يفكر فى الطلاق أو يميل اليـه . وهو على محافظته هذه رجل ذكى قوى الذكاء ، وهو مع هذا فيلسوف ، قد فهم الحياة فاطمأن إليها ولم ينكر من أمرها شيئاً ، واجتهد فى أن يوفق بين فلسفته و بين مذهبه فى المحافظة . هو مثلا مقتنع بأن امرأته تكرهه وتخونه ، وتسرف فى خيانته وتجعله هزؤاً بين الناس ، ولـكنه يكره الطلاق ، وهو فى الوقت نفسه يكره أن يفرض الناس أنه مغفل . وإذن فهو لا يتكلف أن يجهل سيرة امرأته وإنما يتحدث عنها وعن عشاقها وعن مجونها فى هدوء وسخرية مبتسما . لا يتحدث بذلك إلى الناس جميعاً ، وإنما يتحدث به إلى أخصائه حتى لا يفرضوا فيه الغفلة وربما اشترك مع أحـد أصدقائه فى شعر يهزأ فيه بخليل من أخلاء امرأته ، ثم روى هذا الشعر لصديق آخر من أصدقائه مبتسما مزدرياً . ثم هو

يعلم أن القضاء قد كتب عليه أن يكون مخدوعاً طول حياته . ولا شك فى أنه قد ألم لذلك وشقى به ، ولكنه يعرف كيف يحتمل الألم ويبسم للشقاء ؛ فهو يتحدث عن ذلك فى لهجة الساخر المزدرى دون غلو ولا إسراف . فيقول : إنه كان شاباً جميل الطلعة حسن الخلق ، وكان يحب فتاة ، وكانت هذه الفتاة تحبه ، ولكنها مع ذلك خانته وخانته ، حين كان يكتسب فى الحرب وسام الأبطال ، حين كان يعالج فى المستشفى وقد أصابت ذراعه رصاصة وأصابت ساقه ضربة السيف . ثم تزوج ، وكان جميلا ، عظيم الثروة ، عظيم الإسم ، رفيع المكانة فخانته زوجته ومازالت تخونه شاباً وكهلا وشيخاً . وهو يتحدث إلى صاحبته فينبئها بأنه يثق بها الثقة كلها . فإذا أظهرت صاحبته اغتباطها لذلك أظهر لها أنه ليس مغفلا ، وقال أنه يثق بأنها إذا أرادت أن تخونه فلن تجعله هزؤاً بين الناس بل هى ستتستر وتتكتم حتى لا يظهر الناس من خيانتها على شىء . ثم هو إلى هذا كله يسخر من قوانين الاجتماع وأخلاق الناس ، ويرى أن الحق على كل إنسان أن يؤمن بأن خيانة المرأة للرجل هى القانون الطبيعى ، وأن الناس يجب أن يستعدوا لها

كما يستعدون للموت . وربما كان من الحق على المدارس أن تأخذ الشبان بالتفكير فى ذلك وتوطين النفس عليه ، كما تأخذهم بالتفكير فى الموت ورياضة النفس على انتظاره . وهو على هذا كله طيب القلب ، ذكىّ النفس ، ووفىٌّ إذا أحب ، رفيق بمن يحب .

أما الرجل الثانى فهو « فيتويل » شاب فى الثالثة أو الرابعة والثلاثين من عمره ، ليس عظيم الثروة ولكن له من المال ما يمكنه من الحياة الرقيقة المستقلة . وهو قوى الشعور دقيقه ، حاد الحس مترفه ، يميل إلى اللذة ميلا شديداً ، ولكنه فى الوقت نفسه يطمح إلى الحب القوى الصحيح . وقد ذاق ألوان اللذة حتى سئمها ، ولكن سأمه هذا لا يمنعه أن يطلب المزيد منها . وهو لا يريد أن يتزوج لأنه جرب كثيراً من النساء فلم تشجعه التجربة على أن يفكر فى الزواج . فإذا نصح له ناصح بأن يُقْصِرَ عن العبث أجاب كلا ! . إن قلبى فارغ ، ولكنه غير متعب . فهو إذن لا يكره اللذة ، وإنما يريد أن يبحث عن المثل الأعلى فيها . وهو شديد الغيرة ، ولكنه يخفى ذلك حتى على نفسه . وهو ذكى ، واسع العقل ،

ولولا اشتغاله باللذات لاستطاع أن يكون رجلا ذا خطر فى الحياة العلمية العملية :

أما المرأتان فإحداهما « كلودين » قد توسطت فى عمرها لم تبلغ الأربعين ولـكنها تجاوزت الثلاثين . كانت فى أول أمرها تلعب فى دور التمثيل ، ثم كرهت هذه الحياة فانقطعت إلى حياة منظمة . وهى قوية الارادة جداً لا تذعن للأمر ولا تخضع للسلطة . وهى قوية العواطف جدا ، إذا أحبت لم تحتمل شريكا فى الحب ، كما أنها لا تقنع من الحب بالشىء القليل . وهى جميلة ساحرة ذكية ، ولـكن حظها من التعليم قليل . وهى فوق هذا كله أم تحب ابنتها وتؤثرها على كل شىء وعلى كل إنسان .

وأما المرأة الأخرى فهى « هنرييت جامين » دون الثلاثين ، جميلة خلابة ، ولـكنها ساذجة ، خفيفة الروح ، حلوة النفس ، تخلب بسذاجتها وجهلها أكثر مما تخلب بجمالها وسحر عينيها . فقدت صديقها الذى كانت تحبه حباً شديداً ، وفقدته بعـد أن أضاع ثروته وثروتها فقتل نفسه ، وأخذت تختلف إلى قبره كل أسبوع تحمل الأزهار . فلقيت عند القبور

رجلا شديد الحزن يحمل الأزهار إلى قبر امرأة ويبكى عند هذا القبر بكاء الجزع . فسألت عنه حارساً من الحراس ، فأنبأها بأنه من أغنياء باريس ، فقد امرأته فهو يزور قبرها ويحمل إليه الأزهار فى كل يوم . فلما أصبحت لم تنتظر الأسبوع كما كانت تفعل وإنما غدت إلى قبر صاحبها فى الميعاد الذى يغدو فيه الرجل إلى قبر إمرأته ، فبكت وبكى الرجل ، ثم عرضت له فتحدثت إليه ، فاطمأن إليها ، فعزته عن امرأته وعزاها عن صاحبها ، وكانت بينهما صلة ، فهما يعيشان معا . وهى تقضى ذلك على صاحبتها « كلودين » فى سذاجة كما تقص عليها سقوط المطر بعد أن كان الجو صحوا . فإذا رأت شيئا من الانكار أو الميل إلى الضحك فسرت موقفها هـذا وعللته بأنها أم تحب ابنتها وتريد أن تنشئها تنشيئاً حسناً ، وأن تجمع لها مهراً صالحاً لتستطيع الفتاة أن تختار زوجها كما تهوى ، وهى تريد أن تكون ابنتها سعيدة فى الزواج . وويل لزوج ابنتها إن خان امرأته ! . إذن لأقتلنه ! . فإذا سئلت ماذا تصنع إذا كانت ابنتها هى الخائنة ! أجابت مبتسمة : هذا شىء آخر ! إذن فسأعينها على الخيانة ....

هؤلاء هم الأشخاص الذين أردت أن أقدمهم إليك من أشخاص هذه القصة وقد أطلت فى تصويرهم وتعمدت الاطالة ، لأن صورهم هى أشد ما فى القصة نفعاً ، وليس من سبيل إلى فهم هذه القصة إذا لم تتبين هؤلاء الأشخاص على هذا الوجه . على أن تحليل القصة بعد ذلك لن يكون طويلا .

* * *

نحن فى الفصل الأول ، فى مدينة باريس ، فى قصر فخم يقوم فى ميدان الولايات المتحدة ، وتقيم فى هذا القصر « كلودين » التى قدمت لك وصفها . وهى صديقة « للكونت دى رويزى » ، وقد أنزلها فى هذا القصر وضمن لها فيه حياة سعيدة مترفة . وهى فى هذا اليوم قد دعت إلى هذا القصر طائفة من صديقاتها وأقامت فيه عيداً للأطفال ، فأقبل صديقاتها ومعهن أبناؤهن و بناتهن ، وأقبل معهن نفر من الرجال والشبان ، وانقضى العيد وأخـذ المدعوون ينصرفون حتى لم يبق إلا « هنرييت جامين » وما كادت تبدأ فى الحديث معها حتى أقبل « فيتو يل » فيستمر الحديث حينا ، وتفهم منه ما قدمت لك من أمر « هنرييت » ثم تنصرف وتخلو « كلودين » إلى

« فيتويل » ، فيتحدثان ، فإذا هى حديثة العهد بهـذا الشاب ، عرفته منذ حين قصير . وأقبل هـذا الشاب يزورها لأول مرة ، فتفهم من حديثهما ما قدمت لك من أخلاقهما ، ولـكنك لا تلبث أن تفهم شيئاً آخر وهو أن « فيتويل » يشعر بشىء من الحب لكلودين ، فيتلطف لها و يتوسل إليها فى رفق وفى تلميح ، وهى تشعر بشىء من الميل إليه ولـكنها تخفيه وتدافعه عن نفسها . والفتى يتكلف ضروبا من الفتنة ليكسب عطف هذه المرأة ؛ فهو يفلسف ويعرض خواطر غريبة فى أخلاقه وفى أخلاق النساء ، وفيما كان بينه و بينهن من صلة ، وكلما عرض خاطراً من خواطره أو رأيا من آرائه ظهر بينه و بين هذه المرأة اتفاق غريب فى طريقة الفهم والتفكير والحـكم . وقد قرب بينهما كل شىء ، ولم يبق إلا الاعتراف . وهو يلح ، وهى تفر أمام هذا الالحاح . على أن دفاعها قد أخذ يضعف ويلين ، ولـكن « الـكونت دى رويزى » قد أقبل ، فتقدم إليه الشاب ويتعارف الرجلان . ثم ينصرف الشاب ، ويخلو الـكونت إلى صاحبته ، فإذا تحدثا فهمت من حديثهما كل ما قدمت لك فى وصف هذا الشيخ . وفهمت أن الشيخ قد أحب

هذا الشاب ومال إليه ، لأنه محافظ ، ولأنه سجن فى سبيل المحافظة ثم ينصرف الكونت ويترك صاحبته وحدها . ولا تكاد تخلو إلى نفسها حتى يدخل الخادم يحمل إليها كتابا . فضته ونظرت فيه علمت أن « فيتويل » قد كتب إليها لمجرد انصرافه من عندها يبعث إليها تذكرة للأوبرا ، ويعرض عليها أن تصطحبه إن أرادت . فتغضب ، لأنه أسرع وأسرف فى الالحاح ، ثم تجيب بالرفض وترد التذكرة الى صاحبها . وقد انتهى هذا الفصل وعرفنا منه الأخلاق التى تميز هؤلاء الأشخاص جميعاً ، وعرفنا منه أيضاً أن بين « كلودين » و « فيتويل » حباً ناشئاً لا يمكن أن يضيع .

* * *

فإذا كان الفصل الثانى ، فنحن فى القصر نفسه ، ولكن فى غرفة النوم ، وقد انتصف الليل ودقت الساعة الثانية من الصباح ، ونحن فى آخر السنة وفى فصل الشتاء ، والثلج يتساقط من وراء النافذة ، و « كلودين » قد خلت إلى صديقها الشيخ وهما يتحدثان عن عشاء كانت كلودين قد قدمته إلى طائفة من أصدقائها ، والكونت يثنى على هذا العشاء ويثنى

على صاحبته . وهما يذكران المدعوين ، فيذكر الكونت أن « فيتويل » كان مشغولا « بهنرييت جامين » التى كانت جارته على المائدة وتتكلف « كلودين » الإعراض عن ذلك . ثم تريد كلودين أن تتجرد من ثيابها لتستريح ، ويعينها الشيخ على ذلك فى حب وغزل ، ولكنه لا يوفّق لجهله بثياب النساء وفنون البِدْع فى ذلك ، فتدعو خادمها لتعينها ، حتى إذا فرغت من ذلك أظهرت الاستعداد للنوم ، وأظهر الشيخ الطمع فيما يطمع فيه فى مثل هذه الساعة وهذا الحال ، ولا سيما أنه مسافر غداً إلى إيطاليا ليأتمر والجو بارد والثلج يتساقط ، ولكنه لا يرى منها إلا فتوراً ونفوراً ، وهو يحبها ، وهو طيّب القلب فيذْعن لما تريد ويُقبلها لينصرف . فلا تكاد تطمئن إلى قبلته ثم تحس أن نفورها قد آذاه فترق له وتعطف عليه وتودعه وداعا حسناً ، وينصرف راضياً محزوناً . ولا يكاد ينصرف حتى تسرع إلى النافذة فتفتحها وتقدم منها المصباح كأنها تشير إلى إنسان ، وهى فى الحق تشير إلى إنسان . فلم تكد تمضى لحظة حتى يقبل « فيتويل » وكان ينتظر أمام الباب أن ينصرف الشيخ ليصعد هو إلى القصر ، فتتلقاه ويكون بينهما خصام

طويل لذيذ . ذلك أن الحب الناشىء قد انتهى إلى غايته بعد ثلاثة أشهر ، مضت على ذلك أشهر أخرى عاش فيها العاشقان عيشة لذيذة ولكنها مختلسة . فهما يتنكران ويتكتمان لا يريدان أن يظهر الشيخ على ما بينهما ، فهما يحبان الشيخ والشيخ يحبهما ، وهما لا يريدان أن يسيئا إليه . وهى بعد تذكر أن الشيخ يثق بها ويثق بأنها لن تعرضه للعار ، وهى لا تريد أن تعرضه للعار ولا للألم ، لأنها تحبه وتشكر له جميله ثم هو أبو ابنتها التى بلغت الثامنة من عمرها . تعيش مع صاحبها الشاب عيشة لذيذة مختلسة ، ولكنها منغصة أيضاً ، فهى شديدة الغيرة ، تراقب صاحبها مراقبة شديدة ، تسأله فى كل يوم أن يقص عليها سيرته حين كان بعيداً عنها ، وهو يفعل فلا يهمل من حياته شيئاً مهما يكن تافهاً . وهو ليس أقل منها غيرة ؛ فهو يكره أن تظهر الظرف للناس ، وهو يكره بنوع خاص هذه الصلة بينها وبين الشيخ ، ويؤذيه أن يختلس اللذة والحب وألا يظهر فى القصر فى مثل هذه الساعة إلا إذا انصرف الشيخ . كلاهما شديد الغيرة ، ولكن كليهما شديد الحب وهل توجد الغيرة بدون الحب : يختصمان ثم يرضيان . وقد

أحسا الجوع ؛ لأنها لم تأكل حين كانت على المائدة وإنما اشتغلت بمراقبة صاحبها وهو لم يأكل وإنما اشتغل بمراقبتها . فليأكلا الآن ! وهى تذهب فتحضر ما تجد من بقايا الطعام ، فيأكلان ويشربان ، ولكنهما لا يتجاوزان هذا إلى شىء آخر ؛ لأنها متعبة ، ولأنها — وذلك شىء نفهمه نحن — لا تستبيح لنفسها أن ترضى للشاب بما أبت على الشيخ منذ حين قصير . . . ينصرف الشاب وقد اتفقا على أن يسافرا غداً من باريس ليقضيا فى الريف أياماً ينتهزان فيها غياب الشيخ فى إيطاليا .

***

فإذا كان الفصل الثالث ، فقد مضت أشهر ونحن فى بيت الشاب ، وهو يتحدث إلى صديق له يزدرى الحب والمحبين والنساء ، ويعنى بالبحث عن الظواهر النفسية . وقد أقبل الشيخ فعاتب الشاب فى رفق ، لأنه وعده ووعد « كلودين » أن يلتقوا أمس ليتعشوا معاً ثم يذهبوا إلى ملعب من ملاعب التمثيل ثم أخلف الوعد ، فيعتذر الشاب بالنسيان ويطلب إليه الشيخ فى رفق وسذاجة أن يزور « كلودين » وينصرف ،

فيتحدث الشاب إلى صديقه . وقد فهمنا من هذا الحديث أنه مغاضب لكلودين ، يريد أن يسلو عنها ، ويريد أن يسافر مساء اليوم ليغيب حيناً عن باريس . أما صاحبه فلا يصدّقه بل يكذّبه ويسخر منه . فعزمه على السلو ليس صادقاً ؛ إذ لو كان صادقاً ، لما احتاج إلى الهرب ولما امتنع من أن يرى صاحبته ويعلن إليها القطيعة . وتدخل « هنرييت جامين » فتخلو إلى الشاب وتنبئه بأنها أقبلت من عند « كلودين » وأن كلودين محزونة ، وأنها فى حال سيئة ، وتتوسل إلى الشاب أن يزورها ويراضيها ، فيظهر الشاب سخطاً شديداً لأن « كلودين » تضيّق عليه وتسرف فى الغيرة وتعتدى على حريته اعتداء متصلا لا يطاق . ويعلن أنه مسافر ، ولكنه سيكتب إلى كلودين كتاباً رقيقاً . فلا تكاد تنصرف هذه المرأة ، ولا يكاد هو يأخذ فى الكتابة حتى تدخل « كلودين » لأنها كانت تنتظر صاحبتها أمام الباب ، فلما علمت بعزمه على السفر لم تستطع صبراً فصعدت إليه تترضاه ، ولم يكد يراها حتى كان عتاب شديد ، وحتى أخذ يطلب إليها ملحاً عليها أن تترك الشيخ وتخلص له هو . وهنا موقف يبين لك عن خُلق هذه المرأة وعن خُلق أمثالها من

أفراد هـذه الطبقة التى قدمت وصفها لك ما لم أذكره فى أول هذا الفصل هـذا الخلق هو شىء من الوفاء غريب لا عهد لك به . هى تحب الشاب وتؤثره على كل إنسان إلا ابنتها وهى مستعدة للتضحية فى سـبيل هذا الحب بكل شىء إلا بهـذا الشيخ . لا لأنه أبو ابنتها فحسب ، بل لأنه رجل ضعيف قد وثق بها واطمأن إليها ، وقد وجد عندها سعادة أعانته على احتمال الحياة . وهى لا تريد ولا تستطيع أن تسلبه هذه السعادة ، هى تخونه ، ولكنه يجهل هذه الخيانة ، وإذن فهو لا يألم لها . وهى تكره أن يألم ، وتعلم أنه سيموت يوم تقطعه . وهى مستعدة لـكل شىء إلا الجبن والنذالة . ومن الجبن والنذالة أن تتعمد الإساءة إلى هذا الشيخ الذى لم تلق منه إلا خيراً .

أتعلم أنك إن أساء إليك إنسان لم تحجم عن الموت لتنتقم لنفسك متأثراً بعاطفة الشرف التى تسيطر على الرجال ؟ فاعلم أن عندنا نحن النساء عاطفة تشبه عاطفة الشرف هذه وتحول بيننا وبين التورط فى مثل هذه الدنية . أنا أضحى فى سبيلك بكل شىء إلا هذا الشيخ ! . ويطمئن الفتى إلى ذلك ، فهو يحبها ويحب منها هذا الوفاء ، وهو ليس كغيره من العشاق الذين يأبون إلا الاستئثار السخيف بكل شىء ، وإنما يكفيه أن

يستأثر من صاحبته بحبها وحنانها وقدرتها على اللذة . وإذن فلن يسافر ، وإذن فسيتصل ما بينهما من حب ، وسينافقان إبقاء على هذا الشيخ .

✲ ✲ ✲

فإذا كان الفصل الرابع فنحن فى مدينة من مدن إيطاليا وقد أقبل الليــل وخلا العاشقان وهما يتحدثان متأثرين تأثراً شـديداً ، يتجلدان ويتكلفان القوة والحزم ، لأنهما قد أزمعا أمراً عظيما . ذلك أن أشهراً قد مضت فلم تزدد الغيرة بينهما إلا شدة ، وأصبح الشاب لا يستطيع أن يحتمل هـذا النفاق ولا يرضى إلا أن تنقطع الصلة بين صاحبته وبين الشيخ ، وهى لا تريد ذلك ولا تقبله . وإذن فقد اتفقا على أن يقطعا ما بينهما من حب . واستأذنت الشيخ فى شهر تغيبه عنه فأذن لهـا ، ومكثت هـذا الشهر مع صاحبها خالصة له ، ثم انقضى الشهر ويريد الشاب أن يسافر إلى أقصى الأرض مع بعثة جغرافية ، وستأتى العربة لتقله إلى المحطة بعد دقائق . فهما متأثران محزونان لهـذا الفراق ، وهى قد فقدت قوتها ، وخيل إليها أنها لن تستطيع أن تحتمل هذا الفراق ، وأنها تستطيع أن تهجر الشيخ

لتبقى مع صاحبها فتعرض عليه ذلك فيأبى ، لأنه يعلم من أمرها عجزها عن الإساءة إلى هذا الرجل ، وهى إنما تخطىء الآن حين تقدر أنها تستطيع هـذه الإساءة فلينقطع الحب بينهما . وحسبهما من هذه السعادة القوية التى ظفرا بها كل هـذه الأشهر . وهو يعلم أن هذا الفراق مؤلم . أليس يشعر بهذا الألم ! أليس سيشعر به فى أثناء سفره ! ولكن لابد من احتمال هذا الألم إذ لم يكن عنه منصرف . وهنا حوار قصير ، ولكنه آية فى الدقة والتعمق . هى جزعة ولكنها مقتنعة بأنهـا لن تستطيع أن تسىء إلى هذا الشيخ . وهى فى الوقت نفسه لا تريد أن تنقطع الصلة بينها وبين الشاب . تريد أن تذكره أبداً وأن يذكرها أبداً ، وأن يكون بينهما شىء مشترك فى كل يوم ؛ فتعرض عليـه عهداً وهو أن ينظر كل منهما إلى نجم بعينه فى ساعة بعينها من الليل فهى ستجد فى ذلك شيئاً من العزاء ، وستعلم أنه ينظر إلى ما تنظر إليه فى نفس الوقت الذى تنظر فيه إلى هذا النجم . . . فيجيبها : ولكن الليـل سيظلك حينما يظلنى النهار ! فليس من الممكن أن ينظر أهل الأرض جميعاً فى وقت بعينه إلى مكان بعينه من السماء .

وإذا هى دهشة ، لأنها علمت ما لم تكن تعلم . وإذا هى تشعر بشيء من خيبة الأمل عظيم ، وتلوم على أنه أظهرها على هـذه الحقيقية العلمية القاسية . وقد أقبلت العربة وافترق العاشقان بعد حزن ولوعة .

٭٭٭

فإذا كان الفصل الخامس ، فقد مضى عام ونصف عام على هذا الفراق ، ونحن فى باريس فى القصر الذى كنا فيه فى الفصل الأول ، وفى نفس المـكان الذى كنا فيه فى الفصل الأول من القصر ، ولـكن أشياء كثيرة قد تغيرت . فليس القصر قصر « كلودين » لأنها باعته وباعته لصـديقتها « هنرييت جامين » التى اشتدت الصلة بينها وبين صاحبها الذى لقيته عند القبر حتى اشترى لها هذا القصر وأنزلها فيه . وهى اليوم تحتفل أول مرة فى قصرها الجديد ، وقد دعت أصدقاءها وصديقاتها الذين رأيناهم فى الفصل الأول . وهم جميعاً يعبثون ويلهون ويتبادلون أحاديث كلها مجون وعبث وتلميح إلى ما لا يصرح به . . . . وهم جميعاً سعداء ، إمّا بما يلقون فى الحاضر ، وإما بما يأملون فى المستقبل . وقد انتحى اثنان ناحية من

المكان ، فهما هادئان يتحدثان فى حزن مبتسم ، وهما الشيخ وصاحبته « كلودين » يذكران هؤلاء الناس وسرورهم وابتهاجهم وما هم فيه مما يشبه الجنون . ثم تنظر فإذا « فيتويل » بين القوم وإذا هو يقبل ليحيي « كلودين » فيخلو إليها حيناً والقوم لاهون فى الرقص والعبث . ويتحدث العاشقان فيما كان من أمرهما منذ ذلك الفراق . أما هو فلم ينس ولم ينقطع عن التفكير فى صاحبته والحنان عليها ، ولكنه مع ذلك تعزّى ، وتعزّى بهذا البحث العلمى وبما اعترضه فى طريقه من الأشياء والمناظر المختلفة . ومهما يكن عزاؤه فلن يستطيع أن يمحو من قلبه ذكرى يملؤها الحنان على تلك الأيام الماضية . وأما هى فقد تألمت وكان ألمها شديداً ، فأصابتها علل وأمراض عصبية ، وأدركها الشيب كما أدركه ، ولكنها تخفى شيبها فى حين هو لا يخفيه . وقد جهل الناس جميعاً قصتها ، ولم يشعروا منها بشىء إلا ابنتها الطفلة ، فقد فطنت للقصة وعرفت دخيلتها ، وأرادت أن تنتقم لأمها ففقأت عينى « فيتويل » فى صورة كانت عندها ، ثم يمضيان فى الحديث .

أما هو فقد تعزَّى وما يزال يذكر صاحبته ويحتفظ بهذه الفكرة ولكنه سيتزوج . سيتزوج أختاً لرفيق له فى البعثة الجغرافية لقيها فى الهند الصينية ورافقها فى الطريق إلى باريس فرضيها زوجا له .

ليست جميلة ولا خلابة ككلودين ، ولكنها رءوم ، وفيها قوة و إرادة وميل إلى العلم . فإذا نظرت كلودين إلى صورة الفتاة ابتسمت لها وأحبتها وهنأت صديقها فى حزن ولكن فى إخلاص . وتأثر هو بهذا الإخلاص وبهذا النوع من التضحية وأخذ يثنى عليها ويرق لها ، ولكنها هى أيضاً تعلن إليه أيضاً أنها ستتزوج . نعم ستتزوج ويكون الشيخ زوجها . . . فقد فرت امرأة الشيخ مع ضابط شاب ، وأصبح الشيخ يستطيع الطلاق دون أن يخرج عن عاداته وآرائه . وقد فعل وعرض على « كلودين » أن تكون زوجه الشرعية ، فترددت ثم قبلت . أليست تفكر فى ابنتها ! أليست تعطف على الشيخ فى آخر أيامه ! وقد باعت هذا القصر ، وستترك باريس مع زوجها وابنتها ، وسيخلون إلى حياة هادئة منظمة طاهرة فى أعماق الريف . وهما فى هذا الحديث إذ يقبل الراقصون اللاهون فى ضجيجهم وعجيجهم ،

فيخفون علينا صوت هذين العاشقين اللذين يذكران الماضى ويتحدثان عن المستقبل . يخفون صوتهما فيغرق هذا الصوت ويغرق صاحباه فى ضجيج الحياة اللاهية العابثة كما يغرق فى هذا الضجيج كل شىء فى كل يوم .

وكم من دون لهو الحياة وعبثها من أحاديث ليست أقل تأثيراً ولا صدقاً من هذا الحديث !..

مايو سنة ١٩٢٤

الخطر الآخر

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي « موريس دونيه »

ليست كالقصة التي حدثتك عنها في الأسبوع الماضي، أو هي لاتشبهها من وجوه كثيرة. فهي لا تدرس أشخاصاً ولا تعطي منهم صوراً بينة تمثل طبقات مختلفة من الناس. أو هي إن درست هؤلاء الأشخاص ومثلتهم تمثيلا قوياً، فليست تتخذ من هؤلاء الأشخاص غرضها الأول، وليست تدرسهم لأنفسهم، وليست تريد أن تتخذهم عناوين لطبقات من الناس، وإنما تتخذهم وسائل وطرقاً للغرض الذي تقصد اليه والغاية التي تريد أن تبلغها. هي لا تدرس شخصاً ولا أشخاصاً، وإنما تصور عاطفة أو عواطف. بل يجب أن نكون أدق من هذا وأ كثر وضوحاً؛ فهي لا تدرس العواطف ولا تتصورها من حيث هي، وإنما

تدرس الجهاد بين العواطف وتصوره . وهى تعنى عناية خاصة بالجهاد بين عاطفتين لهما فى حياتنا الأثر كله ، ولهما عليها السيطرة كلها . أريد عاطفة الحب وعاطفة الأمومة .

القصة جهاد بين هاتين العاطفتين ، بل ربما لم يكن هذا التعبير صحيحاً ؛ فالقصة تاريخ لهاتين العاطفتين : تدرسهما حين تنشآن ، وتدرسهما وهما تنموان ، ثم تدرسهما حين تصطدمان ؛ ثم تسجل انتصار إحداهما على الأخرى ، أو — بعبارة أصح وأدق — تسجل انتصار كلتيهما على الأخرى . فكلتا العاطفتين منتصرة ، وكلتاهما منهزمة ، والأشخاص فى هذا كله وسائل وسبل لا أغراض ولا غايات . فلو استطاع الكاتب أن ينطق هذه العواطف ويحملها على الحركة والاضطراب لأعرض عن الأشخاص إعراضاً . ولكن ذلك غير ميسور ؛ فليس للعواطف من حيث هى وجود مستقل ، وإنما توجد فى الناس . فلا بد لإحيائها وتحريكها وتصوير الجهاد بينها من أن يحيا الناس ويتحركوا ، ويجاهد بعضهم بعضاً . ولو أن الكاتب عدل عن الأشخاص واكتفى بالعواطف فى أنفسها لما كان كاتباً ممثلاً ، ولكان فيلسوفاً أو أحد الباحثين عن ظواهر علم النفس .

هو إذن مضطر الى الأشخاص ، يتخذهم وسيلة الى درس العواطف . وما الأشخاص بدون العواطف ! ؟ وإذا كانت العواطف لا تستطيع أن توجد وحدها ولا أن تتحرك وتضطرب فالإنسان كذلك لا يستطيع أن يوجد وحده ولا أن يتحرك ويضطرب ، وإنما هو محتاج فى وجوده وحركته واضطرابه الى هـذه العواطف التى تفيض عليه الوجود وتبعث فيه الحركة والحياة . لا وجود للإنسان بدون العاطفة ، ولا وجود للعاطفة بدون الإنسان . وإذن فمن درس الإنسان فقد درس عواطف الإنسان . وإذن فليس كاتبنا مسرفاً ولا متجاوزاً القصد ولا ممعناً فيما بعد الطبيعة إذا هو لم يتثاقل فى درس الأشخاص وتصويرهم تصويراً بيناً واضحاً ، وإنما قصد الى ناحية من نواحى الفن فأتقنها وبرع فيها .

ليس الأشخاص غرضاً من أغراضه ، وهم مع ذلك أحياء فى قصته ، أحياء موفورو الحظ من الحياة ؛ فهم يتحركون ويعملون فى خفة ونشاط لا تجدهما إلا عند المهرة من كتاب هذا الفن . وأنت تقرأ القصة أو تشهدها فلا تشعر فيها بتكلف ولا تصنع ، وإنما يخدعك الكاتب عن نفسك فيخيل اليك

أنك تشهد فصولا من فصول هـذه الحياة التى يحياها الناس فى كل يوم لولا أنك مضطر إلى أن تلاحظ أشياء قليلة تكلفها الكاتب تكلفاً لأنه لا يستطيع إلا تكلفها .

قلت إن القصة جهاد بين عاطفتى الحب والأمومة . ولكنى أعود اليوم فالفتك الى ما لفتك إليه فى حديث الأحد الماضى من أن كاتبنا رشيق خفيف الحركة سريعها ، دقيق كل الدقة فى تصوره وتعبيره عما يتصور . فهو يعرض لأشد ألوان الجهاد عنفاً فيمثله أصدق تمثيل ، ويترك فى نفسك أشد الآثار وأعمقها وأبقاها ، دون أن يتكلف لذلك العبارات الضخمة أو الجهد الشديد ، بل دون أن يتكلف لذلك شيئاً . هو كالموسيقى الماهر الذى لا يحتاج الى أن يثقل على أداة من أدواته الموسيقية ليستخرج منها أعذب النغم وأمره وأشده استثارة للعواطف فى نفسك ، وإنما يكفيه أن يلمسها لمساً خفيفاً فإذا هى تخرج الآيات البينات . وكذلك كاتبنا ، يلمس الموضوعات لمساً خفيفاً ، أو قل يلمس قلبك لمساً رقيقاً ، فإذا هو قد أحيا فيه العواطف بما يشخصها و يمنحها القوة والحياة ، ويخلق بينها ألوان الجهاد . لن تجد فى قصصه هذه الألفاظ الضخمة العنيفة التى يسحرك

عنفها وضخامتها ، وإنما تجد فيها الألفاظ العادية المألوفة التى يستطيع الكاتب بفنه أن يمنحها حياة ليست عادية ولا مألوفة .

ومن هنا كان تأثرك بقصص هذا الكاتب صادقاً طبيعياً من جهة ، وهادئاً وديعاً من جهة أخرى . يحزنك دون أن يحول بينك و بين الابتسام ، و يضحكك دون أن يعصمك من الحزن والاكتئاب ، بل ربما لم تجد فيه حزناً خالصاً ولا سروراً خالصاً ، وإنما هو فى جميع أطواره مزاج من الحزن والسرور . ولنترك القصة نفسها لنثبت لك صدق ما نقول .

* * *

نحن فى قصر من قصور باريس نخم يدل أثاثه على أن الذين يسكنونه قوم مثرون ضخام الثروة . وهم فى الحق كذلك . فصاحب القصر رجل يشرف على طائفة من المصانع تغل عليه أموالاً كثيرة ، فهو فى الوقت نفسه من رجال الصناعة ومن رجال المال . وهو يعيش عيشة ملائمة لمكانته وثروته ، فينفق عن سعة وفى غير تقتير . وزوجه تتحدث عن شجرة غرسها فى حديقته ، وبدأت تؤتى شيئاً من الثمر ، فإذا كل ثمرة من هذا الثمر القليل الذى آتته قد كلفت صاحب القصر آلافاً من

الفرنكات . هو غنى ، وهو مترف ، وهو مطلق اليد فى المال . وزوجه جميلة فاتنة عذبة الصوت خلابته ، ليست أقل من زوجها ترفاً ولا عبثاً بالمال ، ولعلها أشد منه إمعاناً فى الترف والعبث . وقد دعا صاحب القصر الى العشاء فى هذه الليلة نفراً من أصحابه وأصدقائه . يعنينا منهم رجل متوسط السن هو « اتيين جادان » كان رفيقاً لصاحب القصر فى المدرسة ، ثم افترقا بعد أن أتما الدراسة ، فسعد أحدهما وعاش الآخر عيشة كد وعناء فى مدينة من مدن الأقاليم ، واقترن بفتاة هى آية فى الجمال والسحر ، هى « كلير » زوجه التى تحضر معه هذا العشاء . وكانا قد أقبلا الى باريس يقضيان فيها أياماً فلقيهما صاحب القصر فدعاهما الى قصره مغتبطاً بلقائهما ، ودعا معهما قوماً آخرين ، منهم رجل لا بد من أن نذكره وهو « فريديير » وهو المحامى الذى بعد صوته فى المحاماة حتى أصبح علماً من أعلامها ولمّا يجاوز الخامسة والثلاثين . ولم يكد هؤلاء القوم جميعاً يلتفون إلى المائدة حتى كان فيهم دهش وعجب ، لأنهم جميعاً كانوا أصدقاء ثم فرقت بينهم أحداث الحياة حتى نسى بعضهم بعضاً نسياناً قوياً أو ضعيفاً . وقد ذكرنا أن « اتيين جادان » كان رفيقاً فى المدرسة لصاحب

القصر ، ونذكر الآن أن « فريديير » كان صديق الطفولة والصبا والشباب « لكلير » قرينة « اتيين جادان » هذا . ولم يكن الأمر قد وقف بينهما عند الصداقة ، بل كان قد تجاوزها إلى الحب ، وإلى الحب الشديد القوى ثم حيل بينهما وبين الزواج ، فانصرف المحامى الى باريس وأقام فيها وتزوجت صاحبته من زوجها هذا وأقامت فى مدينة من مدن الأقاليم . والتقى هؤلاء الناس جميعاً بعد فرقة اتصلت اثنى عشر عاماً ، فهم دهشون ، وهم مغتبطون ونحن نشهدهم وقد انصرفوا عن المائدة وأقبلوا إلى الحديقة يتحدثون ويتناولون القهوة وما إليها . وليس من شك فى أن أحاديثهم إنما تدور حول الماضى الذى عرفوه واشتركوا فيه ، وحول ما كان لكل منهم من سيرة وحظ أيام هذه الفرقة الطويلة . وفى هذا الحديث لذة تضحك ولكنها تحزن أيضاً ؛ فقد كان هذان الصديقان رفيقين فى المدرسة خرجا منها فى سنة واحدة ، وكان أحدهما أول الفائزين فى الإمتحان وكان الثانى آخرهم ، ثم لم يتح له الفوز إلا لأن صديقه أعانه وأتاح له هذا الفوز . فلما استقبلا حياتهما العملية انعكست بينهما آية الفوز . فأما آخر الفائزين فهو صاحب القصر الذى أتيحت له الثروة

الضخمة والمكانة العالية . وأما أول الفائزين فهو صديقه هذا الذى يعيش عيشة كد وعناء ، ويكسب رزقه بالعمل فى شركة من شركات السكك الحديدية . وهما يتحدثان فى ذلك . يغتبط أحدهما بأنه كان فى المدرسة غبياً بليد الذهن ، ويندب الآخر حظه بأنه كان فى المدرسة ذكياً حاد الذكاء ، وهما يُعَمِّمان ويتخذان من هذا قاعدة هى أن أشد الناس ذكاء فى المدرسة أسوءهم حظاً فى الحياة العملية ، وأن الفوز مقدور للأغبياء الذين لا يذوقون العلم ولا يميلون إليه . وهما يضربان لذلك الأمثال ، ويكثران منها حتى يصلا إلى اسم من الأسماء كان صاحبه ذكياً نابهاً وأتيح له شىء من الفوز كاد ينقض القاعدة لولا أن سوء الحظ أقبل فرد الأمر إلى نصابه ، واضطر هذا الرجل إلى الإفلاس ، وإلى أن يعرض مصنعه للبيع ، فاشتراه صاحب القصر وهو يعيد تنظيمه وينتظر من ورائه ربحاً كثيراً . وهنا تعرض لصاحب القصر فكرة وهى أن يستعين بصديقه « ايتين جادان » فيما يعد من عمل ، فيعرض عليه ذلك ويرغبه فيه ، ويؤكد له أنه كان دائماً مصدر الخير والثروة لشركائه والذين اتصلوا به .

فإذا أظهر شيئاً من التردد ألح عليه ودعاه إلى مكتبه ، ليظهره على الصور والأوراق فيذهبان . ولا يكادان يذهبان حتى تستأذن صاحبة القصر فى أن تترك أضيافها حيناً لأنها ستغنى بعد أيام فى حفلة من الحفلات ، وهى مضطرة إلى أن تعد نفسها لهذا الغناء ، ولن تغنى وحدها بل سيشاركها « ميان » أحد الأضياف ، وإذن فسيذهب معها أيضاً إلى غرفة الاستقبال حيث البيانو ليجربا صوتيهما وغناءهما . وإذن فلم يبق أمامنا إلا « كلير » وصديقها القديم « فريديير » فهما يتحدثان حديثاً عادياً هادئاً فى أول الأمر ، يذكران صاحبة القصر وانصرافها عنهما فى غير كلفة ولا أدب . ونفهم من الحديث الذى يقصه « فريديير » على صاحبته أن صاحبة القصر لم تتركهما للغناء ، وإنما تركتهما للحب ، فهى مشغوفة بصاحبها الموسيقى وهو مشغوف بها ، وهما لا يتكلفان إخفاء هذا الشغف وإنما يرسلانه على طبيعته . فإذا حاولت « كلير » أن تنكر على صديقها هذه الغيبة أجابها إنى لم أقل شيئاً غريباً ، وإنما حدثتك بما يتحدث به الناس . على أنى لا ألوم صاحبة القصر فقد خانها زوجها وأعرض عنها ، فأخذت تتعزّى وتسلى عن نفسها ولجأت إلى

الموسيقى كما كان يلجأ النساء إذا خانهن الحظ إلى الدير . وهما فى هـذا الحديث إذ تدعوهما صاحبة القصر من النافذة : « أين أنتما ؛ فأنا لا أراكما » فيجيبها « فريديير » نحن حيث تركتنا لم نبرح مكاننا وإنما تحجبنا عنك الأشجار . فتسأل : « وهل تريانني ؟ » فيجيب : « كلا ! لأن الأشجار التى تحجبنا عنك تحجبك عنا » . وهو كاذب ، فهما يريانها وهى لا تراهما . فإذا سألته صاحبته عن هذا الكذب ولامته فيه أجابها : « إنما أحسنت إليها لأنى هوّنت عليها أمراً تطمع فيه وتستصعبه ، انظرى » . وينظران فإذا صاحبة القصر وصديقها الموسيقى معتنقان يتلاثمان . . . فتخجل « كلير » لذلك ، ثم تسأل :

أليس لها ولد ؟

فيجيبها : « كلا ، هل تظنين أنها كانت تعرض عن الحب لو أن لها ولداً ؟ »

فتجيب : « أحسب أن الولد يعصم أمه من الهفوات » .

أعتقد أنك مخطئة ، وأن الأمومة والحب يستطيعان أن يتفقا الاتفاق كله » .

وهنا وضع الكاتب نظريته التى ستدور حولها القصة ، وهى أن الحب والأمومة يتفقان أو لا يتفقان ، ويجب أن نتفق نحن أولا . فالكاتب لا يريد الحب من حيث هو ، لا يريد الحب المشروع بين الزوجين ، وإنما يريد الحب الآثم بين الخدنين . يسألها : ألها ولد ، فإذا لها صبية فى الثانية عشرة من عمرها .

— وهل هى جميلة ؟ .

فتتردد فى الجواب تواضعاً واستحياء ، ثم تجيب بأنها جميلة بارعة الجمال .

وما اسمها ؟

— « مدلين »

ثم يذكران صباهما وشبابهما وحبهما ، فإذا هو مستمسك بهذا الحب وفىّ له متأثر به أشد التأثر حتى فى أوقات لهوه وعبثه ، فهو كغيره من الشبان قد لها وعبث وأخذ بحظه من اللذة ، ولكنه لم ينسها لحظة . وأكثر من هذا أنه حين لها وعبث لم يمل من النساء إلا إلى من كانت تشبهها شبهاً قوياً . وإذا هى ليست أقل منه استمساكا بالحب وتأثراً به ، وإذا

هى كانت تغار وتألم كلما سمعت بخليلاته وأخدانه ، وإنما هى تصدقه فيما يزعم ؛ فقد رأت فى ملعب من ملاعب التمثيل إحدى خليلاته فإذا هى تشبهها حقاً . وهنا يضع لنا الكاتب النظرية الثانية التى تدور حولها القصة : وهى أن صاحبنا ككثير غيره من الناس لا يحب شخصاً من الناس بعينه ، وإنما يحب طائفة من الخلال والمشخصات تتميز بها المرأة التى يهواها . هو يحب شكلا من أشكال النساء ، أو يحب « عينة » من النساء إن أعجبك هـذا التعبير المبتذل . ثم يتصل الحديث بينهما فلا نشك فى أنهما صادقان فى هذا الحب ، ولا نشك فى أن طبيعتهما تدفعهما دفعاً عنيفاً إلى استئناف هذا الحب وإلى الانتقام لأنفسهما من هذا الحرمان الذى احتملاه . وهما يقاومان ، أما هو فيتكلف المقاومة تكلفاً ، وأما هى فتقاوم مخلصة تريد أن تفى لزوجها وابنتها . ولكنها لا تحب زوجها ولا تسعد بقربه ، فليس لها حصن من هذا الحب الجديد إلا ابنتها وإلا أنها ستسافر منذ غد . ولكن زوجها يتحدث إلى صاحب القصر فى مكتبه حول تلك الفكرة التى إن قبلت فستضطرها إلى ترك الأقاليم والإقامة فى باريس . وانظر إلى زوجها وقد أقبل مع

صاحبه مبتسما يظهر القبول . أما هى فستمانع فى ذلك ممانعة شديدة ، ولكنها واثقة بالإخفاق لأن زوجها لا يعتد لها برأى .

* * *

فإذا كان الفصل الثانى ، فقد مضت أربعة أعوام على ما قدمت لك . ونحن في باريس فى بيت « كلير » فقد قبل زوجها ما عرض عليه صاحبه واستقر فى باريس منذ أربعة أعوام . وكان ما لم يكن منه بد ، فانتهى الحب إلى نتائجه بين « كلير » وصديقها « فريديير » . ونحن فى أوائل السنة ، ولهذا نشهد أبوى « اتيين جادان » قد أقبلا يزوران ابنهما ، ونشهد معهما أختاً « لكلير » شقية تعسة خانها زوجها وأضاع عليها ثروتها كلها ، فلجأت إلى أختها وطلبت الطلاق ، « وفريديير » هو الذى يتولى عنها ذلك . ثم نشهد إلى هؤلاء جميعاً فتاة فى السادسة عشرة من عمرها ، جميلة ، بارعة الطلعة ، رشيقة ، فاتنة اللفظ ، ليست بالطفلة ، وإنما هى امرأة أو تكاد تكون امرأة ، تفكر كما تفكر النساء وتتحدث كما يتحدثن . ولعلها بل لا شك فى أنها تحس كما يحسسن . ولكن الناس جميعاً من حولها ينظرون إليها كما ينظرون إلى الطفلة ، ويضحكون

من جِدّها كما يضحكون من هزلها ، وذلك يؤذيها ويغضبها ؛ فهى تكره أن تكون طفلة لأنها ليست طفلة . وهى تريد أن ينظر إليها أهلها وأصحابها كما هى لا كما يريدون أن تكون . وهذه الفتاة هى « مدلين » بنت « كلير » ، وهى تتحدث إلى جدتها وخالتها فى شؤون مختلفة ، حتى إذا عرض للحب تحدثت فيه كعالمة به ، ثم إذا عرض للزواج ذكرت آمالها وأمانيها فى لهجة جادة أثرت فى جدتها وخالتها . فتسألانها أتحب أحدا ! فتغضب الفتاة وتنصرف . ونسمع الجدة والخالة تتحدثان فنفهم أن « فريدير » يتردد على هذا البيت تردداً متصلا حتى زالت بينه وبين أهله الكلفة ، وأصبح كأنه واحد منهم ، وأصبح صاحب البيت لا يستطيع أن يمضى يوماً دون أن يراه ونفهم أن الجدة تفرض أن حفيدتها تحب هذا الشاب ، وهى تفكر فى هذا الحب وأنه قد ينتهى إلى زواج ، ثم نفهم أن « فريدير » غائب عن باريس منذ أسبوع قد ذهب يزور أمه ، وأن أهل هذا البيت جميعا يجدون لغيابه وحشة . وما هى إلا أن نراه قد خلا إلى « كلير » لحظة ، فأخذا يتحدثان فى الحب وآثاره وفيما وجد كل منهما من وحشة لهذه

الفرقة القصيرة . ويقبل الزوج فإذا هو كحاله لم يتغير ، ساخط على الناس جميعا ، يندب حظه ويحسد شريكه « ارنستين » الذى يستغله ويستغل أعماله فيربح المال ويظفر بالمكانة العالية أليس يتحدث الناس بأنه سيظفر بالوسام ! ! ويمضى الزوج فى سخطه وحسده ، حتى يتجاوز الناس إلى زوجه فينالها بضروب من اللوم والتأنيب تحتملها هادئة متألمة ، ثم يتركهما وينصرف . فيعودان إلى ما كانا فيه من حديث ، وإذا حبهما قد تغير وأصابه شىء من الفتور فى نفس « فريديير » فليس هو ذلك المفتون المُدَلَّه الذى رأيناه فى الفصل الأول ، وانما هو هادىء مطمئن يتكلف الافتتان والهيام . أما « كلير » فبعيد حبها كل البعد عن الهدوء والفتور ، وإنما هو يتلظى ويضطرم ، وهى تجتهد الاجتهاد كله فى تخفيفه وتلطيفه . وقد طلب إليها صاحبها أن تزوره اليوم وأعلن إليها أنه ينتظرها فتعتذر لأنها لا تستطيع ؛ فهى مضطرة إلى زيارة لا يمكن إرجاؤها .

— فإذا فرغت من هذه الزيارة فمرى بى . . .

— لا أستطيع لأن ابنتى سترافقنى .

وهنا يغضب الرجل غضباً شديداً ، ويظهر مللا وتبرما

بهذه الحياة المضطربة التى تختلس فيها اللذة اختلاساً والتى تقوم على النفاق والخديعة ، والتى لا يستطيع الحب أن يظهر فيها واضحا صريحا . وهو لا يتبرم بهذا وحده ، وإنما يتبرم بهؤلاء الناس الذين يضطرونه إلى هذا النفاق والخداع . يتبرم بالفتاة ويعلن أنه يكاد يكرهها . فلا تجيبه صاحبته إلا بالبكاء والاستعطاف والدفاع عن ابنتها ، ثم ينتهى بهما الأمر إلى الرضا والصفو . وقد أقبلت الفتاة فأعلنت إلى أمها أن قد آن الوقت للزيارة ، فتنصرف لتستعد . وتخلو الفتاة إلى « فريديير » فيتحدثان ، وإذا الفتاة تحدث هذا الرجل على نحو ما كانت تحدثه أمها ، لهجتها ورشاقتها وأسلوبها وطريقتها فى التفكير ، كل ذلك يصور أمها تصويراً صادقاً ، وهى جادة ولكن صاحبنا كغيره يضحك منها ويحدثها كما يحدث الأطفال ، فيغضبها ذلك ويؤذيها ، ويضطر هو إلى أن يترضاها وقد كفانا هذا الحديث لنفهم شيئين : الأول أن الفتاة مفتونة بهذا الرجل فتنة لا حد لها ، فهى تحبه وتحرص على أن تعجبه وترضيه وعلى أن ينظر إليها كما ينظر إلى فتاة تحب وتفهم الحب . الثانى أن صاحبنا يحس من نفسه شيئا كهذا ولكنه يتجاهله وينكره ويقاومه ويعبث به ويسلك

فيه سبيل الهزل . وهو يسأل الفتاة عما أهدى إليها أول السنة ، فتذكر له هدايا كثيرة لم يعجبها منها إلا اثنتان ، هديته هو وهدية أبيها .

— وما هدية أبيك ؟

— دفتر حسن التجليد مذهب مقفل ، سأتخذه لا كتب فيه مذكراتى .

— وهل لك مذكرات ؟

فيغضبها هذا السؤال . وكيف لا تكون لها مذكرات وليست بالطفلة ولا الصبية ، ولكنها كغيرها من الناس تفهم وتشعر . وقد أقبلت أمها فينصرفون جميعا .

✲ ✲ ✲

فإذا كان الفصل الثالث فنحن فى قصر « أرنستين » فى ليلة راقصة قد كثر فيها المدعوون إلى الرقص وغيره من اللهو . ففى القصر ملعب للتمثيل تلعب فيه صاحبة القصر نفسها مع عشيق جديد لها ، لأنها قد زهدت عشيقها الأول ، وازدحم الناس فى هذا الملعب إلا ثلاثة من الشبان انتحوا ناحية ، وأخذوا يتحدثون ويعبثون بأهل القصر ومن دعوا

إليه ، ويذكرون جمال النساء والفتيات وآمالهن ومطامع الشبان في مساعيهم . وقد فهمنا من حديثهم أن « مدلين » قد أقبلت إلى هذه الحفلة في زى الفتاة لا في زى الطفلة ، وهى تتقدم اليوم لأول مرة إلى الحياة العامة ، أى تظهر على أنها فتاة تشارك الناس في حياتهم ، فلهم أن يخطبوها ، ولها أن تتزوج . وليس من يفكر الآن في الخطبة ولا في الزواج ، وإنما هؤلاء الشبان يذكرون جمالها وروعتها ويريدون أن يغنموا من ذلك بحظ ، يريدون أن يراقصوها وذلك يسير إذا قدّموا إليها . ولا تلبث صاحبة القصر أن تقبل وقد فرغت من لعبها وغنائها فيستبق إليها هؤلاء الشبان يهنئونها ويشكرونها ، ولم يذكروها من قبل إلا بالسوء . ثم يطلب إليها أحدهم أن تقدمه إلى « مدلين » فتفعل ، والناس يترددون في غرف القصر ، ونلمح من بينهم صاحب القصر قد انتحى مع صديق له ناحية فهو يحدثه ، واسم هذا الصديق « هيينس » نفهم من حديثهما أنه كان في الهند الصينية منذ أعوام ، وأنه عاد إلى باريس ، فإذا هى قد تغيرت ، وإذا هو لا يعرف أهلها ولا يعرفونه ؛ ولذلك يريد أن ينصرف من هذه الحفلة ،

فيأبى عليه صاحب القصر ويقـدمه إلى قريبة له جميلة رشيقة يطلب إليها أن تنبئه بكل شيء، وتظهره على كل شيء، حتى يألف الناس ويألفه الناس؛ فتعده بأنها ستبذل فى ذلك جهدها وترجو أن توفق. ولا تكاد تتحدث إلى صاحبها حتى تبدأ بصاحب القصر وصاحبته فتغتابهما وتقص أمرهما على الرجل وتذكر حب صاحبة القصر وعبثها واستهزاءها بزوجها، وتحس أنها ستتناول المحتفلين جميعاً بهذه الغيبة، ولكن الناس يترددون فى الغرف يذهبون ويجيئون فى المقصف وإليه، فتخلو الغرفة منهم أو من أكثرهم من حين إلى حين، وقد رأينا الشبان يستبقون إلى « مدلين » يطلبون إليها أن تراقصهم، ورأينا « مدلين » تقبل ذلك مبتهجة مسرورة، ورأينا أنها بذلك سعيدة، وسمعنا الناس يذكرون أنها ملكة هذه الليلة، وأن جمالها قد ظفر بفوز لا يعدله فوز، وها نحن أولاء نرى « كلير » قد خلت لحظة إلى صديقها « فريدير » فأخذت تحدثه :

— نحن وحدنا فضمنى إليك !

— لسنا وحدنا .

— تستطيع أن تتلطف لى فى اللفظ فتذكر جمال ثيابى وتنسيق شعرى .

— فيظهر ترددا . . .

— ما أشد حذرك ! !

— وما أقل حذرك ! ! . . .

ثم يتحدثان ، فإذا حب الرجل لم يزدد إلا فتوراً ، وإذا حبها لم يزدد إلا اشتعالا واضطراماً ، وإذا هى تألم لفتوره ، وإذا هو يألم لهذا الفتور أيضاً ، ولكنه قد انقطع عن زيارتهما منذ أسبوعين ، وكان متعوداً ألا ينقطع عنها يوماً ، فهى تعاتبه ، وهو يزعم أن عمله كثير ، ثم يأتى من يشغلهما ، فإذا عاد إلى مكانهما وإلى الخلوة حيناً سمعناها تتحدث إليه فى رفق وألم ، بأنها سمعت الناس يثنون على ابنتها وعلى جمالها ويذكرون فوزها ، وبأن صاحب القصر قد تحدث إليها فى رجل يعرضه زوجاً « لمدلين » ودلها على هذا الرجل وهو « هيبنس » الذى ذكرناه آنفاً ، وقد نظرت إليه فأعجبها منظره ، وهى تريد أن تخبره . تتحدث إليه بهذا كله فى رفق وألم واضطراب . وكيف لا تألم ولا تضطرب وقد كانت تنظر إلى ابنتها كأنها

طفلة لا كأنها فتاة يمكن أن تخطب ، وكانت تحسب نفسها شابة وكانت تستمتع بحقوق الشباب فى حرية وشجاعة . أما الآن فابنتها فتاة تخطب ، وإذن فليست هى من الشباب بحيث كانت تظن ، وإذن فليس لها أن تستمتع بحقوق الشباب فى حرية بل يجب عليها أن تحذر وتحتاط حتى لا تضيع مستقبل ابنتها ولا تعرّض اسم الأسرة للخطر . أليس هذا كله يكفى لتألم وتضطرب ! ! وأيهما منتصر : الحب الذى لا حد له ، أم الأمومة تملؤها الرأفة والعطف والحرص على سعادة الأبناء ! أتسترسل فى حبها الذى يحرقها تحريقاً ، أم تقتصد فيه بل تنصرف عنه لتكون أُما حقاً ولتؤدى واجب الأمومة حقاً ! وأى حق لها فى أن تضحى بابنتها ومستقبلها وكرامة الأسرة ، لأنها تحب وتريد أن تستمتع بالحب ؟ هى تكره زوجها وتشقى بقربه . ولكن ما ذنب الفتاة ؟ وهل هى التى خلقت هذا الشقاء ؟ هى تحب صاحبها وتسعد بقربه وتشقى بفراقه ولكن ما ذنب الفتاة ؟ وهل هى التى خلقت هذا الحب ؟ ثم إن الأمومة لا تعلل وليس كل شىء فيها يمكن فهمه وتأويله . هى أم ، فيجب أن تضحى بنفسها فى سبيل ابنتها . وماذا تكون النتيجة لو سمعت الفتاة بحب أمها الآثم ؟ يجب أن ينتهى هذا الحب ؟ ويجب أن يحتمل هذا الألم ،

ويجب ألا تلقى صاحبها إلا فى حذر واحتياط . وقد أقبلت الفتاة فحيت « فريدبير » تحيـة المبتهجة بلقائه ، وجلست إليه تحدثه وانصرفت أمها فأخذت تطلب إليه نفس ما كانت تطلبه أمها من تلطف وثناء ، وأخذ هو يتضاحك أول الأمر فيغضبها ذلك ويحزنها ، ثم يأخذ فى التلطف والثناء مخلصاً فيسرها ذلك ويرضيها . وإذا هو قد اندفع فى الثناء اندفاع المحبين ، وكاد يعلن حبه ، ولـكنه ملك نفسه قبل أن ينطق بالـكلمة الخطيرة . وهل تظن أن مقاومته تغنى عنه شيئاً ؟ اسمع إلى الفتاة وهي تقص عليه فوزها وتذكر له أن أحد الراقصين أسرف فى التلطف لها وفى ضمها إليه ، وإذا صاحبنا غيران لا يملك نفسه ؟ وإذا هو يلوم ويؤنب ويشير إلى صدرها العارى وإلى ذراعيها الظاهرتين ساخراً منكراً ، وهى بذلك سعيدة فرحة . أليس تعلن إليه راضية أنهـا لن ترقص الليلة ، وقد أحس هو أنه أسرف وباح بسره ، فأراد أن يتراجع وأخذ يعتذر ويلح على الفتاة فى أن ترقص . وأقبلت أمها أثناء هذا كله فسمعت آخر الحديث ولم يرياها ، حتى إذا رأياها وأخذا يشركانها فى حديثهما أقبـل أحد الشبان إلى الفتاة يسألها الرقص ، فتنظر إلى « فريدبير » كأنها تستأذنه ، وينظر هو إليها كأنه يأذن

فتنصرف مع الفتى . والناس يترددون فى الغرف ، وقد امتلأت الغرفة ثم فرغت إلا من جماعات متفرقة يعنينا منها هذان الشخصان اللذان انتحيا ناحية يتحدثان وهما « هيبنس » وصاحبته وهما يمضيان فى الغيبة والعبث بأسرار الناس ، وقد أقبلت أثناء هذا « مدلين » فوقفت منهما غير بعيد والفتى لا يعرفها ، فهو يسأل صاحبته عن « كلير » ويذكر جمالها . « ومدلين » تسمع وصاحبته تغمزه أن يكف فلا يفعل بل يمضى فى حديثه ، فيذكر سعادة « فريديير » بخليلة كهذه فتسأله صاحبته : ومن أنبأك بهذا ؟ يجيبها : أنت منذ حين . وهى تنكر . وماذا ينفع الإنكار وقد سمعت « مدلين » كل شىء فصعقها ما سمعت وهوت إلى الأرض وقد فقدت الرشد وأقبل الناس إليها مسرعين وأولهم أمها .

* * *

فإذا كان الفصل الرابع ، فقد مضى على ذلك أسبوعان ونحن عند « كلير » وهى تتحدث الى أختها محزونة واجمة فإن ابنتها مريضة مرضاً يجهله الطبيب ويعجز عن دوائه ، وقد أرقتها العلة المجهولة تأريقاً متصلا ، فهم يحتالون كل الاحتيال فى أن

تنام فلا يزورها النوم إلا غراراً . وأمها تريد أن تعرف هذه العلة ومصدرها ، ولكن ابنتها لا تحدثها بشيء بل هي تنكر أنها مريضة وتنكر أنها تألم . ولا تشك « كلير » وأختها في أن مصدر هذه العلة إنما هو الحب أو شيء متصل بالحب ، ولكنهما تريدان أن تعلما شيئاً واضحاً ، فتقترح عليها أختها أن تنظر في مذكرات الفتاة فهي وحدها التي تستطيع أن تكشف هذا السر . تتحرج الأم حيناً من النظر في هذه المذكرات دون إذن ابنتها ، ولكن عزيمتها تتم على ذلك فتمضي أختها فتسترق الدفتر في رفق وتنظران فيه فلا تكادان تقرأن منه قليلاً حتى تتبينا أن الفتاة تحب « فريدير » . تكفان عن القراءة ، وتطلب « كلير » إلى أختها أن تتركها ، فتخلو إلى نفسها صعقة تنظر في الدفتر وتفكر وتتحدث الى نفسها ، وإذا الفتاة قد أقبلت تمشي مشياً هيناً ، وقد رأت فيما يرى النائم أن دفترها يسرق فأفاقت من النوم وافتقدت الدفتر فلم تجده ، فأقبلت الى أمها فرأتها تنظر فيه ، فهي تزجر أمها زجراً عنيفاً تتهمها بالسرقة والخيانة ، وتأخذ الدفتر من يدها فتقذفه في عنف ، وأمها ترفق بها وتستعطفها ، والفتاة ماضية في السخط ، حتى إذا أخذت

تهدأ بعض الشىء أحست إساءتها إلى أمها فرقت ، وأدنتها أمها إليها وأخذت تلاطفها وتهزها فى لين وتسألها أن تظهرها من أمرها على كل شىء ؟ والفتاة تقاوم ، ولكنها سئمت المقاومة وعجزت عنها ، فتذكر لأمها كل شىء ، وتنبئها بما سمعت . فانظر إلى هذه المرأة كانت تخشى أن يتسامع الناس بحبها ، وكانت تخشى أن تعلم ابنتها بهذا الحب ، وكانت معتزمة الانصراف عن هذا الحب ؛ وكانت ترى هذه التضحية بنفسها حقاً عليها لابنتها فماذا تسمع الآن ؟ تسمع أن ابنتها تحب عشيقها ؛ وأن إبنتها تعلم بهذا الحب . لو لم تكن أما لصعقت بما تسمع ، ولكنها أم تريد أن تنقذ ابنتها ، فهى ليست صَعِقة ولا مضطربة ، ولكنها مغضبة ثائرة ، تنكر ما اتهمت به وتقسم أنه كذب . وقد رأت الفتاة الصدق فاطمأنت إليه ، وأخذت تبتسم ، ثم أخذت تحيا ، ثم أخذ الأمل يستأثر بها ، وإذا هى قد استردت نشاطها وابتهاجها ، وهى تسأل أمها . أيمكن أن أتزوج « فريديير » ! فتجيبها : أنت تحبينه ! فإذا كان يحبك فماذا يمنع من الزواج ؟

— هو يحبنى ، لا أشك فى ذلك . لقد ظهر لى ذلك منه ظهورا جليا . . . وتقص عليها غيرته ليلة الرقص .

— إذن فستتزوجينه ! . . .

وتدخل الخادم فتنبىء بأن « فريديير » يستأذن ، فتنصرف الفتاة تاركة لأمها أن تتحدث فى هذا الحب إلى « فريديير » فاذا خلت « كلير » إلى صاحبها لم تضع الوقت فى كلام لا يفيد ، وإنما أنبأته بما تعلم من أسباب العلة التى أضنت ابنتها ، وأعلنت إليه أن الفتاة تحبه ، ثم لم تلبث أن أعلنت إليه أنه يحبها أيضاً . ومهما ينكر ، ومهما يتكلف فقد ثبت ذلك وهو لا يستطيع أن يخفيه ، ولكنه لم يجن ما تظن ، فهو لم يغو الفتاة ولم يعبث بقلبها الطفل . وإذا كانت الفتاة قد أحبته فلم يسع هو إلى ذلك ولم يفكر فيه ، كما أنه لم يتعمد حب الفتاة ولم يقصد إليه ، فهو يحبها حقاً ، ذلك شىء لا يستطيع أن ينكره . ولكنه لا يدرى كيف أحب ، وإنما يعلم أنه أحس هذا الحب يقوى فى قلبه ، وأحس أنه يقوى فى قلب الفتاة فقاومه ما استطاع حتى إذا استيأس من الفوز انقطع عن البيت ، وهو الآن معتزم أن يسافر إلى حيث لا يعود . وعزيز عليه هذا ، عزيز عليه

ما أحدث من ألم فى قلب هذه الأم التى يحبها. عزيز عليه ما أحدث من يأس فى قلب هذه الفتاة البريئة . هو لا يعلم لم أحب الفتاة ولا كيف أحبها. ولـكن «كلير» تعلم ذلك إنما أحب الفتاة لأنها تشبه أمها حين كانت فى الثامنة عشرة من عمرها ، وحين كان يحبها ويهواها ، وحين حيل بينه وبين الاقتران بها. وهى تطلب إليه الآن شيئاً عظيما ، تطلب إليه ألا يسافر ، تطلب إليه أن يتزوج الفتاة . . . يصعقه هذاالطلب فيجن جنونه ويتهم صاحبته بالجنون وفقدان الرشـد ، وكيف يستطيع أن يتزوج هذه الفتاة وهو عشيق أمها ! ! أليس فى ذلك منكر لا يعدله منكر ! وليس من الحق أن هذه الفتاة تستطيع أن تسعد بهذا الزواج فستفكر أبداً فى أمها ، وستعلم من غير شك أن أمها قد كذبتها . وسيقوم ذلك الحب الآثم فى سبيل هذا الحب المشروع . ولكن الأم مطمئنة تعلم حق العلم أن الفتاة ستسعد ، وأنه هو سيسعد أيضاً ، وأن الفتاة ستجهل هذا الحب الآثم ، وأنه هو سينساه . تلح فى الزواج ، ويلح فى الإباء ، ويكون بينهما حوار لا أحاول تلخيصه فوق التلخيص ، ولكنها عجزت عن إقناعه فوكلت إليه هو أن يعلن رفضه إلى الفتاة .

وتدعو الفتاة ، فتقبل فرحة مبتهجة وتحييه تحية الواثقة المطمئنة إليه ، فإذا أعلن إليها أنه مسافر إلى حيث لا يعود ظهر عليها من الاضطراب واليأس شيء لم يستطع هو أن يحتمله ، وكأنها تصدق ما سمعت ، وإذا هو يعلن إليها أنه سيعود ويعلن إليها ما يفهم منه أنه قبل الزواج ، وهى فرحة قد طارت فرحا إلى خالتها تدعوها لتسمع هـذا النبأ . وخلا العاشقان لحظة ، فإذا هو يعترف بعجزه عن مواجهة الفتاة بالحق . وإذا هى تقر الزواج مضحية بحبها فى سبيل ابنتها . . .

— إنى لأقدسك !

— إن أنا إلا امرأة شقية . . .

مايو ١٩٢٤

فهرست

ص

العـذراء المفتونة ٥

الأم المفتونة ٢٧

المتجـردة ٥٥

الفضيحـة ٧٧

الاغراء بالرحيل ١٠١

الحبيب ١٢٥

المصـابيح ١٥٣

القبر تحت قوس النصر ١٨٣

عشاق ٢٠٥

الخطر الآخر ٢٣١

الطبعة الأولى سنة ١٩٤٢

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

This book is due on the date indicated below, or at the expiration of a definite period after the date of borrowing, as provided by the library rules or by special arrangement with the Librarian in charge.

DATE BORROWED	DATE DUE	DATE BORROWED	DATE DUE

C28(946)M100

893.7H954
S7

10660224

AUG 1 194

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58873686
893.7H954 S7 Lahazat.